د. عبد الفتاح عوض

إشراقات أندلسية

صفحات من تاريخ الحضارة الإسلامية فى الأندلس

http://al-maktabeh.com

إشراقات أندلسية

صفحات من تاريخ الحضارة الإسلامية فى الأندلس

دكتور عبد الفتاح عوض

أستاذ الأدب الإسبانى بجامعة القاهرة

والمستشار الثقافى المصرى فى إسبانيا

الطبعة الأولى

٢٠٠٧م

عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . احمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذى :

شريف قاسم

مدير الانتاج :

جمال صابد

تصميم الغلاف : عمرو قاسم

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar_Ein@hotmail.com

book ein @ yahoo.com

-web site: WWW.Dar -Ein.com الموقع الالكترونى

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

تقع إسبانيا فى جنوب القارة الأوربية وتشكل مع البرتغال شبه إيبيريا . يحدها من الشمال جبال البرانس التى تفصلها عن فرنسا ومن الشرق والجنوب الشرقى البحر المتوسط ومن الجنوب الغربى المحيط الأطلنطى ومن الغرب البرتغال . تبلغ مساحتها ٥٠٤٧٤٨ كيلو متر مربع ومع جزر البليار والكنارى ٣٢٧٥٠٠٠٠ كيلو متر مربع. عاصمتها مدريد . تتسم إسبانيا بطبيعتها وجغرافيتها المتنوعة حيث السهول والوديان والسلاسل الجبلية. تسقط على المناطق الشمالية منها الأمطار طوال العام مع الاحتفاظ بدرجات الحرارة المعتدلة فى بقية المناطق . تكثر بها الأنهار والروافد وإن كانت قصيرة فى جريانها ومنها أنهار الإبرو والدويرة والتاجه والوادى الكبير. تتنوع المصادر الاقتصادية فى إسبانيا من حيث الزراعة والصناعة والتجارة والسياحة حيث يغلب على بعض المناطق زراعات الفاكهة بأنواعها ومنها البرتقال والحبوب والغلال كالأرز . وفى مجال الصناعة أصبحت إسبانيا أحد مراكز التبادل التجارى بين الشرق والغرب نظراً لطبيعة موقعها الجغرافى. أما السياحة فهى تمثل المصدر الرئيسى فى اقتصاد البلاد باعتبارها من الدول فهى دولة ملكية ذات سيادة يضطلع فيها رئيس الدولة بالسلطة التنفيذية ويتولى السلطة التشريعية البرلمان «لاس كورتيس» الذى يضم ٤٣٨ عضوا ممثلين لكل الأقاليم الإسبانية. وتتولى السلطة القضائية المحكمة الدستورية العليا.

إسبانيا قبل الفتح العربى الإسلامى :

فرضت الإمبراطورية الرومانية سلطاتها على إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وعندما سقطت روما فى أيدى الجرمان أصبحت إسبانيا من نصيب القوط الغربيين فى أوائل القرن الخامس الميلادى بعد طردهم لقبائل الوندال وهى إحدى قبائل البربر الجرمانية . ويقال إن بين القوط والوندال تشابهًا عظيمًا فى العادات والتقاليد، مما يؤكد الرأى القائل بانتمائها إلى شعب واحد. استبد

القوط بالحكم ، لاسيما قبل الفتح الإسلامى، وبسوء سياستهم ساءت حالة إسبانيا واضطربت حياة سكانها، فانتشرت الفوضى وكان يتم استغلال الشعب لحساب الطبقة الحاكمة والمترفة وأصحاب المصالح . إلى جانب ذلك حدثت صراعات بين الطبقات والحاكمين ، وفيما بين الحاكمين أنفسهم. وأصبحت الأسرة المالكة بيدها كل شئ دون سواد الشعب الذى يلاقى الإهمال والظلم ، فتفرض عليه الضرائب والأعباء . وقد انقسم الشعب إلى طبقات : طبقة النبلاء ، ومنها الطبقة الحاكمة ، وطبقة رجال الكنيسة، التى تشارك النبلاء فى حكم البلاد والاستمتاع بخيراتها، وطبقة التجار والزراع والملاك الصغار، الذين يتحملون الضرائب المختلفة، وطبقة عبيد الأرض ، الذين يتبعون مالكها وينتقلون مع ملكيتها من سيد إلى آخر، وطبقة العبيد ، التى تكونت من أسرى الحرب ويتم التصرف فيهم بيعا وشراء. بجانب هذه الطبقات وجد اليهود الذين لاقوا الاضطهاد من القوط وأجبروهم على التنصر أو النفى أو المصادرة فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها. ولما اشتد اضطهاد القوط راسلوا يهود المغرب ودبروا معهم انقلابا ضد القوط، ولكن أمرهم انكشف ، فزاد القوط فى اضطهادهم . وهكذا عاش اليهود فى ظلم واضطهاد، تمنوا الخلاص من بطش القوط وناصروا العرب حينما قدموا إلى إسبانيا ، واعتبروهم منقذين.

قبل الفتح الإسلامى لإسبانيا بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش وأسمه لذريق Rodrigo بالاستيلاء على السلطة وعزل الملك غيطشة Witiza. وغداة الفتح الإسلامى كان لذريق هو حاكم البلاد . لكن أتباع الملك السابق ومؤيديه وأفراد أسرته لم يرضوا عن هذا الحكم الجديد. وكانوا يتحينون الفرصة لاستعادة ملكهم ، ووجدوها فى الفتح الإسلامى، ووهموا أن المسلمين طلاب غنائم ، فسوف لايستقرون فى إسبانيا. لكنهم لم يجدوا لهذا الوهم إشارة، فالمسلمون حملة عقيدة يعملون على نشرها وإعلائها .

كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامى تشكو الاضطراب والفساد الاجتماعى، والتأخر الاقتصادى وعدم الاستقرار ، نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد. لكن هذا لايعنى أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع ، كما لايعنى انعدام قوتها السياسية والعسكرية ، بل كان بإمكانها أن تصد جيشًا مهاجمًا وأن تحاربه وتقف فى وجهه. وأقام القوط فى إسبانيا دولة اعتبرت أقوى الممالك الجرمانية حتى أوائل القرن السادس الميلادى، وبقيت بعد ذلك تتمتع بقوة عسكرية مدربة وقوية فى مواجهة الأحداث .

الفتح العربى الإسلامى لإسبانيا :

كان الفتح الإسلامى لشبه جزيرة إيبيريا (إسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعيًا ، حسب الخطة التى اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم، وهى تأمين حدودهم ونشر دعوتهم . عديدة هى الروايات حول الفتح الإسلامى للأندلس ، ولكن يمكن القول بأن فكرة فتح شبه الجزيرة الأيبيرية هى فكرة إسلامية تمامًا . بل يروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان كما جاء فى المصادر مثل البيان المغرب ونفح الطيب وتاريخ غزوات العرب وغيرها ... فقد كان القائد عقبة بن نافع الفهرى (٦٣هـ) يفكر فى اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع. وسبق للمسلمين نشاط على شواطئ إسبانيا الشرقية وبعض جزر البليار القريبة منها وهى ميورقة Mallorca ومنورقة Menorca واليابسة Ibiza. ذكر الذهبى (٧٤٨هـ) (فى كتابه العبر فى خبر من غبر) أنه فى سنة ٨٩هـ «جهز موسى بن نصير ولده عبدالله. فافتتح جزيرتى ميورقة ومنورقة» . أما الاتصال بيوليان Julián حاكم سبتة Ceuta، أو بغيره من الإسبان ، فإنها جاءت مواتية على ما يبدو. فى الوقت الذى كان موسى بن نصير (والى الشمال الإفريقى قبل وخلال فتح إسبانيا) ، يفكر فى تنفيذ فكرة الفتح.

ولقد اختلفت الأقوال حول كيفية الإتصال بالجانب الإسبانى (يليان وأنصار الملك المخلوع وغيرهم) .. وعلى كل حال فإن اتصالات الجانب الإسبانى بموسى ومساعداتهم- أثناء عملية الفتح- ربما كانت عاملا مساعدا سهل سير الفتح وعجل به . لكن المبادأة ومرد العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامى الذى اندفع مع الفتح بقوة فائقة مرتكزاً على عقيدته .

إسبانيا بعد الفتح العربى الإسلامى:

ما أن تم الفتح العربى الإسلامى لإسبانيا حتى بدأ الولاة فى الأندلس على وجه التحديد فى بث الاستقرار وتنظيم البلاد وإصلاحها وبدأت أعداد كبيرة من المسلمين تهاجر إلى بلاد الأندلس والعمل بهمة ونشاط من أجل إعلاء عقيدة الإسلام فى هذه البلاد الجديدة. وقد اتبع الفاتحون السياسة الحكيمة المتسمة بالرفق والاعتدال والوفاء بالعهود والالتزام بها فى كل الظروف . وقد اهتم الولاة بحسن السياسة للرعية بكل جماعاتها وأن يكون هناك تنظيم إدارى خاص بالمسلمين وآخر لغير المسلمين ، وكلما تقدم الزمن كان الناس يدخلون فى الإسلام أكثر. وبذلك يصبح غالبية سكان الأندلس يحتكمون إلى الشريعة الإسلامية ، وأصبح غير المسلمين أقلية يحتكمون إلى قضائهم. لقد ترك المسلمون للنصارى وغيرهم حق اختيار قضاتهم ورؤسائهم . وليس هذا ما يتعلق بالقضاء فقط، بل كذلك فيما يتعلق بالجباية والأمن وتنظيم

الحرف ... فى حقل الزراعة ، مثلا : ذهب ما كان من اعتبار الزراع رقيق الأرض وأصبح هؤلاء الزراع أحراراً ، لهم حقوقهم ، يزرعون الأرض ملاكًا لها. أما التنظيم الإدارى والمالى فقد تمتعت الأندلس باستقرار ، ضعف أحيانًا فى عهد الولاة. وفى التنظيم الإدارى استفادوا من التقسيم الإدارى الذى كان موجوداً قبلهم . والاتجاه فى التنظيم الإدارى الإسلامى- ومنه الأندلس- يميل نحو الأقسام الإدارية الصغيرة تيسيراً لضبط الأمن وربط المال، فاعتمدوا على الكور (جمع كورة) ، يتبع كل كورة عدة مدن ، يتبع المدينة عدة أقاليم (قرى كبيرة) ثم أجزاء (مزارع أو أرياف) . كما كانت فى الأندلس مراسى (موانئ) .

قامت بعض الأعمال العمرانية ، منها إنشاء المساجد فى المناطق المختلفة- وهو أمر كان أول شئ ينجزه المسلمون حين يقيمون فى مكان ما- وكذلك المدارس فى المساجد أو الربط أو غيرها من أماكن التعليم . وعرفت المساجد - فى العالم الإسلامى ، دوما- بأنها معاهد للتدريس. والمسجد كذلك مركز المدينة المسلمة، وقلبها النابض المتجدد. وتعددت أنواع العمارة، فمنها العمارة الدينية مثل المسجد الجامع فى قرطبة وجامع عمر بن عدبس بإشبيلية وجامع مدينة الزهراء ومسجد الباب المردوم بطليطلة وجامع قصبة الموحدين بإشبيلية ، والعمارة الحربية مثل قصبة ماردة وأسوار إشبيلية ، والعمارة المدنية الممثلة فى الدور والقصور كقصر الجعفرية بسرقسطة وقصور الحمراء بغرناطة ، والحمامات مثل حمام الجوز بغرناطة ، والفنادق مثل فندق الفحم بغرناطة وقناطر المياه مثل قناطر مياه قرمونة بإشبيلية ، ودور الصناعة مثل دار صناعة السفن بإشبيلية . ولايجب أن ننسى رواد الفكر والتنوير فى شتى العلوم والفنون حيث ازدهر الفكر الفلسفى مثل ابن طفيل وابن رشد وابن عربى وغيرهم فى الطب والفلك والشعر.

(١)

التسلسل التاريخى والاجتماعى والثقافى والمعمارى للوجود العربى الإسلامى فى شبه جزيرة إيبيريا

المصدر : الحضارة العربية فى إسبانيا- ليفى بروفنسال
La Civilisation arabe en Espagne- Lévi Provencal

السنة :

٧١٠م عبور طريف بن مالك إلى إسبانيا مع فرقة استكشافية .

٧١١م حملة طارق بن زياد

٧١٢م عبور موسى بن زياد إلى إسبانيا

٧١٣م توقيع معاهدة الصلح بين تودمير وعبد العزيز موسى بن نصير

٧١٨م ثورة بلايو فى مقاطعة اشتورياش، وربما وقعت فى هذا التاريخ موقعة كوبادونجا

٧١٩م السمح بن مالك والى الأندلس يختار قرطبة مقرا له. وفاة التباعى حنش الصنعانى وبعض أعيان أفريقية يعبرون المضيق ليستقروا فى إسبانيا.

٧٢٩م ثورة منوسة فى شمال إسبانيا.

٧٣١م مولد عبد الرحمن بن معاوية الداخل

٧٣٢م موقعة بواتييه، أو بلاط الشهداء ، كما جاءت فى المصادر العربية

٧٤١م قيام البربر فى إسبانيا بثورة عامة

٧٤٢م توطين جند بلج بن بشر من الشوام فى أمكنة مختلفة من إسبانيا جنوب إسبانيا يصبح شرقا مرة أخرى.

٧١٥-٧٥٣م المجاعة تجتاح إسبانيا البربر يهجرون مقاطعات الشمال ويعودون إلى المغرب

٧٥٥م عبد الرحمن الداخل يصل إلى إسبانيا وينزل فى ثغر المنكب

٧٥٦م بداية إمارة عبد الرحمن الداخل

٧٥٩م مقتل يوسف الفهرى والصميل بن حاتم

٧٧٧م والى سرقسطة المسلم يزور شارلمان فى باربون

٧٧٨م شرلمان يحاصر سرقسطة - وقعة باب الشزرى رنسفو

٧٧٩م انهيار جانب من قنطرة قرطبة

٧٨٤م تشييد قصر قرطبة

٧٨٥م تحول معظم الناس من المسيحية إلى الإسلام

٧٨٨م وفاة عبد الرحمن الداخل ومبايعة هشام أميرا على الأندلس - المناداة بإدريس الأول خليفة فى وليلة (بالقرب من مدينة مكناس الحالية فى المغرب).

٧٨٨-٧٩٦م ترميم قنطرة قرطبة - تصميم المسجد الجامع بقرطبة

٧٩٣م وفاة إدريس الأول مسموما

٧٩٥م وفاة الإمام مالك

٧٩٦م وفاة هشام الأول ومبايعة الحكم الأول أميرا

٨٠٠م المناداة بشرلمان إمبراطورا

٨٠٧م ثورة طليطلة ومذبحة الخندق، أو وقعة الحفرة

٨٠٨م بناء إدريس الثانى لمدينة فاس

٨١٦م دخول المذهب المالكى لإسبانيا

٨١٧م هياج الربض فى قرطبة

٨٢٢م وفاة الحكم الأول والمناداة بعبد الرحمن الثانى أميرا- وصول زرياب إلى إسبانيا وبدء التأثير العباسى.

٨٢٥-٨٣١م عبد الرحمن الثانى ينشئ مدينة مرسية

٨٢٩م بناء المسجد الجامع فى إشبيلية

٨٣٢م تشييد المسجد الجامع فى جيان - إضافة صحنين جانبيين إلى المسجد الجامع فى قرطبة.

http://al-maktabeh.com

٨٣٥م عبد الرحمن الثانى يبنى قلعة ماردة.

٨٣٩م تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة

٨٤٤م احتلال النورمانديين مدينة إشبيلية

٨٤٨م وفاة الفقيه يحيى بن يحيى الليثي

٨٥١م استشهاد الفتاتين فلورا وماريا فى قرطبة

٨٥٢م وفاة عبد الرحمن الثانى ومبايعة محمد الأول

٨٥٣م استيلاء النورمان على أورليان وباريس

٨٥٣م وفاة المؤرخ والفقيه ابن حبيب

٨٥٥م تشييد قلعة رباح

٨٥٧م وفاة زرياب فى قرطبة

٨٥٩م بناء جامعى القرويين والأندلس فى فاس- استشهاد يوليوس وليو كريقيا فى قرطبة- استيلاء الفايكنج على ثغر الجزيرة الخضراء

٨٦٤م وفاة الشاعر يحى الغزال

٨٦٨م وفاة الفقيه العتبى

٨٧٣م القحط يعم إسبانيا

٨٧٥م البحارة الأندلسيون يؤسسون مدينة تنيس على ساحل الجزائر

٨٨٣م ابن قسى يعيد ترميم مدينة لاردة

٨٨٦م بناء بيت المال فى المسجد الجامع بقرطبة - وفاة محمد الأول ومبايعة المنذر أميرا

٨٨٨م وفاة المنذر والمناداة بعبد الله أميرا

٨٨٩م وفاة الفقيه بقى بن مخلد

٨٩٠م مولد عبد الرحمن الناصر

٨٩١م استيلاء عبدالله على مدينة إشبيلية ونهبها

٩٠١م بناء المسجد الجامع فى لاردة

٩٠٥م وفاة عبدالله بن قاسم بن هلال، الذى أدخل المذهب الظاهرى إلى إسبانيا

٩١٢م وفاة الأمير عبدالله وارتقاء عبد الرحمن الناصر

٩١٣م سعيد بن منذر والى إشبيلية من قبل الأمويين يهدم أسوار المدينة ويبنى القصر

٩١٥م مولد الحكم الثانى - القحط يعم إسبانيا

٩١٨م وفاة الثائر عمر بن حفصون

٩١٩م الطاعون يجتاح إسبانيا

٩٢٠م استيلاء المسلمين على مدن أوسما وشنت اشتبين دى غورماج وكلونية ومويث

٩٢٨م عبد الرحمن الناصر يستولى على حصن بربشترو - بناء دار السكة فى قرطبة

٩٢٩م عبد الرحمن الناصر يعلن نفسه خليفة وأميرا للمؤمنين

٩٣١م استيلاء الأمويين على مدينة سبتة - وفاة الفيلسوف الأندلسى ابن مسرة فى قرطبة

٩٣٢م عبد الرحمن الناصر يحتل مدينة طليطلة

٩٣٦م بناء مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة

٩٣٧م مولد الشاعر ابن هانئ الأندلسى

٩٣٩م هزيمة الجيوش القرطبية فى شنت مانقش والخندق

٩٤٠م وفاة الأديب الشاعر ابن عبد ربه ، صاحب كتاب العقد الفريد

٩٤١م امداد المسجد الجامع فى قرطبة بالمياه بواسطة قناة

٩٤٢م وصول أبى على القالى إلى قرطبة

٩٤٤م عبد الرحمن الناصر ينشئ دارا لبناء السفن فى طرطوشة

٩٤٥م قدوم سفارة بيزنطة إلى قرطبة

٩٤٦م الطاعون يجتاح إسبانيا

٩٥١م وفاة روميرو الثانى ملك ليون

٩٥١م بناء مئذنة جديدة فى المسجد الجامع بقرطبة

٩٥٣م سفارة من خوان دى جورث فى قرطبة
٩٥٤م الفاطميون يهاجمون ساحل إسبانيا عند المرية
٩٥٥م وفاة المؤرخ الأندلسى أحمد الرازى - تأسيس عبد الرحمن الناصر لمدينة المرية
٩٥٦م بناء المسجد الجامع فى طرطوشة - سفارة قرطبية إلى نبرة - وفاة أوردونيو الثالث ملك ليون
٩٥٨م تدعيم الواجهة الشمالية فى المسجد الجامع بقرطبة
٩٦٠م استيلاء جوهر الصقلى القائد الفاطمى على مدينة فاس
٩٦١م وفاة عبد الرحمن الناصر وارتقاء الحكم الثانى الملقب بالمستنصر
٩٦١-٩٦٦م الحكم الثانى يقوم بتوسيع المسجد الجامع فى قرطبة
٩٦٦م النورمانديون ينزلون على شواطئ الأندلس التى تطل على المحيط الأطلنطى- وفاة القاضى منذر بن سعيد البلوطى
٩٦٨م الحكم الثانى يبنى قلعة حمامات إنشينا
٩٧٠م موت حسداى بن شبروط - النورمانديون يستولون على شنت ياقب
٩٧٢م سفارة بيزنطية فى قرطبة
٩٧٣م بناء المدينة العامرية الزاهرة لسكنى المنصور وحاشيته فى ضواحى قرطبة
٩٧٦م وفاة الحكم الثانى ومبايعة هشام الثانى خليفة
٩٧٧م وفاة المؤرخ ابن القوطية
٩٧٨م خلع الوزير المصحفى، جعفر بن عثمان، أبو الحسن
٩٨٠م المنصور بن أبى عامر يعيد تنظيم الجيش
٩٨١م حملة المنصور ضد ليون واستيلاؤه على شنت مانقش
٩٨٥م حملة المنصور بن أبى عامر على قطلونية واستيلاؤه على برشلونة عاصمتها
٩٨٨م استيلاء المنصور على مدن قورية وليون وسمورة - المنصور يقوم بتوسيع المسجد الجامع فى قرطبة- مولد المؤرخ الأندلسى ابن حيان
٩٨٩م وفاة الشاعر ابن هانئ الأندلسى

٩٤٤م مولد ابن حزم فى قرطبة

٩٧٧م المنصور يغزو جليقية ويستولى على شنت ياقب - الأمويون يهزمون زيرى بن عطية فى المغرب

٩٩٩م وفاة برمودو الثالث ملك ليون وتولية الفونسو الخامس

١٠٠٢م المنصور بن أبى عامر يغزو قشتالة - وفاة المنصور فى مدينة سالم ودفنه هناك- عبد الملك المظفر ابنه يتولى الحجابة بعده

١٠٠٣م حملة إسلامية ضد جليقية - إقامة الخطبة باسم هشام الثانى فى مسجد القرويين الجامع فى فاس بالمغرب

١٠٠٦م حملة إسلامية ضد قشتالة وانتصار المسلمين فى كلونية- عبد الملك يحمل لقب المظفر- حملة إسلامية ضد بنبلونة

١٠٠٨م وفاة المظفر وتولى عبد الرحمن شنجول الحجابة ، تنازل هشام الثانى، وتولى محمد المهدى الخلافة، والمناداة بسلمان المستعينى خليفة- وفاة محمد المهدى- نهب مدينة الزاهرة

١٠١٠م هشام الثانى يتولى الخلافة للمرة الثانية- الطاعون يجتاح إسبانيا- تدمير قصر الرصافة فى قرطبة

١٠١١م تأسيس الإمارة العامرية فى بلنسية

١٠١٢م وفاة الشاعر يوسف الرمادى، والمؤرخ ابن الفرضى

١٠١٦م استيلاء على بن حمود على مدينة قرطبة- حملة مجاهد العامرى ضد سردينيا- وفاة على بن حمود وارتقاء القاسم بن حمود

١٠١٧م عبد الرحمن الرابع يرتقى الخلافة ويتلقب بالمرتضى- وفاة الكونت شانجه غرسية- بدء الحملات الصليبية البورجونية ضد إسبانيا الإسلامية

١٠٢٣م عبد الرحمن الخامس، الملقب بالمستظهر ، يتولى الخلافة - ارتقاء محمد الثالث، الملقب بالمستكفى- وفاة اسماعيل بن عباد

١٠٢٧م ارتقاء هشام الثالث، الملقب بالمعتضد - ابن حزم يحرر كتاب طوق الحمامة فى مدينة شاطبة(!!) - وفاة ابن برد الأكبر فى سرقسطة .

١٠٢٨م وفاة خيران الصقلبى فى مدينة المرية - وفاة الفونسو الخامس ملك ليون وارتقاء ابنه برمودو الثالث ١٠٣٠م .

١٠٣٠م سقوط الأسرة الأموية نهائيا فى إسبانيا- زاوى بن زيرى يعود إلى إفريقيا- وفاة الشاعر بن دراج القسطلى- إعادة بناء أسوار مدينة بطليوس

١٠٣٤م وفاة الأديب الشاعر والناقد أبو عامر بن شهيد

١٠٣٥م وفاة شانجه الكبير وارتقاء فرناندو الأول

١٠٣٧م وفاة برمودو الثالث ملك ليون فى موقعة تمرون

١٠٣٨م وفاة زهير الصقلبى فى المرية - وفاة حبوس بن زيرى وارتقاء باديس إمارة غرناطة

١٠٤١م وفاة القاضى محمد بن عباد وارتقاء ابنه المعتضد الإمارة فى إشبيلية

١٠٤٣م وفاة أبو حزم بن جهور وتولى أبى الوليد بن جهور امارة قرطبة بعده

١٠٤٤م وفاة مجاهد الدانى

١٠٤٥م وفاة عبدالله بن الأفطس فى بطليوس وتولى المظفر بن الأفطس بعده - مولد السيد القنبيطور

١٠٥٢-١٠٥٣م وفاة أبى عمرو الدانى فى مدينة دانية

١٠٥٣م حملة فرناندو الأول ضد مملكة طليطلة - وفاة ابن برد الأصغر فى المرية

١٠٥٦م وفاة ابن الغرله وزير غرناطة اليهودى

١٠٥٧م باديس يستولى على مملكة بنى حمود فى مالقة ويضمها إلى إمارته- حملة فرناندو الأول ضد مملكة بطليوس- الاستيلاء على مدينتى فيسيو ولاميجو

١٠٥٨م مولد ابن خفاجة فى جزيرة شقر- ضم إمارة رندة إلى مملكة إشبيلية

١٠٦٢م تأسيس مدينة مراكش

١٠٦٣-١٠٦٤م استيلاء فرناندو الأول على مدينة قورية- استيلاء النورمانديين الفرنسيين على مدينة بربشترو- وفاة ابن حزم

١٠٦٥م ابن هود يسترد مدينة بربشترو- وفاة فرناندو الأول ملك قشتالة وليون

http://al-maktabeh.com

وتقسيم دولتيه بين أبنائه

١٠٦٦م مذبحة يهود غرناطة- وفاة العالم اللغوى ابن سيده

١٠٦٧م استيلاء يوسف بن تاشفين على مدينة فاس- وفاة الشاعر أبو اسحاق الإلبيرى

١٠٦٨م وفاة المعتضد وارتقاء المعتمد واستيلاء بنى عباد على قرطبة

١٠٧٠م وفاة العالم المؤرخ صاعد الطليطلى- وفاة الشاعر ابن زيدون

١٠٧٢م مقتل شانجه الثانى فى سمورة ، بعد أن تغلب على ألفونسو السادس فى جولبخيرة - ألفونسو السادس وكان لاجئا فى بلاط طليطلة عند أميرها المسلم يخلفه على العرش

١٠٧٤م السيد القنبيطور يتزوج من خيمينا- نقل رفات سان إيسيدرو من إشبيلية إلى ليون

١٠٧٥م وفاة المأمون بن ذى النون أمير طليطلة- وفاة باديس بن حبوس أمير غرناطة

١٠٧٦م وفاة المؤرخ ابن حيان

١٠٧٨م قدوم الشاعر ابن حمديس الصقلى إلى إسبانيا

١٠٨٠م بناء الجعفرية فى سرقسطة

١٠٨١م نفى السيد القمبيطور

١٠٨١م وفاة الفقيه أبى الوليد الباجى فى مدينة المرية

١٠٨٢م وفاة المستعين بن هود

١٠٨٣م وفاة العالم اللغوى الأعلم الشمنترى

١٠٨٤م مولد على بن يوسف بن تاشفين- مصرع الوزير الشاعر ابن عمار

١٠٨٥م استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة

١٠٨٦م انتصار المسلمين فى موقعة الزلاقة

١٠٨٨م عودة يوسف بن تاشفين إلى إسبانيا

١٠٨٩م حصار البيط وهو حصن بين لورقة ومرسية

١٠٩٠م عبور يوسف بن تاشفين إلى إسبانيا للمرة الثالثة - خلع عبدالله بن باديس صاحب غرناطة

١٠٩١م استيلاء المرابطين على إشبيلية - نفى المعتمد إلى مراكش

١٠٩٢م اغتيال القادر بن ذى النون فى بلنسية- إسبانيا الإسلامية تصبح مقاطعة فى إمبراطورية المرابطين

١٠٩٣م وفاة الفقيه ابن سهل

١٠٩٤م السيد القنبيطور يستولى على بلنسية - السيد يحكم على ابن جحاف بالموت حرقا- وفاة العالم الجغرافى أبى عبيد البكرى

١٠٩٥م مولد ابن قزمان- وفاة المعتمد بن عباد فى أغمات

١٠٩٩م وفاة السيد فى بلنسية

١١٠٢م استيلاء الأمير أبو محمد مزدالى قائد المرابطين على مدينة بلنسية

١١٠٤م ألفونسو الأول يرتقى عرش أرجون

١١٠٥م وفاة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين- وفاة الزهراوى

١١٠٨م موقعة أقليج (إقليش) - وفاة الأمير شانجه- وفاة المستعين بن هود صاحب سرقسطة

١١٠٩م وفاة ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون- الملكة أوراكة ترتقى العرش- استيلاء المرابطين على طلبيرة

١١١١م المرابطون يستولون على شنترين وبطليوس وأوبورتو ويابرة ولشبونة

١١١٣م وفاة الشاعر ابن اللبانة

١١١٨م استيلاء ألفونسو المحارب على سرقسطة

١١٢٠م معركة كتندة

١١٢١م ثورة المهدى بن تومرت فى مراكش - بداية حركة الموحدين

١١٢٥م وفاة ابن زهر

١١٢٦م تتويج ألفونسو السابع فى ليون- مولد الفيلسوف ابن رشد فى قرطبة- وفاة ابن عبدون الشاعر- وفاة الأعمى التطيلى الشاعر- وفاة الكاتب والمؤرخ الأندلسى الطرطوشى فى الاسكندرية

١١٣٠م وفاة المهدجى والمنادة بعبد المؤمن بن على أمير للمؤمنين

١١٣٤م انتصار المسلمين فى فراجة - وفاة الفونسو الثالث ملك أراجون- اغتيال الأديب الفتح بن خاقان، مؤلف كتاب قلائد العقيان فى مراكش- مولد الفيلسوف موسى بن ميمون فى قرطبة

١١٣٨م وفاة الشاعر ابن خفاجة- وفاة الفيلسوف ابن باجة

١١٣٩م استقلال البرتغال

١١٤٣م وفاة على بن يوسف بن تاشفين

١١٤٤- نهاية حكم المرابطين فى إسبانيا- عصر الطوائف الثانى- ثورة إسلامية فى

١١٤٥م مقاطعة الغرب (جنوب البرتغال)- وفاة تاشفين فى وهران- وفاة الكونت البرشلونى ريفرتر قائد جيوش المسيحيين العاملين مع المرابطين

١١٤٦م ابن ميمون يهدم سور مدينة قادش- الموحدون يحتلون مدينة فاس

١١٤٧م الموحدون يستولون على مدينة مراكش- وفاة اسحاق آخر ملوك المرابطين- الموحدون يحتلون مدينة إشبيلية باسبانيا- ألفونسو ملك البرتغال يستولى على مدينتى شنترين ولشبونة- المناداة بابن مردنيش أميرا فى بانسية- المسيحيون يستولون على مدنية المرية- وفاة الأديب الكاتب ابن بسام صاحب كتاب «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة»

١١٤٨م وفاة يحيى بن غانية - رامون بيرانجيه الرابع يستولى على فراجة ولارددة وطرطوشة.

١١٥٠م تأليف ملحمة السيد (!!)

١١٥٤م الجغرافى الإدريسى ينتهى من تأليف كتابه

١١٥٧م الموحدون يستولون على غرناطة - الموحدون يستردون المرية من يد المسيحيين

١١٥٨م ارتقاء الفونسو الثامن عرش قشتالة

١١٥٩م وفاة الشاعر والزجال ابن قزمان

١١٦١م عبد المؤمن بن على يؤسس مدينة جبل طارق

١١٦٢م وفاة عبد الملك بن زهر

١١٦٣م وفاة عبد المؤمن بن على ومبايعة أبى يعقوب يوسف

١١٦٥م مولد الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى فى مدينة مرسية

١١٧١م وفاة ابن مردنيش- أبو يعقوب يبنى المسجد الجامع فى مدينة إشبيلية ويقيم

١١٧٧م قنطرة على نهر الوادى الكبير

١١٧٩م وفاة الشاعر الرصافى فى مالقة

١١٨٣م وفاة ابن بشكوال صاحب كتاب «الصلة»

١١٨٤-١١٨٥م حملة على مدينة شنترين ووفاة أبى يعقوب وتولى ابنه أبى يوسف

١١٨٥م وفاة الفيلسوف ابن طفيل فى مراكش

١١٩٥م انتصار المسلمين فى موقعة الأرك

١١٩٨-١١٩٩م وفاة أبى يوسف ومبايعة محمد الناصر- مولد الكاتب والمؤرخ والشاعر ابن الأبار- وفاة ابن رشد فى مراكش

١٢٠٤م وفاة الأديب ابن الشيخ البلوى

١٢١٢م هزيمة المسلمين فى موقعة العقاب

١٢١٤م مولد ابن سعيد صاحب كتاب «المغرب فى حلى المغرب»، فى المدينة الملكية، ويطلق عليها قلعة ابن سعيد ، تأسيس جامعة بالنثية بأمر الفونسو الثامن ملك قشتالة- وفاة الفونسو الثامن

١٢١٥م تأسيس جامعة سلمنقة بأمر الفونسو التاسع ملك قشتالة

١٢١٧م فرناندو الثالث يتولى عرش قشتالة

١٢١٧م ثورة ابن هود فى شرقى الأندلس- وفاة الرحالة ابن جبير فى مدينة الأسكندرية

١٢٢٠م تشييد برج الذهب فى إشبيلية

١٢٢٢م وفاة الأديب الشريشى فى مدينة شريش

١٢٢٧م القحط يعم إسبانيا

١٢٣٠م استيلاء الإسبان على جزيرة ميورقة- نهاية حكم الموحدين فى إسبانيا

١٢٣١م سقوط مدينتى ماردة وبطليوس- وفاة ادريس المأمون من الموحدين- المناداة بمحمد الغالب النصرى أميرا فى الأندلس

١٢٣٥م وفاة الأديب المؤرخ ابن دحية، صاحب كتاب المطرب فى أشعار أهل المغرب

١٢٣٦م فرناندو الثالث ملك قشتالة يستولى على قرطبة

١٢٣٧م هزيمة المسلمين فى موقعة أنيشة - محمد الغالب النصرى يحتل غرناطة

١٢٣٨م خايمى الأول ملك أراجون يستولى على بلنسية

١٢٤٠م وفاة الصوفى العظيم محى الدين بن عربى فى دمشق

١٢٤٣م استيلاء خايمى الأول على مرسية

١٢٤٦م الاستيلاء على حيان- الاستيلاء على شاطبة

١٢٤٨م المسيحيون يستولون على كل شرقى إسبانيا- فرناندو الثالث ملك قشتالة يستولى على إشبيلية- وفاة عالم النبات الأندلسى ابن البيطار فى دمشق

١٢٥١م وفاة الشاعر الأندلسى غبن سهل الإشبيلى- ترجمة كتاب «كليلة ودمنة» إلى اللغة القشتالية

١٢٥٢م وفاة فرناندو الثالث وارتقاء الفونسو العاشر عرش قشتالة - الفونسو التاسع يقيم جامعة سلمنقة

١٢٥٤م الفونسو العاشر ينشئ فى إشبيلية مدرسة للدراسات العربية واللاتينية

١٢٥٥م وفاة المؤرخ الإسبانى البياسى فى تونس

١٢٥٧م ألفونسو العاشر يستولى على مدينة نبلة

١٢٥٨م مبايعة المرينى أبى يعقوب يوسف فى مراكش- حول هذا التاريخ توفى الشاعر والأديب ابن عميرة

١٢٦٠م اعدام ابن الأبار، المؤرخ والشاعر، فى تونس

١٢٦٢م استيلاء الفونسو العاشر على مدينة قادش

١٢٦٩م وفاة الصوفى الإسبانى ابن سبعين فى مكة

١٢٧٠م وفاة لويس التاسع أثناء حصار تونس

١٢٧٣م وفاة محمد الأول النصرى ملك غرناطة

١٢٧٤م وفاة النحوى ابن مالك صاحب الألفية فى دمشق

١٢٧٦م وفاة خايمى الأول ملك أراجون

http://al-maktabeh.com

١٢٧٦م المرينيون ينشئون فاس الجديدة ويقيمون قصرا لإقامتهم فى البنية، قريبا من الجزيرة الخضراء ، على الشاطئ الإسبانى

١٢٨٤م وفاة الفونسو العاشر ملك قشتالة

١٢٨٧م استيلاء ملك أراجون على جزيرة ميورقة

١٢٩٢م شانجه الرابع يستولى على مدينة طريف

١٣٠٠م خايمى الثانى ملك أراجون يقيم جامعة فى مدينة لاردة

١٣٠٦م ابن عذارى يؤلف كتابه «البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب»

١٣٠٨م وفاة ابن الزبير صاحب كتاب «صلة الصلة» فى غرناطة

١٣١٠م الفونسو العاشر يرتقى عرش قشتالة

١٣١٣م مولد ابن الخطيب فى مدينة لوشة

١٣١٤م اسماعيل الأول من بنى نصر يرتقى عرش غرناطة

١٣١٥م وفاة الفيلسوف والصوفى القطلونى رايمون لول

١٣١٩م انتصار المسلمين فى موقعة أليكون

١٣٣١م ارتقاء المرينى أبى الحسن العرش فى مدينة فاس

١٣٣٢م مولد المؤرخ العظيم عبد الرحمن بن خلدون فى تونس

١٣٣٣م ارتقاء الأمير النصرى يوسف الأول عرش غرناطة

١٣٤٠م هزيمة المسلمين فى موقعة طريف وتسميها المدونات الإسبانية موقعة سالادو

١٣٤٢م المرينيون يحاصرون مدينة طريف

١٣٤٤م الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة يحتل مدينة الجزيرة الخضراء

١٣٤٨م بناء باب الشريعة فى الحمراء بغرناطة- بدء الطاعون الذى أهلك سكان المرية

١٣٤٩م بدرو الملقب بالقاسى يرتقى عرش أراجون- تأسيس دار العلم فى غرناطة

١٣٥١م الرحال ابن بطوطة يزور غرناطة

١٣٥٤م إغتيال يوسف الأول فى غرناطة

١٣٦٥م محمد الخامس ينشئ مستشفى غرناطة

١٣٨٦م وفاة بدرو القاسى ملك أراجون

١٣٦٩م وفاة الأديب الشاعر أحمد بن خاتمة

١٣٧٤م اغتيال ابن الخطيب فى فاس

١٣٩٣م الشاعر ابن زمرك يتولى منصب الوزارة فى غرناطة

١٤٠٦م وفاة ابن خلدون فى القاهرة

١٤١٠م خوان الثانى ملك قشتالة يستولى على أنتقيرة

١٤١٥م خوان الأول ملك البرتغال يستولى على سبتة

١٤٢٦م وفاة الفقيه ابن عاصم فى غرناطة

١٤٥٤م وفاة خوان الثانى ملك قشتالة

١٤٦٩م فرناندو ملك أراجون يتزوج من إيزابيل ملكة قشتالة

١٤٧٩م اتحاد مملكتى أراجون وقشتالة

١٤٨٥م الملكان فرناندو وإيزابيل يستوليان على مالقة والمرية

١٤٨٧م استيلاء الملكين على مدينة باسة

١٤٨٩م الملكان يستوليان على غرناطة

١٤٩٢م كريستوفر كولوميس يكتشف أمريكا

١٥٠١م حملة على المسلمين الذين يعيشون فى إسبانيا لإكراههم على اعتناق الكاثوليكية أو ترك أوطانهم

١٥٢٦م طرد الموريسكيين فى جبال البشرات

١٥٦٨م الملك فيليب الثالث يصدر قراراً بطرد الموريسكيين جميعًا من وطنهم

١٦٠٩م

(٢)

عطاء العرب للنهضة الأوروبية

على الرغم من سقوط مملكة غرناطة، آخر معاقل الإسلام فى شبه الجزيرة الأيبيرية، فى سنة ١٤٩٢هـ فإن الوجود العربى الإسلامى لم ينته فى هذا التاريخ، بل استمر بعد ذلك ممثلا فى الموريسكيين، أى المسلمين الذين أرغموا على التنصر وهم الذين مكثوا فى إسبانيا حتى القرن السابع عشر حينما تقرر طرد جماعات كبيرة منهم إلى الشمال الإفريقى . ومن هنا نرى أن الوجود العربى المادى فى شبه الجزير استمر ماثلا ملموسا طيلة تسعة قرون على الأقل بدءا من فتح العرب للأندلس سنة ١٧١١م، وهى مدة كافية لكى يترك العرب والإسلام فى الشعبين الإسبانى والبرتغالى من رواسب حضارتهم ما يزال سمة واضحة لهم حتى اليوم. ومن إسبانيا انتقلت الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا وإلى الأمريكتين .

- استطاعت إسبانيا أن تمد نفوذها إلى القارة الأوروبية حينما أقامت إمبراطورية ضخمة سيطرت على الشطر الأكبر من أوروبا فى ظل الأسرة النمساوية Casa de los Austrias منذ القرن السادس عشر.

- الاتجاه نحو اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢، سنة سقوط غرناطة على أيدى الملكين الكاثوليكيين، فرناندو وإيزابيل ، ولم تمض سنوات على هذا الكشف حتى كانت إسبانيا والبرتغال- وهما ما زالتا متشبعتين بالحضارة العربية الإسلامية الأندلسية- تقتسمان الشطر الأعظم من القارة الأمريكية، من كاليفورنيا فى الشمال إلى أرض النار Tierra de Fuego فى أقصى جنوب القارة ، وكان من الطبيعى كذلك أن يحمل الفاتحون الإسبان إلى العالم الجديد كثيرا مما استقر فى دمائهم ونفوسهم من عناصر عربية تمثلوها خلال ثمانية قرون من المعايشة المستمرة.

- التقاء الشرق العربى وأوروبا فى جزيرة صقلية، الشطر الجنوبى من إيطاليا، حيث توجه العرب من إفريقية (تونس) إلى جزيرة صقلية التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت للدولة البيزنطية (٨٢٧م) وبقيت صقلية فى أيدى المسلمين حتى استولى عليها النورمنديون فى سنة ١٠٩١م، وقد تكررت فى صقلية ظاهرة التأثير المتبادل بين الحضارة العربية الإسلامية والأوروبية المسيحية وإن كان على مستوى أقل مما كان فى الأندلس.

- الحروب الصليبية التى دارت فى داخل العالم العربى نفسه منذ سنة ١٠٩٧م وعلى مدى نحو قرنين من الزمان حتى سقوط آخر معاقل الصليبيين فى أيدى المماليك فى سنة ١٢٩١م- فقد أنشأ الصليبيون مماليك ودويلات على طول المنطقة الساحلية من بلاد الشام، بل وفى الداخل أيضا، ومن هذه الدويلات : الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس. وكان لهذه الحروب الطويلة مزيد من التأثير الذى أدى إلى التعارف بين الجانبين .

- امتداد الدولة العثمانية التركية منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادى فى شرق أوروبا يمثل أحد ميادين الاحتكاك الحضارى بين الشرق والغرب، وإن كانت أوروبا قد تمثلت ما استفادته خلال القرون السابقة من عناصر الثقافة العربية وبدأت تشق طريقها الحضارى مستقلة دون أن تقدم إليها الدولة العثمانية جديدا يذكر.

ومن هذا نرى أن أهم ميدان للالتقاء كان فى الأندلس ثم صقلية. وكان لانتشار اللغة العربية فى الأندلس بالذات أكبر الأثر فى نقل الثقافة والحضارة العربية لعصر النهضة:

- عملية امتزاج اجتماعى واسع النطاق بين مختلف العناصر التى أصبح الشعب الأندلسى يتألف منها.

- ظهور أجيال جديدة نتجت عن الامتزاج بأهل البلاد الأصليين مثل المولدين والمستعربين إضافة إلى الأقلية اليهودية التى كانت تعيش فى شبه الجزيرة قبل الفتح العربى والتى اعتبرت هذا الفتح خلاصا لها مما كانت فيه فى ظل القوطيين من اضطهاد ، ولقد تشبع هؤلاء اليهود كذلك بالثقافة العربية وكان لهم اسهام كبير فى نقل كثير من عناصر الثقافة العربية إلى إسبانيا المسيحية وأوروبا عن طريق الترجمة بصفة خاصة.

ويجب ملاحظة أن إسبانيا القوطية لم تكن تعانى من التخلف ، فالواقع أنها كانت دائما منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وعلم وفن ، كانت كذلك فى عهد الفينيقيين وأبناء عمومتهم القرطاجيين واستمرت كذلك فى ظل الرومان الوثنيين، ثم جاءت المسيحية فدفعت بالحياة الفكرية خطوات إلى الأمام، وبقيت ومضات من هذا الازدهار الثقافى فى عهد القوطيين وإن

كانت دولتهم فى الحقيقة غريبة على الشعب الإسبانى الذى كان قد اصطبغ بالصبغة اللاتينية الرومانية.

ومع انتشار الإسلام فى أوساط الشعب الأندلسى يبدأ انتشار مماثل للغة العربية التى سرعان ما تصبح لغة الأجناس المختلفة المنصهرة فى بوتقة الأندلس، بل إنه حتى الإسبان الذين احتفظوا بنصرانيتهم لايلبثون أن يتمثلوا الثقافة العربية ويستعملوا لغة الفاتحين بلا غضاضة . ويصل الأمر إلى أن نجد أحد آباء الكنيسة المسيحية فى القرن التاسع الميلادى- وهو : «البارو القرطبى» - يشكو مر الشكوى من أن نصارى إسبانيا فى أيامه لم يعودوا يهتمون بدراسة اللاتينية ، لغة الكتب المقدسة ، بينما كانوا يتقنون الكلام والكتابة باللغة العربية، بل إن من بينهم كثيرين كانوا يجيدون نظم الشعر العربى.

وليس معنى هذا أن إسبانيا نسيت اللغة اللاتينية محل شكوى ألبارو القرطبى باعتبار أن هذه اللغة اللاتينية الفصحى كانت حبيسة الكنائس والأديرة المسيحية، أما اللغة اللاتينية الدارجة- لغة الرومانث Romance- فقد كانت شائعة بين المسيحيين والمسلمين على السواء. وإننا نجد فى الكتب العربية الأندلسية عشرات من الشواهد التى تدل على أن المجتمع الأندلسى كان مجتمعا مزدوج اللغة يستخدم العربية واللاتينية الدارجة التى كانوا يطلقون عليها اسم «لاتينية أهل الأندلس».

وعن ازدواج اللغة فى الأندلس- العربية واللاتينية الدارجة - كان ابتكار الأندلسيين لنوع جديد من الأدب الغنائى هو مزيج من العربية واللاتينية الدارجة، ونعنى به شعر الموشحات والأزجال الذى قدر له أن يترك أثرا بعيدا فى أدب الشرق العربى والغرب الأوروبى على حد سواء.

ومن هنا كان للثقافة العربية والحضارة الإسلامية ازدهار سريع فى الأندلس بسبب العوامل التالية:

- الاستقلال السياسى المبكر الذى نالته الأندلس بعد أربعين سنة من الفتح العربى.

- الاستقرار السياسى حيث أتيح للأندلس أمراء كانوا من عباقرة السياسة وتدبير الملك، تعاقبوا على حكم البلاد طوال ثلاثة قرون متوالية، وهى فترة طويلة، لم يتح مثيل لها من الاستقرار لأى قطر إسلامى.

- تنوع العناصر الاجتماعية التى تألف منها الشعب الأندلسى، ولو أخذنا فى اعتبارنا ما

http://al-maktabeh.com

اعتدناه فى قوانين الوراثة من تولد مجتمع جديد عن ذلك يكون فى الغالب مشتملا على جميع مميزات تلك العناصر أمكننا أن نلمح طرفا من أسباب هذا النضج السريع الذى قدر للشعب الأندلسى.

- بعد الأندلس عن مراكز الثقافة العربية فى الشرق أرهف الحساسية الثقافية والفكرية فجعلهم أكثر تطلعا إلى الأخذ بأسباب تلك الثقافة فى حماسة شديدة.

- ومن ثم يمكن القول إن الشعب الأندلسى بلغ درجة من الرقى والنضج السريع وكيف كان للثقافة الأندلسية- فى الإطار العام للحضارة- كثير من مظاهر الأصالة والتميز فى مختلف الفنون والعمارة والعلوم.

(٣)

مدن أندلسية

غرناطـة :

لم تكن غـرناطة Granada ايبيرية قديمة ولا رومانية البناء، وإنما كانت مدينة إسلامية الانشاء، ولم تكن، زمن الفتح الإسلامى سنة ٧١٢م ، سوى قرية صغيرة افتتحها المسلمون عنوة، وضموا اليهود إلى قصبتها، ولعل ذلك كان سببا فى تسمية بعض المؤرخين لها ب «غرناطة اليهود » . ومنذ الفتح لم يعطها المسلمون اهتماما ، إذ استقر جند دمشق فى مدينة البيـرة Elvira، التى صارت حاضرة كورة البيرة زمن أمية، والبيرة مدينة تقع شمال غربى غرناطة على سفح الجبل المعروف اليوم بسييرا البيرة Sierra Elvira، وهى مدينة قديمة ايبيرية الأصل، وأسمها القديم «اللبيرى» Elberri، وكانت البيرة عاصمة إقليم البيرة، ونزلها جند دمشق من العرب، وكثير من موالى بنى أمية زمن عبد الرحمن الداخل الذى عمرها بالأبنية وأسكنها مواليه. وجامع البيرة بناه الأمير محمد على أساس حنش احرقت وهجرها أهلها إلى غرناطة التى حلت محلها ، ونالت ما كانت تتمتع به البيرة من مكانة سامية. وأخذت تنمو شيئا فشيئا منذ القرن العاشر.. وأصبحت فى أيام الفتنة التى تلت سقوط الخلافة القرطبية مدينة كبيرة ، إذ استولى البربر على البيرة وأحرقوها ، فخربت وخلت، وانتقل أهلها منها إلى غرناطة.

وبزغت شمس غرناطة ، وأصبحت حاضرة كورة البيـرة ، ثم أخذ اسم غرناطة يسيطر تدريجيا على الكورة أو الإقليم، وأخيرا حل محل اسم البيرة .

وكان لموقع غرناطة ، على الضفة اليمنى لنهر شنيل Genil، واختراق نهر حدره Darro لها، أثر كبير فى إحاطة الجنان والبساتين بها، حيث تشرف من الناحية الجنوبية الغربية على سهل فسيح ، ويطل عليها من الشرق والغرب جبل شلير الذى يغطيه الثلج شتاء وصيفا ،

فسمى بجبل سييرا نيبادا Sierra Nevada: أى الجبل المكسو بالثلج.. ونهر حدره يشقها من أعلاها وينبع من جبل شلير، وتلتقط مياهه - فى أثناء جريانها فى واديه شديد الانحدار- بإرادة الذهب الخالص ، يجرفها النهر من الصخور التى تفتتها مياهه ، ولذلك سمى نهر حدره تعريبا لكلمة دى أورو de oro الاسبانية ، ومعناها «الذهبى» ، وكان للمرتفعين اللذين يفصل بينهما نهر حدره ، واللذين تقوم عليهما مدينة السلاطين وحى البيازين ، أهمية استراتيجية عظيمة، أسهمت فى مناعة المدينة.

وحين سقطت غرناطة فى أيدى البربر جعلها زاوى بن زيرى سنة ١٠١٣م عاصمته، أما حبوس الصنعانى فقد نظمها وحصن أسوارها وبنى قصبتها العظيمة. وخلفه ابنه باديس فاستكمل تطويرها وجرى عمرانها فى أيامه .. وكان لحكمه الطويل أثر كبير فى ازدهار المدينة واتساعها . وظلت غرناطة عاصمة بربر صنهاجة حتى استولى عليها المرابطون سنة ١٠٨٩م . وفى عهد هؤلاء الصنهاجيين أقيم القصر الملكى على المرتفع المشرف على دوارة هواء على شكل ديك كانت تتوجه من أعلاه.

ولم يتبق من غرناطة فى القرن الحادى عشر- أى فى عصر بنى زيرى- إلا بقايا عقد كانت تقوم عليه قنطرة نهر حدره، تعرف اليوم بقنطرة القاضى Alcántara de Alcalde. ويقوم بجوار هذا العقد برج سداسى الشكل.

ويغلب على الظن أن المرابطين جعلوا غرناطة حاضرة لهم فى الأندلس ثم فتحها الموحدون سنة ١١٤٦م. فى نهاية عهدهم نجح ابن هود ، ملك مرسية ، سنة ١٢٣١م، فى ضم غرناطة إلى ملكه. وبعد وفاته سنة ١٢٣٧م ضمها إليه محمد بن يوسف بن نصر صاحب حصن أرغونه Aragon وبسطة Albacete ووادى أش وشريش Jerez وجيان Jaen ومالقة Málaga وجعلها عاصمة مملكته. واختار لمقره القصبة الحمراء القائمة فوق المرتفع الأيمن لنهر حدره .

وكانت إسبانيا الإسلامية إذ ذاك قد انكمشت رقعتها أمام الزحف الإسبانى للإستيلاء على المدن الإسلامية : فسقطت قرطبة فى أيدى النصارى سنة ١٢٣٦م ومرسية بعدها بثلاث سنوات ، وأشبيلية فى سنة ١٢٤٨م .. وكانت الأحوال السياسية تقتضى تأليف جبهة قومية تقف أمام الخطر الإسبانى المسيحى. فقامت مملكة غرناطة، وعقد عليها أهل الأندلس آمالهم لإنقاذ ما بقى من دولة الإسلام. ودامت مملكة غرناطة ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان: بالرغم من هذا الصراع غير المتكافئ بين النصرانية والإسلام، وبالرغم مما عانته غرناطة من حروب داخلية.. وكان توسل بنى الأحمر بسلاطين بنى مرين فى الجانب الآخر من الزقاق حينا ،

ثم عقدها تحالفات سياسية مع ملوك قشتالة حينا آخر ، عاملا قويا فى إطالة أمد الصراع. وتوفى محمد بن يوسف عام ١٢٧٢م بعد أن ترك ملكا قويا يستطيع الصمود أمام الأعداء فى الوقت الذى اشتعلت فيه بينهم الفتن والانقسامات الداخلية.

وكان تقدم حركة الاسترداد الإسبانية فى قلب الأندلس، وتقلص رقعة إسبانيا الإسلامية نتيجة لذلك، قد أدى إلى هجرة الأندلسيين من مدنهم التى استردها الإسبان إلى مملكة غرناطة. وكان من بين هؤلاء اللاجئين المسلمين عدد كبير من الفنانين والصناع وأرباب الحرف، ممن شردوا بعد سقوط مدنهم فى أيدى أعدائهم ، وأقاموا فى غرناطة ، وواستغلوا كل بقعة من أرضها .. فنهضن فن الزخرفة وأقام محمد بن يوسف قصبة الحمراء Alhambra ، وبنى فيها برجى الطليعة والتكريم ، كما شرع فى بناء الأسوار الضخمة.

وحرص خلفاء محمد بن يوسف على إتباع سياسة انتهاز الفرص واحدا تلو الآخر .. وكانوا لايترددون فى طلب النجدة من بنى مرين كلما أحسوا شبح الاسترداد يهدد مملكتهم .. وهكذا عبرت الزقاق إلى الأندلس جيوش مراكش وفاس أكثر من مرة . ولكن سرعان ما يعود بعض سلاطين بنى نصر إلى مخاصمة بنى مرين إذا وجدوا من هؤلاء خطرا على مملكتهم: فيتحالفون مع ملوك قشتالة Castillia، ويقبلون دفع الإتاوة إليهم مقابل إسكاتهم عنهم.

وكان من أعظم سلاطين أسرة بنى نصر السلطان أبو الوليد اسماعيل الذى تولى مملكة غرناطة فى عام ١٣١٣م . وكان عهد اسماعيل عهد سلم واستقرار ، واستطاع أن يبلغ بمملكته درجة من القوة لم تبلغها من قبل ، وانتصرت جيوشه على جيوش قشتالة قرب البيرة سنة ١٣١٩م ، واستولى على بياسة Baeza سنة ١٣٢٤م ولكن خاتمته كانت أليمة، إذ قتل فى يونيو من عام ١٣٢٤م بخنجر قاتل مأجور.

ولم تسكت قشتالة على هزيمتها فى البيرة وبياسة ، وانتصرت جيوشها عام ١٣٤٠م على جيوش فاس وغرناطة مجتمعة فى واقعة نهر سلادو Rio Salado. وأراد سلطان غرناطة أن يتفادى الكارثة، فعقد مع ملك قشتالة معاهدة صلح، تقوم بمقتضاها هدنه بين الفريقين لمدة عشر سنوات مقابل إتاوة يدفعها السلطان.

على أن العصر الذهبى لدولة بنى نصر يبدأ بعهد الحجاج يوسف الأول، فقد كان راعيا وعاشقا للآداب والفنون فأقام أول نواة لقصر الحمراء Alcázar de Alhambra بما فيه برج قمارش Torre de Comares والبرج المعروف بقصر متشوكا Machuca، والحمام الملكى، وباب الأسرى ، ومصلى البرطل Portal.وظل يوسف يحكم سنين كلها رخاء، حتى قتل عام

١٣٥٤م، وهو يؤدى فريضة الصلاة فى جامع الحمراء. وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله، الذى أكمل فى الحمراء ما كان أبوه قد بدأه فيها. ثم تولى بعده ملوك ضعاف .

وكانت هذه الفترة الأخيرة للحكم الإسلامى فترة كلها نزاع وانقسام بين أفراد بنى نصر، وخلالها تحددت أهداف سياسة قشتالة للقضاء على الإسلام فى الأندلس وتوحيد إسبانيا المسيحية ، وأخذت الحصون تسقط تباعا فى أيدى القشتاليين ، والمسلمون لاهون بنزاعاتهم الداخلية التى فتتت وحدتهم، ومزقت قوتهم.. وانبعثت الفتن بين أفراد الأسرة المالكة ، وقامت الثورات تأييدا لأحدهم على الآخر.

وكانت آخر حلقة فى سلسلة هذه الفتن، ذلك الصراع بين أبى عبدالله محمد بن سعد ، المعروف بالزغل، وابن أخيه السلطان أبى عبدالله محمد بن أبى الحسن، المعروف لدى الإسبان ب «بو أبديل» Boabdil أى أبو عبدالله أو الملك الصغير El rey chico . وفى هذه الأثناء اكتسحت جيوش الملكين الكاثوليكيين فرناندو الرابع وإيزابيل Fernando IV e Isabel، بسائط غرناطة، بعد أن استوليا على جبل طارق Gibraltar وأرشذونه Archidina والمرية Almeria ولوشه Loja ومالقة Málaga وضيقا الحصار على غرناطة نفسها. وطال حصارهما على غرناطة فلم يبق لها إلا التسليم.

وفى ٢ يناير ١٤٩٢م دخلت جيوش قشتالة الظافرة مدينة غرناطة ، ورفعت راية القديس ياقب Santiago إلى جانب صليب الحرب الفضى على برج الطليعة من أبراج قصر الحمراء. وسار أبو عبدالله المقهور، فى كوكبة من رجاله وأفراد أسرته ، فى شعب تل البذول فى صمت حزين . وألقى نظرة أخيرة على قصره الذى كتب عليه الخروج منه ، وترقرقت الدموع فى عينيه، ولم تلبث أن سالت على خديه ، فصاحت به أمه عائشة الحرة : «أجل فلتبك كالنساء ملكا لم تدافع عنه كالرجال! » .. وأطلق الإسبان على هذا الموضع إسم «زفرة العربى الأخيرة Elúltimo suspiro del moro.

تخطيط غرناطة

كانت غرناطة تنقسم إلى حى مركزى منبسط فى اتساع يعرف بالمدينة. وكانت المدينة تشتمل على المسجد الجامع الذى تتفرع حوله شبكة الطرق والدروب. وإلى جوار الجامع تقع القيسارية التى ما تزال قائمة إلى وقتنا هذا .. وقد تهدمت إثر حريق حدث عام ١٨٤٣م وكانت تضم شوارع ضيقة مسقوفة فى أعلاها، أما أبواب الحوانيت والمتاجر فتفتح تحت أقواس مقصوصة ومكسوة بالفسيفساء والزليج والزخارف والجصية التى تشبه زخارف قصر

http://al-maktabeh.com

الحمراء. وتقوم هذه الأقواس على أعمدة رخامية رشيقة . وكان يباع فى هذه القيسارية الأقمشة والمنسوجات الحريرية وأدوات الزينة. وكان يحيط بالمدينة سور فتحت فيه أبواب: منها باب الرملة الذى كان لايبعد كثيرا عن القيسارية، ويعرف مكانه اليوم ب «بيب الرملة Bibramla وبداخل المدينة، وبالقرب من المسجد الجامع ، كانت مدرسة غرناطة التى لاتختلف كثيرا عن مدارس فاس فى عهد بنى مرين ، وما زالت بقايا منها قائمة إلى وقتنا هذا . وبالقرب من المدرسة كان الفندق القديم الذى لايزال يعرف حتى اليوم بالكورال دى كاربون Coral de Carbón لأنه كان يباع فيه الفحم بكميات كبيرة.

ويحيط بالمدينة أحياء أخري منها: حى السقايين، وحى انتقيره، وهو الحى الذى سكنه أهل انتقيره Antequera ، وحى مورو Barrio moro.. وهى أحياء ما زالت تحمل أسماءها العربية نفسها. وإلى خارج المدينة يقع ربضان مشهوران : ربض البيازين، وربض القصبة التى تضم قصر الحمراء وقصر جنة العريف Generalife. ويشرف ربض البيازين على وادى حدره ، وتقابله من المرتفع الآخر قصبة الحمراء.

وتخلفت من عصر المسلمين بغرناطة آثار هامة: منها قصر الحمراء الشهير، وقصر جنة العريف. ومنها القيسارية والمدرسة وفندق الفحم ، أحد فنادق مدينة غرناطة ، بواجهته البديعة التى تزخر بالزخارف والنقوش . ومنها مسجد البيازين، ومئذنة جامع التوابين ، وأسوار البيازين ، والحمام المعروف بحمام الجوز، وقصر عائشة الحرة.. وغير ذلك من الآثار الجليلة.

حمام غرناطة

أقامه باديس الصنهاجى، وكان يعرف فى العصر الإسلامى بحمام الجوز. وقد وصل إلينا هذا الحمام فى حالة جيدة للغاية. وباب الحمام يؤدى إلى بيت المستراح Sala de reposo del baño de la Sultana الذى تخلع فيه الثياب، وهو قاعة تعلوها قبوة نصف اسطوانية تتخللها مضاو مثمنة نجمية الشكل. ويلى هذه القاعة البيت البارد ، وهو قاعة طويلة فى نهايتها مخدعان يتقدمهما عقدان على شكل حدوة الفرس تحملهما أعمدة، ويلى هذه القاعة البيت الأوسط، وتحيط به ثلاثة ممرات ، فى كل ممر ثلاثة عقود على شكل حدوة الفرس قائمة على عمد، وتلتقى بهذه العقود عقود أخرى عمودية على جدران القاعة من نصف دائرية. ويعلو الجزء الأوسط من القاعة قبوة مفرطحة . ويتبع هذه القاعة قاعة البيت الساخن التى تشبه القاعة الأولى . وينتهى الحمام بموقد وبعض الملحقات. وجدران الحمام مبنية من ملاط شديد الصلابة ، أما العقود فمن الآجر.

ويشهد قصر الحمراء بغرناطة على الأحداث التى مرت به . وتروى قاعاته وأبراجه قصة هذا الصراع الأليم الذى انتهى بضياع الأندلس. وتعد حمراء غرناطة متحف الحضارة الأندلسية: ففيها وضع رجال الفن، من مسلمى الأندلس، خلاصة فنهم وعصارة ما وصلت إليه عبقريتهم.

ومن أهم مزايا الفن الغرناطى أنه فن دنيوى، على نقيض فن المرابطين . ولم يكن بناء بنى نصر للمساجد إلا نتيجة للتوسع الاجتماعى الذى فرضته هجرة سكان المدن التى سقطت تباعا فى أيدى النصارى . وحتى هذه المساجد كانت تزخر بالزخارف التى تلهى المسلم عن صلاته، وتجعل من هذه المساجد قصورا خيالية تلهب فى زخارفها وتنمقيها الأبصار دون كلل أو ملل.. بل إن هذه الزخارف كانت تغطى جدرانا رقيقة ضعيفة ، وتكسوها كما لو كانت أبسطة.

وهكذا يكشف فن غرناطة عن حقيقة طبيعية: هى رغبة شعب قد بلغ ذروة التطور فى التمتع بحاضره، والشك فى غده. وهكذا كانت الأبنية التى زخرت بها غرناطة قصورا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف فى نطاق طبيعى لامثيل لجماله . وكان المجال الذى يحيط بهذه القصور يتجاوب مع هذه المتعة. ونجح عرفاء بنى نصر فى إحداث تأثير جمالى يصحب فن توزيع الخمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعى بالعمارة : فهذه النسمات المنعشة التى تهز الأشجار فترطب الوجوه المحترقة، والماء الذى ينساب بين الصخور، والطيور التى تغرد على الأشجار وبين الأغصان.. كل ذلك يجعل من قصر الحمراء قصرا أسطوريا ، أو جنة الله فى أرضه، ويحمل المرء على أن يحيا فى عالم خيالى لايفكر فيه إلا فى القصور التى كانت تعيش فيها أميرات ساحرات .. وهنا يبلغ الفن الغرناطى الذروة ، فقد أعد كل شئ إعدادا دقيقا لتخدير المشاعر عن إدراك الحقيقة التى لاسبيل إلى التغلغل عنها ، وهى انتهاء دولة الإسلام فى الأندلس.

قصر الحمراء بغرناطة

ينسب قصر الحمراء إلى أبى الحجاج يوسف الأول (١٣٣٤-١٣٤٥م) . وقد شيد فيه أول ما شيد: البرج المعروف بقمارش Torre de Comares، وقصر متشوكة Palacio Machuca والحمام الملكى Baños reales وباب العدل Puerta de la Justicia وبرج الأسيرة Torre de la Cautiva ومصلى البرطل Portal. ولما قتل أبو الحجاج يوسف خلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله فأكمل بناء قصر الحمراء بما فيه القصور الملكية التى تحيط ببهوى الريحان والأسود.

أعمال يوسف الأول : وينسب إلى يوسف الأول السور الحصين الذى يحيط بمرتفع الحمراء ، بأبراجه وبوابته العظمى المعروفة بباب العدل، الذى ينم نظام بنائه عن أصالته وعن فن إسلامى خالص . وقد تم بناؤه سنة ١٢٤٨م وفقا لما ورد فى النقش الكتابى . وقد أطلق عليه باب العدل نسبة لصورة كف مفتوح ومفتاح : يرمز الكف إلى العدالة ، ويرمز المفتاح إلى مدخل قصور الحمراء . كما أطلق عليه اسم باب الشريعة نسبة إلى المصلى الذى كانت تقام فيه صلاة العيدين والابتهالات الدينية وقت الشدة والقحط والجفاف.

ومن أقدم قصور الحمراء التى ترجع إلى عهد يوسف الأول قصر البرطل، ويعنون به بالبرطل فى الأندلس الظلة التى تقوم على بائكة هذا القصر ، الواقعة بين برج السيدات Torre de las Damas ومصلى صغير . وتتألف ظلة هذا القصر من خمسة عقود ، أوسطها أكثرها ارتفاعا . ويطل البرطل على بركة تزودها نافورة أسفل العقد الأوسط بالمياه. ووراء هذا البرطل، وفى ركن منه ، قاعة مربعة تشبه البرج يمكن الارتقاء منها إلى طابق علوى . ويغطى الجدران التى تعلو عقود بائكة البرطل شبكات من زخرفة المعينات ، ويحيط بالجدران إزار من الزليج تتعدد فيه الرسوم الهندسية الملونة. وتقوم عقود البائكة على أربع دعائم من الآجر.

وإلى يمين البرطل من شرقه ، وعلى ممشى السور، مسجد صغير ملحق بالبرطل لصق دار قديمة. ويتناقض مظهر هذا البناء الصغير، من حيث ترابه ، مع بناء الأسوار والأبراج المجاورة فى حمرتها وتعريتها من الزخرفة. ويبلغ طول هذا المسجد ٤,١٦ مترا وعرضه ٣ أمتار . وفى رأسه محراب يقابل الباب. ويتجه نحو الجنوب الشرقى. وتعلوه قبوة مقرنصة.

كذلك ينسب إلى يوسف الأول برج الأسرى الذى يضم بداخله قصرا صغيرا يتألف من قاعة أساسية تكتنفها شرفات ومخادع جانبية. ويتوسط البرج بهو داخلى صغير. وزخرفة قاعات هذا البرج- لاسيما تربيعاته الزليجة- من أجمل ما شيده يوسف الأول . وينسب إلى السلطان نفسه برج الشرفات بين مصلى البرطل وبرج الأسرى . وإلى يسار برج السيدات يقع مخدع الملكة، ويضم هذا البرج قصرا لطيفا من أعمال يوسف الأول، ويتصل هذا البرج بقصر الريحان Arrayán وبرج قمارش Comares. وقد تغيرت الأجزاء العليا منه فى القرن السادس عشر ، وازدانت بروائع من فن التصوير الإيطالى .

أما قصر السلطان يوسف الأول، فهو أروع ما شيده السلطان، ويتوسط هذا القصر بهو الريحان، وفى جهته الشمالية برج قمارش الذى يشتمل فى داخله على قاعة السفراء Sala de Embajadores ومن قمريات هذه القاعة ومنظراتها يمكن إمتاع البصر بمنظر من أروع مناظر

الطبيعة الساحرة ، وتنتقل العين فى نهر حدره الذى تندفع مياهه أدنى البرج إلى حى البيازين فى المرتفع الآخر المقابل للحمراء.

وزخارف القصر يعجز عنها الوصف ، وتتألف من زخرفة جصية ملونة هندسية ونباتية وكتابية ، ويعلوه سقف خشبى يعرف باسم رواق البركة Patio de las albercas. وتطل على بهو الريحان بائكة مؤلفة من سبعة عقود ، العقد الأوسط منها أكثرها ارتفاعا . وهو أروع مثال للبهو الأندلسى ، إذ تشغل وسطه بركة كبيرة، مستطيلة الشكل، تحف بها أشجار الريحان، ومن هنا سمى أيضا ببهو البركة. ويقابل هذه الواجهة جنوبا واجهة أخرى مماثلة تقع فى المحور نفسه.

وإلى شرقى مجلس قمارش وبهو الريحان : الحمامات الملكية los baños reales، وهى من أقدم أبنية القصر. وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملة من الأبنية. وترجع إلى عهد يوسف الأول الذى سجل اسمه فى نقش كتابى ويسبق الحمامات إلى الشمال قاعة يطلق عليها اسم قاعة الأسرة، وقد أجريت عليها اصلاحات عديدة فى القرن السادس عشر، غيرت كثيرا من معالمها القديمة. ويسقف القاعة الرئيسية فى الحمامات قبة تخترقها مناور أو مضاوى، وهى أشكال نجمية لإنفاذ الضوء، وتكسو الجزء الأدنى من الجدران تربيعات رائعة من الزليج.

أعمال محمد الخامس : توج محمد الخامس أعماله المعمارية بتشييده أروع مجموعة فى قصور الحمراء ، وهى مجموعة قصر الأسود. ونظام هذا القصر جديد فى تاريخ العمارة الغرناطية فى القرن الرابع عشر .. إذ إنه- بدلا من القاعتين اللتين تقعان فى الطرفين القصيرين للمستطيل فى بهو قصر جنة العريف وبهو الريحان- أحاط بالبهو المركزى، المعروف ببهو الأسود ، فى واجهاته الأربع أربع بوائك . وتتوسط البهو نافورة أو فوارة تقوم على حوض استدار تحته إثنا عشر أسدا تمج المياه من أفواهها ويدور بالبهو أربع بوائك ، تقوم على عمدها الرشيقة عقود نصف دائرية مطولة ، تعلوها جدران مكسوة بالشبكات الزخرفية . ونقرأ على جدران هذا القصر نقوشا عربية ، منها «عزٌ لمولانا السلطان أبى عبد الله الغنى بالله» كما تزخر بكثير من أشعار ابن زمرك فى مدح السلطان.

وبهو الأسود على شكل مستطيل طوله ٢٨,٥ مترا وعرضه ١٥,٧٠مترا، ونظام هذا البهو يماثل نظام جوسقين مقببين تحملهما أعمدة رشيقة ، ويتقاطع محورا البهو ، وقد اتخذا شكل قناتين للمياه. وتقع خلف الجوسق الغربى قاعة فسيحة تغيرت معالمها الإسلامي.. فى حين تقع خلف الجوسق الشرقى قاعة الملوك، أو قصر العدل، وتزخر بالعقود المتعارضة التى تحتشد فى بواطنها المقرنصات الدقيقة.

أما القاعتان الجانبيتان للبهو شمالا وجنوبا ، فهما من أروع ما جاء به فن العمارة الإسلامية فى الأندلس : فالقاعة الجنوبية- وتعرف بقاعة بنى سراج- يتوسطها حوض من الرخام به آثار بقع حمراء يقال إنها من من دماء بنى سراج بعد أن قضى عليهم ملوك بنى نصر. وتعلو القاعة قبة رائعة الجمال من المقرنصات الدقيقة، نجمية الشكل. أما القاعة الشمالية المقابلة لها ، فاسمها قاعة الشقيقتين ، نسبة إلى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلتين فى الشكل تكسوان الأرضية. وتعلو هذه القاعة بالمثل قبة نجمية الشكل من المقرنصات الدقيقة التى تشبه خلايا النحل . وتؤدى هذه القاعة إلى شرفة تطل على البيازين. وجميع جدران هذه القاعات مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحتشدة، تتخللها كتابات كوفية ونسخية فيها أدعية للسلطان . والأجزاء الدنيا منها مؤزرة بالزليج والفسيفساء.

إشبيلية :

تقع مدينة إشبيلية Sevilla على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير Río Guadalquivir، قرب مصبه ، فى خليج عميق بحيث تصلح لأن تكون ميناء بحريا فى جنوب إسبانيا، إذ يصعد المد فى هذا النهر الكبير إلى ما يقرب من إثنين وسبعين ميلاً ثم ينحسر. وتتوسط إشبيلية سهلا فسيحا يعرف بالفحص La Vega وكانت زمن المسلمين مدينة عامرة بها أسواق قائمة وأعمال تجارية رائجة. وأكثر تجارة أهلها الزيت، وذلك لأن فى فحصها تلا مرتفعا يعرف بالشرف دائم الخضرة، لاتكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه . وزيتونها هذا يُحَزَّن فى جوف الأرض أكثر من ثلاثين سنة ثم يعتصر.

وقد أثبت الباحثون أن الإسم القديم لمدينة إشبيلية - وهو إشبالى Hispali من أصل إيبيرى ، ثم تحول هذا الإسم إلى اسم لاتينى هيسباليس Hispalis بعد أن افتتحها الرومان سنة ٢٠٥ ق.م وعرب المسلمون هذا الإسم إلى إشبيلية . ومن هذا الاسم المتعرب اشتق الإسبان الاسم الحالى Sevilla «سيبيا» كما يلفظ بالإسبانية.

وليس من شك فى أن إشبيلية كانت من بين المدن الأولى التى أسسها الأيبيريون ، ثم تطورت المدينة فى عهد الفينيقيين والإغريق والقرطاجنيين، وأصبحت المركز التجارى للأندلس.وكانت إشبالى أو إشبيلية ، وقت الفتح الرومانى، مدينة صغيرة المساحة، مسورة ، بسيطة البناء ، وكان يطلق عليها اسم Oppidum، أى المكان الحصين وفقا لما ذكره المؤرخ الرومانى كايوس بلينوس Caius Plinius ٢٣ ق.م - ٧٩م . ويغلب على الظن أن هذه المدينة

http://al-maktabeh.com

الأولى كانت تقع فى مكان مرتفع بعض الشئ بالقرب من النهر، أى أنها كانت تشغل جزءا داخليا من مدينة إشبيلية الحالية.

وورد الاسم «إشبالى» لأول مرة بمناسبة إقامة يوليوس قيصر بها، بعد موقعة «مندا» فيما بين شهرى مارس وأبريل سنة ٤٥ ق.م فى كتاب "Bellum Hispaliense" . إذ يروى صاحبه أن بسورها أبوابا، وأنه كان يتوسطها مجلس الشعب Forum، وبجواره كان يقع المسرح . وكان لها ميناء ترسو فيه السفن.

وذكر الحميرى فى كتابه «الروض المعطار» أن يوليوس قيصر أعاد بناء أسوارها بعد أن اتسع نطاقها نحو النهر، وأحدق عليها بأسوار من صخر صلد ، وبنى فى وسطها قصبتين بديعتى الشأن تعرفان بالأخوين ، وجعلها أم قواعد الأندلس. وأصبحت مدينة بكل مدلول هذه الكلمة Civitas.كما أصبحت مركزا للقانون الرومانى ، واشتق لها اسما من رومية ومن اسمه، وأطلق عليها اسم Colonia Julia Rómula ، خوليا نسبة إلى يوليوس قيصر، ورومولا تصغيرا لروما . ولما ظهرت المسيحية ، واستشهدت فى ذلك الوقت قديستان هما رمز إشبيلية : إحداهما تدعى «خوستا» Justa، والثانية «روفينا» Rufina.

وفى سنة ٤٠٩م غزت قبائل الوندال إسبانيا ، وتبعهم القوط الغربيون. واستقر فيها ملوك القوط، وجعلوها حاضرة لهم حتى نقل الملك ليو فخلدو العاصمة إلى طليطلة Toledo سنة ٥٦٧م .

وقد ازدهرت المدينة فى عهد سان هرمنخلدو San Hermengeldo الذى اعتنق فيها المسيحية ، وأسس سان إيسيدرو San Isidro مدرسته المشهورة فى إشبيلية . ثم بدأ عصر جديد بنزول المسلمين فى شبه الجزيرة وافتتاحهم لها. وارتفعت أعلام الإسلام على الأندلس ، وتقدمت جيوش طارق بن زياد تفتتح المعاقل والحصون ، عقب انتصارها على جيوش القوط الغربيين فى موقعة وادى لكة سنة ٧١٢م . وقدمت موجة أخرى من الفاتحين بقيادة موسى بن نصير، فأتم فتح المدن التى لم يفتحها طارق، وسقطت إشبيلية فى أيدى المسلمين بعد حصار دام عدة شهور لحصانة أسوارها ومناعتها . واختارها موسى بن نصير حاضرة الأندلس: لوقوعها على البحر، وارتباطها فى يسر بسائر المدن الأندلسية الأخرى ، وسهولة اتصالها ببلاد المغرب قاعدة الجيوش الإسلامية فى حالة قيام الأندلس بالثورات . ولكن إشبيلية لم تتمتع بهذا التفوق ، إذ تحولت العاصمة إلى قرطبة عقب مقتل عبد العزيز بن موسى سنة ٩٨هـ ٧١٧م.

وتولى على الأندلس عدة ولاة من قبل خلفاء بنى أمية. وفى عهدهم انبعث بين العرب الصراع القبلى الذى حملوه معهم من المشرق ، وأصبحت البلاد مسرحا للفتن والفوضى، ومرتعا خصبا للاضطراب .. حتى دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، وأنقذها من الفتن التى شملتها : قضى على مظاهر الفوضى المستحكمة بها، وكون دولة عربية إسلامية تعد امتدادا للدولة الأموية.

إشبيلية أول عاصمة للأندلس فى عصر الولاة العهد الأول للفتح الإسلامى

وظلت الحياة فى إشبيلية بعد الفتح الإسلامى على ما كانت عليه زمن القوط، إلا من تغيير طفيف أحدثه الغالبون فى المجال الدينى والاجتماعى. وسكن إشبيلية عدد قليل من العرب، إذ آثر أكثرهم النزوح إلى العاصمة قرطبة. وزخرت المدينة بعدد كبير من النصارى باعتبارها المركز الدينى المسيحى الأول فى إسبانيا منذ عهد القوط، ثم ازداد عدد سكانها العرب فجأة بعد أن استقر فيها جند حمص سنة ٧٤٢م، ونزلت بإشبيلية عدة قبائل عربية مثل: بنى موسى من بيت غافق، وبنى زهرة وبنى حجاج ، وبنى الجد، وبنى خلدون، وكانت هذه القبائل تؤلف الأرستقراطية العربية بإشبيلية.

اتبع المسلمون منذ الفتح سياسة من التسامح فى معاملتهم نصارى إشبيلية ، فأتاحوا بذلك تحول كثير من النصارى إلى الإسلام ، وعرف هؤلاء المتحولون ب «المسالمة» . وكان النصارى يتمتعون ، خاصة فى عهد عبد العزيز بن موسى، بحرية فى أداء شعائر دينهم . وكان من أثر سياسة التسامح هذه أن قامت روابط وثيقة بين المسلمين والمسيحيين ، تقوم على مصاهرة المسلمين للإسبان ، فكثر زواج الفاتحين من الإسبانيات، ونشأ من هذا الزواج جيل من الإسبان المسلمين عرفوا باسم المولدين . وازداد عدد المولدين شيئا فشيئا حتى أصبحوا فى نهاية القرن التاسع الميلادى غالبية سكان إشبيلية ، واحتفظ كثير منهم بأسمائهم الإسبانية ، مثل : بنى أنجلين وبنى شبرقة . أما اليهود فكانوا يشغلون فى إشبيلية مكانة مميزة بين سكانها، فقد انضموا للمسلمين وآزروهم منذ الفتح الإسلامى.

واعتلى عبد الرحمن بن معاوية الملك بقرطبة عام ٧٧٥م، ولم يزعزع استقرار الإمارة فى قرطبة المركز السامى الذى كانت تحتله إشبيلية ، فقد تمتعت إشبيلية فى عهد بنى أمية بازدهار شامل فى حياتها ، وأقام فيها أمراء بنى أمية المنشآت العظيمة الخالدة . وكان عصر عبد الرحمن الأوسط العصر الذى اتصلت فيه إسبانيا الإسلامية بالمشرق العباسى، لأول مرة،

اتصالا مباشرا ، ذلك أن إسبانيا فى عهدها الإسلامى الأول، وخاصة فى عهد عبد الرحمن الداخل، كانت تحافظ على مثلها وتقاليدها الشامية.

وأقام عبد الرحمن الأوسط فى إشبيلية مسجدا جامعا سنة ٨٢٩م ، فلما أغار النورمانديون على إشبيلية عام ٨٤٤م ودخلوها ، أحرقوا أسقف مسجدها ، وعاثوا فى قصورها، ثم أخرجهم الأمير منها، وأشار عليه الوزراء ببناء سور لمدينة إشبيلية لحمايتها، فعهد بذلك إلى عبدالله بن سنان ، أحد موالى بنى أمية، فبناه، وأمر عبد الرحمن بإقامة دار صناعة بإشبيلية لانشاء السفن الحربية لأن الأندلس لم يكن لها أسطول فى ذلك الوقت يستطيع أن يرد غارات النورمانديين.

وذكر ابن حيان أن عبدالملك بن حبيب كتب إلى الأمير عبد الرحمن أثر محنة أهل إشبيلية وإثارة موضوع تحصينها ، وكان الأمير إذ ذاك مشغولا بعمل زيادته بالمسجد الجامع بقرطبة ، فذكر له عبد الملك فى كتابه : إن بنيان سور مدينة إشبيلية أوكد عليه من بنيان الزيادة فى المسجد الجامع ، فعمل برأيه فى بنيان هذا السور، وبناه بالحجارة.

وفى عهد الأمير عبدالله بن محمد رفعت إشبيلية راية الاستقلال ، وخرجت عن فلك الإمارة القرطبية ، واستبد ابراهيم بن حجاج ، أحد زعماء المدينة وأشرافها ، وارتقى فى درج الجلال ، وكان زعيمًا قويًا ، بعيد الهمة ، جميل الذكر. واستمر بنو حجاج يحكمون إشبيلية حتى تولى عبد الرحمن بن محمد إمارة قرطبة ، وعزم على إخضاع الثائرين ، وتوحيد الأندلس، وضم مدنها المستقلة إلى السلطة المركزية. ونجح عبد الرحمن الناصر فى القضاء على أولاد عمر بن حفصون الثائرين بقلعة «ببشتر» ، واستسلم له أحمد بن مسلمة بن الحجاج ، وبذلك انضمت إشبيلية إلى فلك قرطبة، وأقام فيها قصبة حصينة.

ولما قام ملوك الطوائف فى الأندلس، بعد سقوط الخلافة بقرطبة ، استولى ابن عباد على مقاليد الأمور سنة ١٠٤٢م وجعلها بنو عباد حاضرة لمملكتهم الصغيرة . وشهدت إشبيلية فى عصرهم إزدهاراً لم تشهد من قبل: لا فى عصر الرومان، ولا فى عهد القوط، ووصل بها الأمر أن أصبحت أعظم مدن إسبانيا الإسلامية بعد أن تخلت قرطبة عن الزعامة . وكان المعتمد بن عباد خير مثل للشاعر الأندلسى الرقيق، وكان أندى ملوك الأندلس راحة ، وهو أرحبهم ساحة، وأرفعهم عماداً . ولذلك كانت لإشبيلية فى عهده بؤرة الرحال، وقبلة الآمال ، ومركز الشعراء ومجتمع الأدباء . وبينما كان شعراؤه يعبرون بقصائدهم الرقيقة عن حياة الازدهار العمرانى بإشبيلية : فشيدوا العمائر الفخمة ، وأقاموا القصور السامقة.

ولم يتح لإشبيلية أن تنعم طويلاً فى ظل بنى عباد ، إذ سرعان ما عبر المرابطون الزقاق بحجة إنقاذ الأندلس من براثن الفونسو السادس ملك قشتالة ، ثم أخذوا فى القضاء على دول الطوائف واستولوا على إشبيلية سنة ١٠٩١م ، وتم لهم بذلك السيطرة على الأندلس.

وفى أواخر عهدهم اختلت أمور دولتهم: ذلك أنهم تأثروا بمظاهر الرقة فى العواصم الأندلسية، ونسوا مظاهر الغلظة والجفاء التى فطروا عليها فى الصحراء بحثا وراء شهوات النفس ، ففقدوا خصالهم، وانحطت هممهم، مما هيأ المجال لدخول عناصر جديدة فى الأندلس وفدت من المغرب. واجتاز الموحدون بدورهم الزقاق إلى إسبانيا ، وبايع أهل إشبيلية عبد المؤمن بن على، خليفة الموحدين سنة ١١٥٦م ، فاختارها حاضرة له فى الأندلس.

ثم تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخلافة بعد أبيه عام ١١٦٤م ، وكان محبًا للفنون والأدب والفلسفة رغم ميوله الحربية، وكانت إشبيلية أقرب إلى قلبه من مراكش حاضرته فى المغرب: إذ ولد فى قرطبة ، وقضى فى إشبيلية شطراً كبيراً من طفولته ، وتأثر برقة الأندلس، وفتن بسحرها ، وراقته مظاهر الثراء التى كان يستنيم لها الأندلسيون ، فتخلى منذ طفولته عن خشونة الموحدين وتقشفهم ، وأقبل على الترف ، وانغمس فيه ، فشيد القصور والمساجد ، وحرص على تجميل حاضرة ملكه فى الأندلس بكل ما من شأنه التعمير والتمصير. وكان من نتائج ذلك أن انطلقت حركة البناء فى تلك المدينة ، واتسمت الأبنية الجديدة بطابع الأصالة، واجتمعت فيها البساطة التى تميزت بها عمائر الموحدين مع التعقيد والغلو فى الحشد الزخرفى . وتلك إحدى خصائص عمارة الأندلس منذ خلافة الأمويين فى قرطبة حتى عهد ملوك الطوائف.

وفى عهد ابنه أبى يوسف يعقوب المنصور بلغت إشبيلية ذروة مجدها وعظمتها ، وأصبحت بحق حاضرة الأندلس فى عهد الموحدين : فعمرت الأسواق والمتاجر والقصور والعمائر ، وازدهرت فيها الحضارة، ولم يتردد أبو يوسف يعقوب فى تجميلها ، فأقام لمسجدها الجامع الذى بناه أبوه منذنة ارتفعت فى رشاقة مشرقة على فحص إشبيلية وما يحيط بها من المنطقة المعروفة بالشرف، وتضم القرى والضياع .

ولما عاد الخليفة إلى إشبيلية - بعد انتصاره الرائع على جيوش قشتالة فى موقعة الأرك ١٠ يوليو سنة ١١٩٥م ، استحق لقب المنصور- أمر بصنع أربع تفاحات مذهبة لتكلل المئذنة ، ورفعت فى حضرته ، وركبت بأعلى القبة. فبهرت ببريقها عيون الحاضرين . وظلت المئذنة ، بسموقها ودقة زخارفها وتناسق بنيانها ، تثير إعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء،

وكانت تمثل للمسلمين تفوق دينهم ودوام حكمهم فى هذه البلاد .. حتى ضعفت دولة الموحدين، وتقلصت دولة الإسلام فى الأندلس بتقدم حركة الاسترداد المسيحية بعد هزيمة الإسبان للمسلمين فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢م التى لم يقم للمسلمين بعدها قائمة تحمد، وبها بدأت عوامل الضعف تسرى فى كيان دولة الموحدين.

إلا أننا يمكن أن نميز من بين خلفاء الموحدين الضعاف ملكا كان له فضل كبير فى تجميل إشبيلية والعناية بها : هو أبو العلاء إدريس بن أبى يوسف يعقوب المنصور ١٢١٨-١٢٣٠م، الذى حاول أن يعيد لإشبيلية بهاءها أيام أبيه المنصور ، فعمد إلى تحصينها أمام الخطر المحدق بها، فأقام بها سنة ١٢٢١م برجا ضخما، هو برج الذهب المشهور Torre de Oro الذى لايزال قائما حتى اليوم، ثم جدد أسوار المدينة ، وشيد أمامها سورا أماميا يحيط بها جميعا، وحفر حولها خندقا يدور بهذه الأسوار ، مبالغة فى تحصين المدينة أمام الخطر الإسبانى ، ويموت أبى العلاء إدريس تلاشى كل أمل فى إنقاذ إشبيلية، فقد سقطت المدن التى كانت تؤلف خط دفاعها الأمامى ، كقرطبة وقرمونة وحصن القصر والقلعة وحصن الفرج وقلعة جابر، وفى ٢٢ ديسمبر ١٢٤٨م دخلت جيوش قشتالة مدينة إشبيلية بعد حصار دام ما يقرب من ١٧ شهرا.

ولقد بالغ مؤرخو العرب فى وصف روائع إشبيلية ، وما كانت تتفرد به دون غيرها من الحواضر الأندلسية. وكانت - على حد قولهم- عروس بلاد الأندلس وقاعدتها ، مدينة الأدب واللهو والطرب، عظيمة الشأن طيبة المكان ، لها البر المديد والبحر الساكن، والوادى العظيم . ووصفها القندى فقال: **« أما إشبيلية فمن محاسنها : اعتدال الهواء، وحسن المبانى، وتزيين الخارج والداخل ، وتمكن التمصر ، وأما مبانيها فقد سمت عن إتقانها واهتمام أصحابها بها، وكون أكثر ديارها لاتخلو من الماء الجارى والأشجار المتكاثفة ، كالنارنج والليمون وغير ذلك. وقد جعل الله إشبيلية أم قرى الأندلس، ومركز فخرها وعلاها ، إذ هى أكبر مدنها وأعظم أمصارها »**.

كذلك مدحها مؤرخو إسبانيا المسيحية وقارنوها بالقسطنطينية ، وأصبحت إشبيلية عاصمة قشتالة بدلا من طليطلة ، وكان هذا الاختيار لإشبيلية موفقا كل التوفيق، إذ إن ماضى إشبيلية كان يزخر بالعظمة والمجد ، كما أن طليطلة أصبحت- بعد سقوط إشبيلية- بعيدة عن الثغر الأدنى، حيث الصراع الحاسم بين المسيحية والإسلام فى الأندلس.

كذلك اتجه فرناندو الثالث- بعد فتحه لإشبيليه- نحو مراكش ، مصدر الخطر الذى يهدد بلاده ، فكان لابد من عاصمة قريبة من موطن نزول المغاربة إلى الأندلس لنجدة إخوانهم فى

http://al-maktabeh.com

غرناطة . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك سببا آخر هو أن إشبيلية كانت أحصن مدن الأندلس، كما أنها كانت غنية بالمحاصيل الزراعية ومنتجاتها الصناعية.

عمد فرناندو الثالث إلى إعادة تعمير إشبيلية بعناصر مسيحية وفدت مع الإسترداد الإسبانى من الشمال (قطالونيا واشتوريش وليون وأراجون وقشتالة) ، وحلت محل العناصر الإسلامية التى هجرت المدينة بعد سقوطها فى أيدى المسيحيين. فوزع القصور والدور الإسلامية الكبرى على قواده وجنوده القشتاليين والفرنج الذين أسهموا فى فتح إشبيلية ، وأدى هذا التغير الفجائى فى العناصر التى تسكن المدينة إلى تحول عميق فى نظام الحياة بها ، فبينما أخذت التقاليد القشتالية تمسخ تدريجيا النظام الإسلامى فى حياة المدينة، ظلت الممتلكات التى غنمها الإسبان فى إشبيلية تحتفظ ببنائها الإسلامى.

أجل ، لقد كان مظهر التجديد فى الأندلس ، وخاصة فى إشبيلية العاصمة الجديدة لملوك قشتالة ، عميقا فى كافة أنواع الحياة، ولكنه لم يكن كذلك من الناحية المادية، فمع أن القشتاليين جعلوا من إشبيلية امتدادا لمدنهم القشتالية ، وذلك بدمهم ولغتهم ودينهم واقتصادهم وقانونهم وأزيائهم وعاداتهم، فإن الظروف المادية والجغرافية التى وجد فيها الفاتحون الجدد ، وكذلك استمرار التأثيرات الإسلامية.. كل ذلك أتاح الفرصة لإيجاد خصائص إقليمية يشبه بعضها الخصائص القديمة، وأخذت هذه الخصائص الجديدة تبرز منذ القرن الرابع عشر لتؤلف أسلوبا إشبيليا يذكر بالأسلوب الإشبيلى الإسلامى. وقد ساعد على خلق هذا الأسلوب عدم نقاء الدم القشتالى فى إشبيلية، إذ إن السكان الجدد كانوا يختلفون فيما بينهم فى كل نواحى الحياة نظرا لتعدد أجناسهم.

وعاش هؤلاء السكان مع بقايا العنصر الإشبيلى الإسلامى الذى آثر البقاء فى مسقط رأسه، وساهم هؤلاء المسلمون الخاضعون لقشتالة ، والذين يعرفون بالمدجنين، فى كل نواحى الحياة الاقتصادية بالمدينة . وأحدث ذلك تراجعا للفن القوطى الذى جلبه القشتاليون معهم من الشمال ، وانتصر الأسلوب المسيحى. فقد وجد بين المدجنين كثير من أصحاب المهن الفنية، والصناعات كالبنائين والنجارين والفخارين ، واستخدمهم ملوك إسبانيا المسيحية فى بناء الكنائس والأديرة والحصون . ولاشك أن الفضل فى ازدهار الأسلوب المدجن يرجع إلى تفوق المدجنين المسلمين فى الناحية الفنية، وإلى مقدرتهم فى البناء بالآجر بدلا من الحجارة التى كان يندر وجودها .

وعلى الرغم من ضياع كثير من معالم إشبيلية الإسلامية ، فما زالت تحتفظ حتى اليوم بطابعها الذى اتسمت به منذ عصر الموحدين، وما زالت تحتفظ بتخطيطها الإسلامى القديم رغم التغيرات العميقة التى أحدثها الإسبان فى النظام الاجتماعى بإشبيلية : فإن كنائس المدينة الحالية قامت على أسس مساجدها القديمة، بل إن أبراج هذه الكنائس تذكرنا بالمآذن الإشبيلية ، لما كسيت به من توريقات عربية إسلامية، كذلك تشهد دور إشبيلية اليوم بأفنيتها الداخلية المغروسة بالأشجار ، ونوافذها المكسوة بشبكات من الحديد ، وجدرانها الخارجية العارية من الزخرفة ، وواجهاتها البيضاء، بمدى تغلغل الأثر الإسلامى فى النظام المعمارى بالمدينة.

وكانت إشبيلية فى عصر الموحدين ، تنقسم إلى حى أساسى هو المدينة، وأحياء أخرى تحيط بها ، وكان يحيط بالمدينة وأحيائها أسوار قوية تحمى المدينة من غارات الأعداء . وكان يقع خارج الأسوار أرباض ، كما كان الشأن فى أغلب مدن الأندلس.

أما المدينة ذاتها فكانت تشتمل على مسجدين جامعين : الأول مسجد ابن عدبس الذى بناه القاضى عمر بن عدبس بأمر الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٨٢٩م ، وما زالت بقاياه ظاهرة حتى اليوم، وإن كانت تقوم عليه كنيسة سان سلبادور ، والثانى المسجد الجامع بالقصبة، الذى أسسه أبو يعقوب يوسف، وعليه تقوم كاتدرائية إشبيلية . ومن ساحة هذا المسجد الأخير كانت تتشعب كل طرق المدينة مؤدية إلى الأبواب المفتوحة بالأسوار، ومن العجيب حقا أن نرى اليوم بعض الطرق تحتفظ بتخطيطها القديم، إذ تمتد من طرف إلى آخر بالمدينة مارة بالمركز الدينى الذى تؤلفه اليوم كاتدرائية إشبيلية ، والذى كان يؤلفه فيما مضى جامع القصبة الكبير.

أما المركز الاقتصادى والصناعى بإشبيلية فيلى فى أهميته المركز الدينى مباشرة ، فقد كان لموقع إشبيلية الجغرافى على مصب نهر الوادى الكبير، وسط إقليم غنى بمنتجاته الزراعية ، أثر كبير فى اعتبار إشبيلية أعظم مدن الأندلس فى التجارة ، وكانت الحياة الاقتصادية مزدهرة على الأخص حول المسجد الجامع الذى كانت تحيطه الأسواق والقيساريات . ومن هذه الأسواق: سوق الصباغين والخياطين . وسوق باعة الأثواب، سوق الوراقين والعطارين والزجاجين والفخارين والنجارين والقصابين وسوق الصاغة.

وما زالت بعض أسماء هذه الأسواق معروفة حتى اليوم بأسمائها العربية، من ذلك شارع القيسارية Akcaicerá وشارع الخياطين Alfayates .

ومن أهم المؤسسات الاقتصادية ، فى مدينة إشبيلية ، إذ عمدوا إلى الإكثار من الزوايا الداخلية والخارجية بالسور، بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة متكسرة . وميزة هذا النظام أن يترك الجند أعداءهم يتقدمون داخل إحدى الزوايا ، ثم يندفعون عليهم من أعلى الأسوار على الدروب فيفتكون بهم فتكا ذريعًا. ويشبه هذا النظام «الزنبرك» : إذا ضغط عليه ثم ترك اندفع بقوة فيصيب ما يقابله . وما زال قطاع من هذه الأسوار بإشبيلية قائما حتى اليوم، ويعرف باسم سور مقارنة Muralla de Macarena حتى باب قرطبة ، وتتناثر بعض بقاياه بعد ذلك فى حديقة معهد الوادى El Jardin del Colegio del alle.

وتحيط بهذه الأسوار أسوار أمامية أقل ارتفاعا كانت تعرف بالبريخ خنة، ومنها احتفظت اللغة الإسبانية بالاصطلاح Barbacana، ويمنع هذا السور الأمامى- أو الحزام «البرانى» حسب تسمية ابن زرع- العدو المهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية، ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ منها داخل المدينة.

وسور إشبيلية الأمامى شيده الخليفة أبو العلاء إدريس سنة ١٢٢٣م، وحفر حوله خندقا ما زالت آثاره باقية إلى اليوم، وهو الذى مد من سور إشبيلية سوراً قليل الارتفاع يعرف فى اللهجة المغربية باسم «قورجة» ، وبالإسبانية باسم Coracha ينتهى إلى نهر الوادى الكبير ببرج ضخم كثير الأضلاع هو برج الذهب القائم حتى وقتنا هذا .

ومن أهم معالم إشبيلية الإسلامية ، التى ما زالت حتى اليوم تروى عراقة التاريخ والحضارة العربية الإسلامية، آثار بقايا القصر الإسلامى Alc´zxar وتشتمل على بقايا بهو الجص، وقبوة من المقرنصات والضلوع المتشابكة فى دار تقع ببهو البنود. ونضيف إلى هذه الآثار بقايا المسجد الجامع بإشبيلية، الذى أمر أبو يعقوب يوسف ببنائه سنة ١١٨٢م . ونستدل على أن هذا الجامع كان يجمع بين صور إنشائية وفنية ظهرت فى مساجد الموحدين بمراكش وصور أخرى مستوحاة من المسجد الجامع بقرطبة . وأهم ما تبقى من هذا الجامع الجليل مئذنته المعروفة بالخيرالدا La Giralda . وتم بناؤها عام ١١٩٥م ، وارتفعت فى رشاقة وجلال تشق عنان السماء. ويكفى لإظهار روعتها أن يلمس الزائر بها اليوم عمارتها الصاعدة فى إيقاع ، وزخارفها المحفورة فى الآجر كالمخرمات، والموزعة فى تعادل واتزان مع رقة وبساطة.

بلنسية :

بلنسية Valencia قاعدة شرق الأندلس، وأعظم مدائنه، وهى مدينة السهول الخصبة، كثيرة الخيرات، وكانت تعرف بمدينة التراب لخصوبة تربتها ، وبمطيب الأندلس لكثرة بساتينها .

نفع بلنسية على مصب الوادى الأبيض، أو وادى الأبيار ، فى بحر الشام (البحر المتوسط) . وقد دخلت فى فلك الدولة الإسلامية عندما افتتحها أحد قواد طارق بن زياد على إثر فتحه لمدينة تدمير Tudmir .

وظلت بلنسية بعد فتحها خاضعة للخلافة الأموية بالمشرق، حتى دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، وأسس له ملكا فيها، ثم استقل الأمير عبدالله بن عبد الرحمن الداخل ببلنسية احتجاجا على تولية الحكم بن هشام إمارة قرطبة، حتى أنه عرف بعبد الله البلنسى، وهو الذى أقام ربض الرصافة Ruzafa ببلنسية التى قال عنها الرصافى الشاعر:

ولا كالرصافة من منزل ... سقته السحائب صوب الولى

أحن إليها من لى بها ... وأين السرى من الموصلى

وما زال اسم الرصافة يطلق اليوم على إحدى ضواحى بلنسية ، وظل عبدالله البلنسى قائما بمملكة بلنسية حتى مات سنة ٢٠٨هـ (٨٢٣-٨٢٤م)، فاسترجعها عبد الرحمن الأوسط ، وعين عليها واليا من قبله.

وفى عهد الأمير عبدالله بن محمد، استقل بمرسية وبلنسية ولورقة ، ديسم بن اسحق المتوفى سنة ٢٩٣هـ (٩٠٦م) وتوارثها أولاده من بعده ، فلما تولى عبد الرحمن الناصر بعث سنة ٣-٤هـ (٩١٦م) وزيره اسحق بن محمد القرشى على رأس جيش كثيف لإخضاع كورتى تدمير وبلنسية ، فوطئ الكورتين ، وذل أعداءه وولى على بلنسية ، سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م)، عبدالله بن محمد بن عقيل.

ويقول ابن عذارى : «إن بلنسية ، بعد أن سقطت الخلافة بقرطبة، أصبح يتولاها ولاة همهم الأول جمع الجباية ، حتى وصل الأمر أن تولى أمور بلنسية عبدى مهنة لمولاهما مفرج العامرى، هما مبارك ومظفر ، وليا وكالة السقاية ببلنسية وصرفا عنها، ثم ضرب الدهر ضربته فقضى لمبارك بالإمارة هناك . وظهر من سياسة هذين العبدين الصقلبيين فى مدة إمارتهما أن تعاملا كأخوين طوال حياتهما ، نزلا يومئذ معا فى سلطانهما بقصر الإمارة مختلطين تجمعهما فى أكثر أوقاتهما مائدة واحدة ولايتميز أحدهما عن الآخر فى ما يستعملونه من كسوة وحلية وفرش ومركوب وآلة ، ولاينفردان إلا فى الحرم خاصة. على أن جماعة حرمهما كن مختلطات فى منازل القصر ومستويات فى سائر الأمر، غير أن لمبارك كان التقدم فى المخاطبة فى حقيقة رسوم الإمارة لفضل صرامة كانت فيه، يقصر عنها مظفر لدماثة خلقه وانحطاطه لصاحبه فى سائر أمره.

وبلغت جبايتهما مائة وعشرون ألف دينار فى الشهر، سبعون ألف من بلنسية وخمسون ألف من شاطبة Jativa. ولحق بهم لأول أمرهم من موالى المسلمين ومن أجناس الصقلب والأفرنج والبشكنس عشيرتهم، ودربوا على الركوب حتى تلاحق ببلنسية ونواحيها من هؤلاء الأصناف فوارس برزوا فى البسالة.

وانفتح على العرب ببلاد الأندلس عديد من العبيد إذ نزح إليهم كل شريد طريد وكل عاق، وزهدوا فى الأحرار وأبنائهم، وانتمت جماعة هؤلاء الأخلاط الممتهنة إلى ولاء بنى عامر.

وطلب هذان العبدان، لما اتسعت لهما الدنيا، فاخر الأسلحة والآلات والخيل ونفائس الحلى والحلل، فصارت دولتهم أثرى الدول، ولحق بهما عريف كل صناعة ورئيس، فنفق سوق المتاع لديهم وجلبت كل ذخيرة إليهم.

وبنيا بلنسية وسدا عورتها بسور، أحاط بمدينتها تحت أبواب حصينة ، فارتفع الطمع عنها ورحل الناس من كل قطر بالأموال إليها، واستوطنها طائفة من جالية قرطبة القلقة الاستقرار فبنوا بها المنازل والقصور ، واتخذوا البساتين الزاهرة وأجروا بها المياه المتدفقة، وسلك مبارك ومظفر سبيل الملوك الجبابرة فى إشادة البناء والقصور.

واتسع الخرق فى عظيم ذلك الإنفاق ، فمنهم من قدرت نفقته على منزله بمائة ألف دينار وأقل منها وفوقها !!».

كما ذكرنا ، مبارك ومظفر ، كان عبدى مهنة لمولاهما مفرج العامرى، وكانا من الجهل واللكنة، كما يقول ابن عذارى، يحسبان أنهما نالا ذلك السلطان بالاستحقاق ، وأن لهما على الأيام دينا، يضطهدان الرعية بسلطانهما ولايعبآن ، يقلدانهما شرار العمال ويستزيدان عليها فى الضرائب الثقال، حتى غدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر ويأكلون البقل والحشيش وفر أكثرهم من قراهم.

وكان سبب موت مبارك أحدهما ، أنه ركب يوما من قصر بلنسية يبغى الخروج للنزهة خارج البلد على فرس، وأهل بلنسية يستغيثونه فى أن يرفق لهم فى مال كان فرضه عليهم ، فقال لهم يومئذ : اللهم إن كنت لا أريد انفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلاتؤخر عقوبتى الساعة. ثم ركب إثر ذلك ، فلما أتى القنطرة وكانت من خشب ، خرجت رجل فرسه فرمى به واعترضته خشبة نائية من القنطرة شجت وجهه وسقط الفرس عليه وكسر عظامه وفتق بطنه وفاضت نفسه لوقته وآمن البلد من مقتله فشاروا يومهم ذلك ونهبوا قصره. وكانت ولايته ثلاث سنوا ١٠١٥-١٠١٨م.

http://al-maktabeh.com

لما مات مبارك اتفق أهل بلنسية على تقديم لبيب الصقلبى، فأحدث فيهم أحداثا مقتوه لأجلها فلاذ بالأفرنج حتى صير نفسه كبعض عمالهم، فغاظ أهل بلنسية إذ جعلهم تحت رحمة ملك الإسبان ، فوثبوا عليه واستصرخوا ابن هود ، صاحب سرقسطة ، لنجدتهم، ثم أسندوا أمرهم إلى مشيخة منهم وتشاوروا فى ارتقاء أمير منهم يعترفون له. فاتفقوا على ابن مولاهم، عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن أبى عامر، فلحق ببلنسية واستقبله الموالى العامريون أفواجا يخنعون له بالطاعة وقلدوه رئاستهم سنة ٤١٧هـ (١٠٢٦م) وظل يحكمها حتى مات سنة ٤٥٢هـ (١٠٦٠م) . وتولى بعده ابنه عبد الملك بن عبد العزيز، وكان صبيا ، فقام له بالأمر كاتب أبيه المدبر لدولته، أبوبكر بن عبد العزيز . وكان أبوبكر هذا عين بلنسية التى بها تبصر. ثم أصبح أمر بلنسية إلى الفقيه ابن أحمد بن جحاف فى الوقت الذى كان يحكمها فيه القادر بن ذى النون، الذى سلم طليطلة إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة.

وكان يسند القادر ويؤازره ملك قشتالة الفونسو السادس، وقائده السيد القنبيطور El cid campeador، ولقب «السيد» منحه العرب للفارس القشتالى «رُذريق دياغة» ، كما جاء فى المصادر العربية ، وهو رودريجو دياث دى بيبار، الذى التجأ إلى ملوك الطوائف بعد طرده من قشتالة لقتله القند أروجاث Conde Orfaz انتقاما لشرف والده. أما لقب القنبيطور، وهى كلمة فى اللغة القشتالية القديمة تعنى «المبارز الغالب» ، نال هذا اللقب فى قشتالة بعد انتصاره على فارس «نباره» Navarra شيمانو غرسيس ، فى عهد والد الملك الفونسو السادس «الإدفونش».

والفارس الإسبانى (السيد) وجيشه المرتزق ، تنقل فى ولائه بين ملوك الطوائف فى شرق الأندلس ، واستطاع الاستئثار فى حكم مدينة بلنسية وضواحيها ، وذل أهلها بالحديد والنار، لتبقى فى فلك الممالك الإسبانية . وهدفه من ذلك استعادة مكانته فى البلاط القشتالى.

أنف أهل بلنسية أن يحكمهم يحيى القادر حفيد ابن ذى النون المأمون، حليف النصارى، الذى سلم مملكته فى طليطلة لقشتالة وعينه الفونسو السادس ملكا على بلنسية ، فاستدعوا ابن محمد بن عائشة ، قائد يوسف بن تاشفين ، فوجه إليهم فرقة من جيوش المرابطين . ففر القادر من قصره ، وقبض عليه، وقتل بأمر القاضى ابن جحاف فى رمضان سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) وتمت لابن جحاف ، بمقتل ابن ذى النون، رياسة المدينة: فرتب الأجناد ، وحاط نفسه بأبهة الملك. فغضب السيد القنبيطور لقتل ابن ذى النون ، وحاصر بلنسية ، وضيق عليها الحصار .. حتى نفدت الأقوات من المدينة وقل الزاد ، واستصرخ ابن جحاف أمير

المسلمين يوسف بن تاشفين ، فبعث إليه بجيش هزمه القنبيطور ، فأيقن الناس بالهلاك، واضطر أهل بلنسية إلى طلب الأمان على أنفسهم من القوات القشتالية المرتزقة، وخرج إليه ابن جحاف للمفاوضة على الصلح.

ودخل القنبيطور المدينة فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) بعد حصار دام عشرين شهرا، فسام أهلها العذاب، واستخلص أموالهم واعتل القاضى ابن جحاف ، ونزلت النكبة بجميع أهله وذوى قرباه، إذ إن القنبيطور طالبهم بمال القادر بن ذى النون، فلما استصفى جميع ماله أمر باضرام نار، وسيق القاضى ابن جحاف يرسف فى قيوده وأغلاله بين أهله وولده، وأمر بحرقه فى هذه النار، فمات محروقا .وجمع القنبيطور- بعد إحراقه لابن جحاف - جميع أعيان أهل بلنسية فقتل عددا كبيرا ، وعاث فى بلنسية ، وأحرق المدينة حتى أصبحت خرائب. وفيها يقول الشاعر ابن خفاجة الأندلسى :

عاثت بساحتك الظبى يادار ... ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد فى جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان فى عرصاتها ... لا أنت أنت ، ولا الديار ديار

نتوقف قليلا عن قلب صفحات التاريخ العربى الإسلامى لمدينة بلنسية، عاصمة شرق الأندلس وعروس البحر المتوسط. لنشير إلى الاحتفالات الشعبية للمدينة والتى تتمثل فى حرق الدمى، وتبدأ هذه الاحتفالات مع مطلع الربيع، وبالتحديد مساء يوم عيد الأب، وهو عيد القديس يوسف (سان خوسيه) ، ويصادف يوم ١٩ مارس من كل عام ، وتسمى احتفالات بلنسية الشعبية «لاس فاياس Las Fallas» ويبدو أنه قد تكون هناك علاقة فى حرق الدمى والحرائق والنيران التى أشعلها مرتزقة قشتالة ، قوات القنبيطور، فى الأهل والدار والديار..

ليس لدينا أى مصادر حول مغزى حرق الدمى، ذائعة الصيت، سوى ما نجده من حرق القاضى ابن جحاف حاكم بلنسية من قبل القنبيطور، وبطش قواته بأهل بلنسية .. واليوم يقوم أهل بلنسية بحرق آلاف الدمى التى تنحت سنويا وتعتبر قطع فنية قيمة لشخصيات تاريخية وسياسية من إسبانيا والعالم ، وبوجه خاص شخصيات أندلسية من التاريخ الإسبانى المعاصر والقديم . وربما يكون هناك توارد مثل ما يقوم به أهل بورسعيد بحرق الدمى استنكارا لما فعله اللورد اللنبى إبان الاحتلال البريطانى لمصر.

نعود إلى كتب التاريخ الأندلسى، فنرى أنه لم يطل بقاء بلنسية فى أيدى القشتاليين، فقد وجه يوسف بن تاشفين الأمير محمد مزدلى، ففتح بلنسية سنة ٤٩٥هـ (١١٠١م) وتولى عليها أمراء المرابطين . ثم استقل بها يحيى بن غانية الذى ولى جميع شرق الأندلس، وولى على بلنسية أخاه عبد الله بن غانية.

ثم ثار أهل بلنسية على المرابطين، واجتمعوا إلى القاضى ابن عبد العزيز، الذى قام بأمرها سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) واستولى على شاطبة Jativa ولقنت Alicante، واتسع ملكه . إلا أن جنده ثاروا عليه فى جمادى الأولى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م) ، وحاصروه فى قصره ببلنسية فغافلهم أثناء الليل، وتسلق الأسوار، وفر إلى مراكش.

وبايع الجند ابن عياض ملك شرق الأندلس، ثم خلفه على شرق الأندلس أبو عبدالله محمد بن سعيد الجذامى ابن مردنيش. وولى عبدالله هذا أخاه أبا الحجاج يوسف على بلنسية ، حتى مات سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م). وظل الأمر بعده بين أولاده إلى أن استقرت القيادة فى أبى جميل زيان بن أبى الحملات مدافع ابن يوسف بن سعد ، فدخلها فى صفر سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) ، وأقام بالقصر وأخذ البيعة لنفسه، ودخلت دانية Denia فى بيعته فضخم ملكه، واشتهر بجهاده ، فلما انهزم فى موقعة أنيشه، من ظاهر بلنسية، واستنجد بأبى زكريا صاحب تونس فى القصيدة الشهيرة التى نظمها أبو عبدالله بن الأبار ومطلعها :

أدرك بخيلك ، خيل الله، أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

فبادر السلطان بإعانتهم، وشحن الأساطيل بالمدد والأقوات إليهم. ولكن خايمى Jaime، ملك أرغون Aragón، كان قد حاصر بلنسية منذ سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧م) ، ورماها بنار المنجانيق . ودافع أهل بلنسية عنها دفاعا مجيدا ، حتى نفدت أقواتهم ، وضعفت قوتهم، وأكلوا الجلود ، فاضطروا إلى مفاوضة الأعداء على التسليم. فتم ذلك فى صفر عام ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) وخرج عنها الأمير أبوجميل زيان، ودخلها جيش أرغون.

وقد رثا أبو المطرف بن عميرة المخزومى بلنسية فقال: «... وبعد ذلك أخذ من الأم بالمخنق، وهى بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق، وما لبث أن أخرس مسجدها لسان الآذان، وأخرج من جسدها روح الإيمان : فبرح الخلفاء ، وقيل على آثار من ذهب العفاء، وانعطفت النوائب مفردة ومركبة كما تعطف الفاء: فأودت الخنة والحصامة. وذهب الجسر والرصافة ، ومزقت الجلة والشملة، وأوشحت الحرفة والرملة . ونزلت بالحارة وقعة الحرة: وحصلت الكنيسة من جآذرها وظبائها على طول الحسرة . فأين تلك الخمائل ونضرتها ، والجداول وخضرتها،

والأندية وأرجها ، والأودية ومنعرجها ، والنواسم وهبوب مبتلها ، والأصائل وشحوب معتلها ؟! دار ضاحكت المس بحرها وبحيرتها ، وأزهار ترى من أدمع الطل فى أعينها ترددها وحيرتها ».

وتساءل ابن الأبار فى إحدى رسائله : « أين بلنسية ومعانيها ، وأغاريد ورقها وأغانيها ؟ أين حلى رصافتها وحسرها ، ومنزلا عطائها ونضرها ؟ .. أين أفياؤها تندى غضارة ، وركاؤها تبدو من خضارة ؟ .. أين جداولها الطفاحة وخمائلها ؟ .. أين جنائنها وشمائلها ؟... ».

وقال ابن البلنسى عن مدينته :

بلنسية إذا فكرت فيها ... وفى آياتها - أسنى البلاد
وأعظم شاهدى منها عليها ... وأن جمالها للعين بادى
كساها ربها ديباج حسن ... لها علمان من بحر ووادى

وقال مروان بن عبدالله بن عبد العزيز ملك بلنسية :

كأن بلنسية كاعب ... وملبسها سندس أخضر
إذا جئتها سترت نفسها ... بأكمامها فهى لاتظهر

وقال أبو الحسن بن حريق :

بلنسية قرارة كل حسن ... حديث صبح فى شرق وغرب
فإن قالوا: محل غلاء سعر ... ومسقط ديمتى طعن وضرب
فقل : هى جنة حفت رباها ... بكروهين من جوع وحرب

وقال على بن أحمد ، أحد شعراء بلنسية فى منية المنصور ابن أبى عامر ببلنسية:

قم فاسقنى والرياض لابسة ... وشيا من النور حاكه القطر
فى مجلس كالسماح لاح به ... من وجه من قد هويته بدر
والشمس قد عصفرت غلائلها ... والأرض تندى ثيابها الخضر
وانهر مثل البحر حف به ... من الندامى كواكب زهر

أجل، لقد كانت بلنسية مدينة عامرة القطر، كثيرة التجارات- وعلى الأخص تجارة المنسوجات التى اشتهرت بها- كما كانت زاخرة بالأسواق . وكان يحيط بها سور من الحجر

والطوابى (مادة من التراب والرمل)، تنفتح فيه خمسة أبواب رئيسية ، هى باب القنطرة Alcántara فى الشمال الغربى، ويشرف على منطقة تعرف بالرملة Rambla ، يقابلها - على الضفة اليسرى من وادى الأبيض- ربض الكدية Alcudi وباب فى غرب المدينة يعرف بباب الحنش La, serpiente، وتقع خارج هذا الباب مقبرة تعرف بمقبرة باب الحنش. وباب ينفتح فى السور الجنوبى، يعرف بباب بيطاله، ويطلق عليه اليوم باب Boatella ويؤدى فى خارج المدينة إلى مقبرة بهذا الإسم . وباب شرقى يعرف بباب الشريعة (باب العدل Puerta de la Justica)، ويؤدى إلى ربض المصلى خارج بلنسية . وباب شمالى اسمه باب الفرج ، ويؤدى إلى منية ابن عبد العزيز على الضفة اليسرى من النهر.

وكانت بداخل بلنسية أحياء منها: حومة ابن جحاف ، وحومة رحبة القاضى، ورد ذكرهما بعد سقوط المدينة فى يد خايمى . وكانت رحبة القاضى تتوسط المدينة بالتقريب.

ويتوسط بلنسية الإسلامية مسجدها الجامع ، وبجواره النصر والقيسارية. وكان ببلنسية- بخلاف مسجدها الجامع- عدة مساجد: منها مسجد عبد العزيز بن غلبون، ومسجد أبى عبدالله بن نوح ، ومسجد الشراجيب، ومسجد السيدة، ومسجد باب القنطرة، ومسجد ابن سرنباق.

ويحدثنا الشقندى عن بحيرة رائقة المياه كانت داخل مدينة بلنسية . وما زالت مدينة بلنسية تحتفظ اليوم بعطر من ماضيها المجيد فى العصر الإسلامى، وإن كانت آثارها الإسلامية قد اندثرت على مر الأزمان.

مالقة :

مالقة ... Málaga الثغر الأعظم بجنوب شرقى الأندلس ، تتمتع بموقع رائع على البحر المتوسط وتشرف عليها من الشرق المنحدرات الوعرة بجبل فارو ويعرف باسم Gibralfaro وفى أعلاه حصن يغلب على الظن أنه يونانى البناء، ثم أعيد بناؤه فى العهد الإسلامى، وأحيط بالأسوار والأبراج القوية ويشرف هذا الجبل على خليج مالقة، وقد سمى بجبل فارو بسبب منار بناه الإغريق لهداية السفن. ويبلغ ارتفاع قمة الجبل ١٧٠ مترا ، وإلى جنوبه الغربى وفى مستوى أدنى منه ترتفع قصبة مالقة المنيعة على منحدر شديد الميل . وكانت تشتمل على مسجد جامع أمر الأمير عبد الرحمن الداخل ببنائه على يدى معاوية بن صالح الحمصى وكان ممن حضر وقعة مروان بن محمد فأنجاه الفرار ولجأ إلى الأندلس.

http://al-maktabeh.com

وكلمة مالقة Málaga مشتقة من الكلمة الفينيقية Malaka وتعنى مصنع نسبة إلى أنها كانت مركزا صناعيا هاما، ويشير آخرون إلى أنها من كلمة (مالحة) نسبة إلى شهرتها فى استخراج الملح والتمليح ، ويذهب البعض إلى القول أن الاسم مشتق من الكلمة اليونانية Malacos وتعنى الرقة التى تذكرنا برقة مناخ مالقة.

أسس الفينيقيون مدينة مالقة، ويعتقد أن بناءها قد تم فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، على أنقاض موضع أيبيرى، واستقر بمالقة جماعة من الفينيقيين المستعمرين الذين اشتغلوا بالتجارة مع أهل البلاد ، وقد أقام هؤلاء المستعمرون لهم مرسى بحريا أدني الجبل المطل على البحر، ومنذ ذلك الحين أخذت مالقة فى النمو، وأصبحت بالتدريج مركزا تجاريا وصناعيا هاما ، إلى أن استولى الإغريق عليها ومدوا نفوذهم على سائر المدن المجاورة.. وقد خضعت مالقة بعد ذلك للقرطاجنيين الذين حصنوا المدينة القديمة، وحسنوا ميناءها . ثم تمكن الرومان من قهر القرطاجنيين، وعاد ازدهارها فى عهدهم، وتفوقت على سواها من مدن الأندلس وثغوره .

ولما دخلت المسيحية شبة جزيرة إيبيريا فى عهد الإمبراطور كلاوديو Claudio، تعرض كثير من معتنقيها بمالقة للإضطهاد ، خاصة فى عهد دقلديانوس، واستشهد كثيرون منهم أمثال سيرياكو والقديسة باولا .. ولما تعرضت إسبانيا الرومانية لغزوات السواف والآلان والوندال ، بقيت مالقة وفية لروما ، ولكنها لم تصمد طويلا أمام القوط الغربيين، واستسلمت للملك سسبوتو رغم ما كانت تتلقاه من معونة البيزنطيين.

وفى سنة ٧١٣م تم فتح المسلمين لمالقة على يدى عبد الأعلى بن موسى بن نصير .. وقيل حين حاصر ابن موسى مالقة ، وكان ملكها ضعيف الرأى، قليل التحفظ، يخرج إلى جنان له بجانب المدينة طلبا للراحة من غمة الحصار، نصب عين وتقديم طليعة . وعرف عبد الأعلى بأمره فكمن له ، فى جنبات الجنة التى كان يرتادها ، قوما من وجوه فرسانه ذوى رأى وحزم ، أرصدوا له ليلا فظفروا به وأسروه، فاستولى المسلمون على المدينة عنوة.

ولسنا ندرى ما كانت عليه مالقة بعد الفتح الإسلامى ، وكل ما نعرفه عنها أنها لم تتأنق أو تزدهر فى عهد بنى أمية . فلما سقطت الخلافة الأموية بقرطبة ، وقامت دول الطوائف ، استقل بنو حمود بها، وجعلوها مقرا لحكمهم.

وبنو حمود هؤلاء من عقب إدريس بن الحسن الذى أسس دولة الأدارسة فى فاس. وقد جاز منهم أخوان، هما: على بن حمود وأخوه قاسم، مع نفر من البربر، العدوة إلى الأندلس .

فدعوا لنفسيهما، وتجمع حولهما البربر بالأندلس ، وملكا قرطبة سنة ٤٠٧هـ (١٠١٦م) ، وقتلا الخليفة سليمان المستعين، وأزالا ملك بنى أمية. ثم ولى الخلافة على بن حمود الذى تلقب بالناصر، وظل قائما بالخلافة حتى قتله بعض الصقالبة سنة ٤٠٨هـ (١٠١٧م). فولى أخوه القاسم، وتلقب بالمأمون . ونازعه الأمر ابن أخيه يحيى بعد أربع سنوات من خلافته.

وكان يحيى حاكما على مدينة سبتة، فجاز إلى الأندلس فى عام ٤١٠هـ (١٠١٩م) ، واحتل مالقة التى أصبحت منذ ذلك العهد حاضرة دولة بنى حمود. وكان ادريس أخوه يحكمها منذ عهد أبيه ، فبعثه يحيى إلى سبتة، وزحف من مالقة إلى قرطبة فاستولى عليها سنة ٤١٢هـ (١٠٢٢م) وتلقب بالمعتلى. ثم عاد المعتلى إلى مالقة بعد أن تملك عمه المأمون قرطبة عام ٤١٣هـ (١٠٢٢م) . ثم تغلب المعتلى على مناوئه ، واشتد أمره بعد أن أسلمت له الحصون والمدن، ثم قتل سنة ٤٢٩هـ (١٠٢٧م) .

واستمر أمر بنى حمود بين صراع ونزاع وانقسام ، حتى انقرضت دولتهم، واستولى على مالقة أبو مناد باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى ملك غرناطة ٤٢٩-٤٦٦هـ (١٠٣٧-١٠٧٣م) بعد أن أخرج منها القاسم بن محمد الملقب بالمستعلى. واستولى المعتمد بن عباد ملك إشبيلية على الجزيرة الخضراء ، وفر منها حاكمها الحمودى، وأعاد باديس بناء قصبة مالقة فيما بين عامى ١٠٥٧-١٠٦٣م ، وأقام فيها قصرا مازالت آثاره باقية إلى يومنا هذا.

وعندما مات باديس تولى الحكم على مالقة من بعده حفيده أبو معد تميم بن بلكين بن باديس ، وحكم حفيده الآخر، أبو محمد عبدالله بن بلكين غرناطة، وظلت مالقة خاضعة لتميم بن بلكين وكان شديد الجرأة ، بعيد الاعتدال، وهو الذى أمر بصنع ثريا من الفضة بمسجد مالقة. فلما جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، بعد انتصاره على ألفونسو السادس ملك قشتالة فى واقعة الزلاقة، وشرع فى خلع رؤساء الأندلس، وبدأ منهم بعبد الله ملك غرناطة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) بلغه استبداد تميم بأهل مالقة، ووشى به الأمير أبو المطرف الشعبى. فاضطر يوسف بن تاشفين إلى خلع تميم عن حكم مالقة ونفاه إلى بلاد السوس من المغرب، ثم عفا عنه وأسكنه مراكش.

ظلت مالقة تدين بالولاء للمرابطين حتى ضعف أمرهم، واتفق الناس على خلع دعوتهم واستبد بالأمير القاضى أبو الحكم بن حسون الذى حاصر المرابطين بقصبة مالقة حتى أنزلهم منها بعد ستة أشهر، وملك القصبة وانتقل إليها، وتسمى بالأمير ، واستقل بها ، وكان

المرابطون فى انتقيره Antequera يغيرون عليه فى مالقة، فاضطر إلى التماس عون ملك قشتالة مقابل إتاوة يدفعها له: فضيق على أهل مالقة حتى كرهوه، واتفقوا مع أحد قواده- ويعرف باللوضى- على شق عصا الطاعة عليه. وتغلب اللوشى على أبواب المدينة، واستولى على القصبة، وقتله فى عام ٥٤٧هـ (١١٥٢م) وسلمها للموحدين.

ولما انقرضت دولة الموحدين ، ضم محمد بن يوسف بن هود مالقة إلى مملكته بمرسية سنة ٦٢٥هـ (١١٥٢م) ، وأخيرا استولى محمد بن يوسف بن نصر ملك غرناطة على مالقة ، وندب صهره أبا محمد بن أشقيلوله لحكمها. وظل أبو محمد يحكم مالقة حتى توفى سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) فتملكها أبو عبدالله محمد بن يوسف الملقب بالفقيه . وقد حاول ملك قشتالة سنة ١٣٤١م أن يستولى على المدينة من البحر ولكنه فشل فى حملته . وتكررت المحاولة برا فى بسائط مالقة سنة ١٤٣٥ / ١٤٣٧م فى عهد إنريكى ملك قشتالة دون جدوى.

وفى عام ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) تقدمت جيوش قشتالة نحو مالقة - أعظم الثغور الأندلسية التى تبقت فى أيدى المسلمين ، والثغر الوحيد الذى تصل منه الإمدادات من المغرب إلى مملكة غرناطة- ودافعت عنها جيوش الأمير أبى عبدالله محمد بن سعد المعروف بالزغل. وفى هذا الوقت لجأ إلى مالقة السلطان أبو الحسن بن سعد ملك غرناطة، بعد أن ثار عليه أهلها ، وبايعوا السلطة ابنه أبا عبدالله محمد . وكان النصارى يمنون أنفسهم بالقضاء على هذا الثغر المنيع، فسيروا جيوشهم مرة أخرى فى صفر سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م)، ولكنهم هزموا فى موقعة الشرقية هزيمة نكراء بفضل استبسال الزغل الذى توى الحكم فيها بدلا من أخيه .

ولم تسكت قشتالة على هذه الهزيمة ، فسيرت جيوشها على رنده Ronda فى جمادى الأولى سنة ٨٩٠هـ (أبريل ١٤٨٥م) ثم استولت على لوشة Loja سنة ٨٩١هـ (مايو ١٤٨٦م) . وفى مارس عام ١٤٨٧م سير فرناندو الرابع ملك قشتالة قواته إلى مدينة بلش Vélez التى تعد خط الدفاع الأمامى لمالقة وحصنها الأمنع، فى الوقت الذى انشغل فيه المسلمون بإنقساماتهم الداخلية، وسقطت بلش فى أيدى الملكين الكاثوليكيين فى مايو سنة ١٤٨٧م ، بعد دفاع مجيد . وأصبح القشتاليون يهددون مالقة، ثم عمدوا إلى تجريدها من حصونها المجاورة ، فسقطت الواحد تلو الآخر ، ووصل بهم الأمر إلى تطويقها من كل مكان . وفى يونيو سنة ١٤٨٧م اضطر المحاربون المالقيون إلى الامتناع إلى داخل أسوار المدينة. وكان حاكمها محمد بن سعد ، المعروف بالزغل، غائبا عنها إذ ذاك . وكان يتولى الدفاع عنها قائدها الشهير حامد الثغرى الذى استبسل فى الدفاع عنها ، وتجالد وأبدى من ضروب

الشجاعة ما شهد له به المسيحيون . وأبى المسلمون المحاصرون داخل المدينة وفوق قصبتها أن يستسلموا لأعدائهم ، وآثروا الموت على ذلك. واستمر النصارى يشددون الحصار على المدينة من البر والبحر، حتى انقطعت الأقوات، وفتك بالناس الجوع والمرض .. فلم يجد أهلها بدا من التسليم. فسلمت واعتصم حامد الثغرى ورجاله البواسل بأعلى جبل فارو، ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى التسليم . ودخلت جيوش قشتالة المدينة فى ١٨ من أغسطس سنة ١٤٨٧م، ورفعوا الصليب المقدس بأعلى برج التكريم، وحولوا المسجد الجامع بالمدينة إلى كنيسة سانتا ماريا.

وكانت مالقة فى العهد الإسلامى إحدى القواعد الكبرى بالأندلس. وكانت مدينتها تمتد ما بين القصبة ورملة وادى المدينة Guadalmedina الذى ينبع من المرتفعات المجاورة زمن الشتاء يجف زمن الصيف . ويتوسط المدينة مسجدها الجامع بالقرب من البحر، وتقوم عليه اليوم الكاتدرائية الحالية. ويرجع بناء هذا المسجد إلى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكان بيت الصلاة فيه يحتوى على خمس بلاطات . وكان بالمدينة مساجد كثيرة: منها مسجد العطارين ، ومسجد العبار. ويذكر الحميرى أن للمدينة ربعا يعرف باسم فنتناله، كان يقع خارج باب، يقال له باب فنتناله ، ذكره ابن الأبار.

وقصبة المدينة تقع شرقيها، ويحيط بها سور من الحجر ، وهى فى غاية الحصانة والمناعة . ويحيط بالمدينة سور فتحت فيه خمسة أبواب: منها باب يعرف بباب البحر ، وباب شرقى يعرف بباب الوادى، وباب جوفى يعرف بباب الخوخة . وكانت المدينة تزخر بالمبانى الفخمة والحمامات الحسنة، والأسواق الجامعة الكثيرة. وقد وصف ابنٌ بطوطة مسجد مدينة مالقة بقوله: «ومسجدها كبير الساحة شهير البركة، وصحنه لانظير له فى الحسن، فيه أشجار النارنج البديعة».

وكان يصنع بمالقة الفخار المذهب العجيب ، ويجلب منها إلى أقاصى البلاد. وكان يصنع بها كذلك - كما ذكر ابن سعيد- الزجاج الغريب .

وقد وصفها الشقندى أبدع وصف حين قال : «وأما مالقة فإنها جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة التى لاتكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر، والبروج التى شابهت نجوم السماء كثرة عدد وضياء، وتخلل الوادى الزائر لها فى فصلى الشتاء والربيع فى سرور بطحائها، وتوشيحه حضور أرجائها. ومما اختصت به من بين سائر البلاد التين الربى المنسوب إليها لأن اسمها فى القديم ريه .. وفيها تنسج الحلل الموشاة التى تجاوز أثمانها الآلاف ، ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء . وساحلها محط تجارة لمراكب المسلمين والنصارى».

ومن أهم آثارها الإسلامية : القصبة التى ذكرناها آنفا، وبداخلها قصر باديس، وبقايا دار الصناعة من عهد بنى الأحمر.

طليطلة :

Toledo كانت عاصمة القوط قبل الفتح الإسلامى ، تقع وسط إسبانيا ، ومن أهم مدنها من الناحيتين التاريخية والثقافية، وهى مركز الأسقفية حيث أن أساقفتها يعتبرون رؤساء لأساقفة إسبانيا جميعها . احتلها الرومان عام ١٩٣ قبل الميلاد ، ولما غزا القوط شبه جزيرة إيبيريا اتخذوا منها عاصمة لموقعها على نهر التاجه El Tajo، وبعد ثلاثة قرون من مجئ القوط عبر طارق بن زياد بجيشه إلى الشاطئ الأندلسى . وكان المفروض ، بعد انتصاره على لذريق Rodrigo ، أن يفتح البلاد التى تقع فى الجنوب الأندلسى ولايصل إلى طليطلة قبل سنة أو سنتين ، لكنه سمع بأن زعماء القوط يعدون العدة لحشد الجيوش فى العاصمة وأن زعماءهم يتوافدون على المدينة من شتى أنحاء إسبانيا للتشاور ووضع خطة للحرب ، فانطلق طارق بجيشه مخترقا المدن والقرى والحصون والمزارع وانقض على طليطلة فجأة فكانت ضربة مذهلة استسلمت بعدها المدن الأندلسية بسهولة، ووصف أحد المؤرخين الإسبان فتح طارق لطليطلة بقوله : «هى خطة لاينفذها إلا عبقرى».

كان العرب والمسلمون يسمونها الثغر الأوسط لموقعها بجوار الممالك الإسبانية ، وقد ازدهرت فى هذا العصر وأصبحت واحدة من المدن الست الكبرى وتميزت بحركتها الثقافية النشطة . وفى عصر الطوائف تحولت إلى دولة مستقلة يحكمها ابن ذى النون، فكان همه أن يتوسع على حساب جيرانه العرب والمسلمين ، فحالف ملك قشتالة ألفونسو السادس ضد جيرانه (دولة إشبيلية ، ودولة سرقسطة ودولة بطليوس) وكلهم عرب مسلمون، فكان حكام هذه الدول يدفعون أموالا طائلة لألفونسو السادس ليرضى بمحالفتهم، وذات يوم أفاق الأندلسيون على ألفونسو السادس يحتل طليطلة !!

ثمة إجماع بين المؤرخين بأن يوم سقوط طليطلة يعد حدا فاصلا فى تاريخ الأندلس .وقبل سقوطها كان التفوق للعرب المسلمين ، وبعد سقوطها مال الميزان لصالح القشتاليين وبقية الممالك النصرانية.

فرغم انتصار المرابطين فى معركة «الزلاقة» على ألفونسو السادس إلا أنهم لم يفكروا فى استعادة طليطلة التى جعل منها ألفونسو السادس عاصمة لبلاده وظل يتوسع هو وخلفاؤه شيئًا فشيئا حتى أصبحت طليطلة تتوسط مملكته.

http://al-maktabeh.com

من أهم معالمها العربية الآن بقايا المسجد القديم، وقنطرة نهر التاجه التى ما زال المعماريون يشيدون بروعتها .

قرطبـــة :

كانت المدينة الثالثة من حيث الأهمية قبل الفتح الإسلامى، فأصبحت الأولى بعد أن جعل منها الأمويون عاصمة لهم.

تقع على نهر الوادى الكبير Río Guadalquivir، فى وسط جنوب شبه جزيرة إيبيريا . فتحها قائد صغير من قادة طارق بن زياد هو مغيث الرومى بسبعمائة فارس فقط حيث ساعده السكان الإسبان الذين كانوا يحقدون على مستعمريهم القوط.

حين بلغت قمة عمرانها كعاصمة كان بها أكثر من مائتى ألف بيت ، وستمائة مسجد (بين كبير وصغير) ، وخمسون مستشفى للمرضى وثمانون مدرسة عامة وتسعمائة حمام سوقى ووصل عدد ساكنيها إلى المليون . يعد مسجدها الكبير- الذى ما يزال باقيا- من أكبر المساجد فى العالم الإسلامى حيث استغرق بناؤه ما يزيد على قرنين ، بدأه عب الرحمن الداخل (صقر قريش) وظل خلفاؤه يزيدون عليه وبالطراز نفسه، وقد ضم المسجد ٣٨ صحنا فى جانبه الأيمن ، و٢٩ صحنا فى جانبه الأيسر، والأعمدة التى ما تزال باقية حتى اليوم هى ألف ومائتا عمود من الرخام وله من الوجهة الجنوبية ١٩ بابا مبطنة بصفائح من نحاس التوج (النحاس الذى تصنع منه المدافع) وتتدلى من سقوفه أربعة آلاف وسبعمائة قنديل كان يصرف لها أربعة وعشرون ألف رطل من الزيت سنويا ومائة وعشرون رطلا من العنبر والعود ، ومساحة المسجد الكلية ١٢١٨٩ مترا مربعا.

كانت شوارع وحارات قرطبة جميعها مضاءة ليلا ومطيبة بما يلقى فيها من الزهور ، واشتهرت مدارسها الجامعة شهرة طبقت الآفاق حيث تخرج فيها عدد لايحصى من فحول العلماء فى كل علم وكان بها دار للكتب تحتوى على ستمائة ألف مجلد.

من أعلامها عدد لايحصى من الرجال الأفذاذ يأتى فى مقدمتهم أبوبكر ابن سعدون بن تمام الأزدى القرطبى أحد الأئمة المتأخرين فى علوم القرآن والحديث والنحو واللغة وغيرها.

سقطت قرطبة عندما تمزقت الأندلس إلى دويلات عام ١٢٣٦م.

بطليوس :

اختلف المؤرخون حول بطليوس Basdajoz بعضهم قال إنها كانت مدينة صغيرة تحمل اسم «باداخوس» فأطلق عليها العرب اسم «بطليوس» وبعضهم قال إنها لم يكن لها وجود فى الأصل - كمدينة - لكن العرب هم الذين بنوها على إثر فتحهم لشبه جزيرة أيبيريا بعد أن كانت قرية ضئيلة الشأن، ولم تكتسب أهميتها إلا فى القرن الخامس الهجرى فى عصر دول الطوائف حيث أصبحت عاصمة لمملكة بنى الأفطس . وساعدها موقعها الجغرافى الاستراتيجى فى السيطرة على الكثير من المدن الصغيرة والقرى والحصون والقلاع والمزارع الشاسعة، وهى تقع على الضفة اليسرى من نهر وادى يانه (الذى يسميه الإسبان الآن وادى آنه Guadiana) على بعد سبعة كيلو مترات من حدود البرتغال الحالية.

نمت بطليوس بسرعة فأصبحت واحدة من المدن الست الكبرى فى الأندلس- بجانب قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وغرناطة وبلنسية- وآلت إلى المرابطين بعد عبورهم البحر وانتصارهم على ألفونسو السادس Alfonso VI الذى كان يأخذ الجزية من حكام الطوائف ، ثم حكمها الموحدون من بعدهم ، ولما ضعف أمر هؤلاء الأخيرين تعرضت للفتن والقلاقل فتولى أمرها عدد كبير من المغامرين الذين لم يكن الواحد فيهم ينظر إلى أبعد من أنفه، فهاجمها ملك البرتغال ألفونسو الأول هنريكيث Alfonso Henriquez I عام ١١٦٨م وضمها إلى مملكته، لكن الملك الإسبانى الكاثوليكى فرناندو Fernando ملك ليون León طرده وضمها إلى مملكته، وكان الموحدون وقتذاك فى أواخر صحوتهم ، فحشدوا حشودهم واستعادوها، لكنها سقطت السقوط النهائى عام ١٢٣٠م.

فى العصور الحديث مرت بطليوس بأحداث كثيرة حيث تبادلتها أيادى البرتغاليين والإسبان والفرنسيين والإنجليز، وحين دخلها الإنجليز - وكان قائدهم دوق ولنجتون الذى انتصر على نابليون فى معركة واترلو- ارتكبوا فى بطليوس مذبحة خلت على أثرها المدينة من سكانها وأصابها التدمير ولذا فهى الآن لاتكاد تذكر.

من أشهر أعلامها محمد بن عبدالله بن السيد البطليوسى النحوى الفيلسوف ، وأبو محمد عبدالله بن أحمد صاحب كتابى «الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب»، «الإنصاف فى التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف»، كذلك له كتاب «شرح موطأ مالك» ، وإبراهيم بن محمد البطليوسى الأديب اللغوى.

رنـــده :

رنده Ronda من حصون الأندلس الجنوبية ، تقع فى شمال الجزيرة الخضراء ما بين مدينتى مالقة Málaga وإشبيلية Sevilla وعلى بعد ٤٣ ميلا من الأولى، وتطل على نهر وادى آره (أو وادى اللبن Guadalevin كما أسماه العرب) ويمر بها اليوم الخط الحديدى الذى ينتهى جنوبا إلى الجزيرة الخضراء بالقرب من جبل طارق.

حينما دبت الفوضى فى الأندلس استقلت رُنده تحت حكم بنى نور ، ولكن لخطورة موقعها الاستراتيجى طمع فيها حكام إشبيلية فدعوا حاكمها إلى زيارتهم ولما جاء غدروا به واستولوا عليها.

كادت تسقط رندة تحت حكم القشتاليين لولا أن أنقذها المرابطون فى القرن الخامس الهجرى ثم آلت إلى الموحدين . ولما قامت دولة بنى الأحمر فى جنوب الأندلس أصبحت من أهم حصونهم الاستراتيجية حيث تقع على رأس حائط صخرى يهوى إلى عمق ٥٣٠ قدما- وتعبر هذا الوادى السحيق حاليا ثلاث قناطر يرجع تاريخ الأولى إلى العصر الرومانى، والثانية إلى العصر العربى الإسلامى والثالثة بناها الإسبان فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى- وظلت رُنده تابعة لمملكة غرناطة التى انقسم أهلها إلى فرق وأخذوا يقاتلون بعضهم بعضا ، سقطت تحت قبضة القشتاليين عام ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) قبيل سقوط غرناطة ذاتها بسبع سنوات.

ما تزال آثار العمارة الإسلامية تشاهد فى الحى العربى القديم من المدينة، أشهرها المسجد الجامع الذى يتميز ببابه البديع الصُنع . ومنذ فترة وجيزة تم اكتشاف قاعة مطمورة جدرانها كأنها من المرمر حفرت عليها صورة الفتح من أولها إلى آخرها.

من أعلامها صالح بن شريف الرندى صاحب أشهر قصيدة فى رثاء الأندلس وبكاء المدن الأندلسية التى سقطت فى قبضة الملوك الكاثوليك ، منتقدا فيها أولئك الراتعين وراء البحر فى دعة، ومطلعها :

لكل شئ إذا ما تم نقصان ... فلايغر بطيب العيش إنسان

هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لاتبقى على أحد ... ولايدوم على حال لها شأن

يمزق الدهر حتما كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان

وينتضى كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذى يزن والغمد غمدان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان
أين ما شاده شداد فى إرم وأين ما ساسه فى الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لامرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

* * *

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان فى القلب إسلام وإيمان

سرقسطة :

Zaragoza تعد الآن المدينة الإسبانية الخامسة من حيث عدد السكان وهى عاصمة الإقليم الذى يحمل نفس الإسم . تقع عل جانبى نهر إبرو Ebro على ارتفاع ١٨٤ مترا عن سطح البحر.

فتحها المسلمون عام ٩٤هـ (٧١٢م) على يد موسى بن نصير بعد وصوله إلى طليطلة وعرفت عند العرب والمسلمين باسم الثغر الأعلى بسبب موقعها الاستراتيجى، كما عرفت باسم المدينة البيضاء لبياض أسوارها .

فى العصر العربى الإسلامى كانت واحدة من المدن الست الكبرى فى الأندلس، وبسبب موقعها الدقيق - حيث تجاور ثلاث ممالك إسبانية- كانت محل عناية الخلفاء الأمويين. وذات مرة طمع فيها الإمبراطور الفرنسى شارلمان فزحف عليها بجيش وباغتها، ولكنها قاومته بشراسة لم يتوقعها ولما سمع بأن عبد الرحمن الداخل- صقر قريش- وصل بكتائبه لمنازلته ، انسحب وفى حلقه غصة.

فى أيام عبد الرحمن الناصر- أقوى حكام الأندلس- كانت هى القاعدة التى يقود منها جيوشه لتأديب الممالك الإسبانية والفرنجية التى كانت - قبل توليه الخلافة- تشن الغارات على القرى التابعة لسرقسطة فتنهب الأموال وتأسر الزارعين فى حقولهم ، وانتهى الأمر فى أيامه بإخضاع هذه الممالك المعتدية جميعها وإرغامها على دفع الجزية، بل إن هذه الممالك لم تكن تولى عليها ملكا إلا بعد استئذانه فإن لم يوافق عليه رشحت غيره.

فى عصر الخلافات استقلت سرقسطة تحت قيادة «ابن هود» الذى يعتبره المؤرخون أحد المسئولين عن نكبة الأندلس ، فبدلا من أن يحافظ على حدوده، حالف الممالك القشتالية والأرجونية ضد إخوانه من حكام الطوائف فعم الخراب سرقسطة والبلاد التابعة لها.

من أشهر أعلامها أبو الطاهر إسماعيل بن خلف بن عمران الأنصارى السرقسطى صاحب كتاب «العنوان فى القراءات» .

شذونــة :

Cidonia تقع فى الجنوب الشرقى لميناء قادش Cádiz وقريبة من جبل طارق، وعلى تل يشرف على وادى نهر ياش.

اشتهرت فى التاريخ العربى بإنها من البلاد التى تتبع مملكة غرناطة ، لكنها استمدت شهرتها فى التاريخ الإسبانى بأن جرت عندها المعركة الأولى والحاسمة بين العرب والقوط والتى يسميها المؤرخون العرب «معركة سهل شريش» أو «معركة البرباط» ، ويسميها الإسبان «معركة شذونة».

بدأت هذه المعركة فى ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ (٧ يوليو ٧١١م) ودامت سبعة أيام. وكان الجيش المسلم قد عبر فى ٥ رجب (٢٧ أبريل) بقيادة طارق بن زياد واخترق ولاية الجزيرة الخضراء وهزم حاكمها «تدمير» القوطى، كما هزم الجيش الذى أرسله الملك لذريق بقيادة أديجو، وتابع طارق سيره شمالا بغرب ، وهناك على السهل الواقع شمال شذونة التقى طارق بالجيش القوطى الكبير الذى قدره المؤرخ الإنجليزى «جيبون» بتسعين ألفا بينما كان الجيش العربى يتألف من ١٢ ألفا منهم خمسة آلاف أمد طارقا بها والى أفريقيا موسى بن نصير. وتذكر رواية عربية متأخرة أن طارقا قبل أن تنشب المعركة خطب فى رجاله مُستحثًا عزائمهم بقوله : «أيها الناس .. أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم» . كما تذكر الرواية أن طارقا أحرق السفن التى عبر عليها بجيشه ، بيد أن الروايتين موضع شك بين المؤرخين.

وتذكر الرواية العربيـة- وتؤيدها الرواية الإسبانيـة- أن لذريق خاض المعركة فوق عربة ملوكية فاخرة لابسا تاجه متشحا بالحرير متحليا بالذهب واللؤلؤ متكا على كرسى من العاج. وبعد مناوشات دامت ثلاثة أمام، بدأت المعركة العامة فى اليوم الرابع، ولم يلبث أن دب الاختلال فى صفوف القوط وانتهت المعركة فى اليوم السابع بهروب الملك لذريق الذى لم يعرف أحد مصيره ، وإن مالت أكثر الروايات إلى أنه غرق فى أحد الأنهار، بعد أن تشتت قواته، وبمعركة «شذونة» هذه سقطت دولة القوط التى استعمرت إسبانيا لثلاثة قرون ، وانفتح الطريق أمام طارق صوب طليطلة عاصمة الدولة القوطية.

http://al-maktabeh.com

ظلت شذونة - التابعة لمملكة غرناطة- عربية إسلامية إلى ما قبيل سقوط غرناطة بشهور قليلة.

الجزيرة الخضراء :

الجزيرة Algeciras هى الآن ميناء إسبانى ما يزال يحتفظ باسمه العربى. تقع على خليج جبل طارق Gibraltar وتقابل ميناء «جبل طارق» على الضفة الأخرى من الخليج- الذى يدخل فى الشاطئ الإسبانى كاللسان- وتتبع إقليم قادش Cádiz.

اشتهرت فى تاريخ فتح العرب للأندلس بأنها أول مدينة يفتحها «طريف بن مالك» عام ٩١هـ (٧١٠م) بعد عبوره البحر من ميناء سبتة إلى الأندلس إبان حملته الاستكشافيه . وفى العالم التالى دخلها طارق بن زياد وفتح الإقليم كله وكان يحكمه «تدمير القوطى» عامل «رودريجو» - الذى يسميه العرب «لذريق» ، ومنها سار طارق إلى وادى شريش Jerez حيث جرت المعركة الفاصلة بين المسلمين والقوط، وفى رمضان ٩٣هـ (٧١٢م) نزل موسى بن نصير الجزيرة الخضراء بجيشه وزحف نحو إشبيلية .

تردد اسم الجزيرة الخضراء فى كتب التاريخ فى جميع الفترات التى احتاجت فيها الأندلس إلى نجدات من المغرب حيث كانت المعبر لجيوش المرابطين والموحدين ودولة بنى مرين وغيرهم، وظلت فى يد العرب لسبعة قرون .

بنبلونة :

بنبلونة Pamplona هي عاصمة لمقاطعة تحمل اسمها نفسه وتقع فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة بالقرب من جبال البرانس Los Pirineos التى تفصل إسبانيا عن جنوب فرنسا ، وهى على نهر أراج Arga أحد فروع نهر إبره Ebro وعلى مسافة يسيرة من ميناء سان سباستيان .

فتحها العرب عام ١٢٠هـ (٧٣٨م) فى خلافة هشام بن عبد الملك وحكمها المسلمون اثنتى عشرة سنة ثم سقطت فى قبضة أمراء مملكة نبره Navarra الإسبانية بمساعدة الإمبراطور الفرنسى الشهير «شارلمان» لكن العرب لم ينقطعوا عن محاولة استردادها ، فأعاد فتحها محمد بن عبد الرحمن فى عهد أبيه عبد الرحمن الأوسط عام ٢٢٩هـ بعد معركة ضارية سقط فيها جارثيا الأول Garcia حاكم نبره . لكن النباريين احتلوها مرة أخرى، فقام محمد بن عبد الرحمن بغزوها بنفسه بعد توليه الخلافة عام ٢٤٧هـ ، لكنه لم ينجح فى استردادها فغزاها عام

٢٥١هـ بعد أن هزم المنذر بن محمد عام ٢٦١هـ ، لكن الذى أعاد فتحها هو محمد الناصر عام ٣٠٨هـ بعد أن هزم قوات نبره والبشنكس، وظلت مدينة إسلامية إلى أن ضاعت فى عصر الطوائف.

طرطوشة :

Tortosa تقع فيما بين بلنسية Valencia وسرقسطة Zaragoza فى شرق الأندلس وكانت محل نزاع بين دول الطوائف الثلاث: بلنسية وسرقسطة وقرطبة فلم تفز بها واحدة منها ، لكنها سقطت فى يد ملك أراجون عام ٥٤٣هـ هى وسائر الحصون والقرى التى تتبعها .

بعض الروايات التاريخية تقول إن مملكة أراجون Aragón لم تصبح ذات شأن إلا بعد استيلائها على طرطوشة الغنية بمزارعها وحركتها التجارية الواسعة حيث يفد إليها التجار ويسافرون منها إلى جميع الأمصار ، سيما وأنها تقع على نهر إبرو Ebro وقريبة من البحر المتوسط وتتبعها عشرات القرى ذات المساحات الزراعية الواسعة.

من أعلامها أحمد بن سعيد بن ميسرة الغفارى الأندلسى الطرطوشى، وأبوبكر بن محمد بن الوليد بن خلف الفهرى الطرطوشى الفقيه المالكى المعروف بابن أبى زندقة الذى هاجر إلى الإسكندرية وعليه تفقه الكثير من أهلها.

سلمنقة :

Salamanca مدينة قديمة عرفها العرب باسم «سلمنقة» و«سلمنكة» و«طلمنكة» ، تقع على الضفة الشرقية لنهر تورميس Tormes أحد روافد نهر دويره Duero، وتربطها بالضفة الغربية قنطرة حجرية ترجع إلى العصر الرومانى.

فتحها العرب بعد دخولهم الأندلس، ولكن لم يلبثوا أن تخلوا عنها فى جملة ما تخلوا عن مواقع فى أقصى الشمال من شبه جزيرة إيبيريا ، ولهذا فإن الأثر العربى فى هذه المدينة يعتبر ضئيلا.

من القلائل الذين ينسبون إليها: أبو عمر الطلمنكى وكان من مشاهير علماء القراءات فى الأندلس.

تشتهر الآن بجامعتها التى أنشأها ألفونسو التاسع Alfonso LX .

مرسية :

Murcia مرسية تقع على الطرف الشرقى الجنوبى وتطل على ضفاف نهر شقورة Segura.

من أهم أعلامها : الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى الذى ولد فيها عام ١١٦٥م ، وأبو العباس المرسى الذى ولد عام ١٢١٩م ، فى مرسية التى ينسب إليها ببلاد الأندلس ، ثم بعد ذلك انتقل إلى تونس ليكون ثانى خلفاء الطريقة الشاذلية ثم استقر به الأمر فى الإسكندرية ، وهو فى طريق عودته من بلاد الحجاز، إلى أن توفى ودفن بها حيث مسجده المعروف بالأسكندرية . وهو خليفة أبى الحسن الشاذلى.

دانيـة :

دانيـــة Denia حاليا قصبة الناحية الشمالية الشرقية من كورة «لقنت Alicante» بإسبانيا. تقع على الطرف الجنوبى الشرقى من خليج بلنسية Valencia .

فى بداية الفتح العربى الإسلامى كانت مدينة صغيرة تتبع طليطلة Toledo ، لكن شأنها ارتفع بعد تمزق الأندلس حيث حكمها أبو الجيش مجاهد- أحد موالى عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر- وأسس فيها دويلة صغيرة تُعرف فى التاريخ العربى الإسلامى باسم «دولة دانية» ظلت لثلاثة قرون تقريبا ، ثم جرى عليها ما جرى لغيرها حيث تداولتها أيدى المرابطين والموحدين ، ثم آلت إلى حكم المغامرين ممن كانوا يخالفون حكام الممالك الإسبانية ضد إخوانهم العرب المسلمين، فسقطت قبيل سقوط غرناطة بقرن ونصف القرن تقريبا.

من أشهر علمائها الحافظ بن عمرو بن سعيد الدانى.

مدينة سالم :

Medinaceli تقع فى الشمال لإسبانيا ما بين مدريد فى الغرب وسرقسطة فى الشرق، أقيمت على هضبة يبلغ ارتفاعها نحو ألف متر ولهذا كانت أهميتها الاستراتيجية .

ترجع آثارها إلى العصر الرومانى وقد أطلق عليها العرب «الثغر الأوسط» لقيامها بحماية المدن الإسلامية المجاورة لها من الغزو القشتالى فى الشمال . جدد أسوارها وقلعتها غالب بن عبد الرحمن قائد الخليفة عبد الرحمن الناصر عام ٣٣٥هـ ، وتداولتها أيدى المسلمين والنصارى عدة مرات فى فترات التمزق ، وكان قد توفى بها المنصور بن أبى عامر عام ٣٩٢هـ . وفى رواية عربية أن ألفونسو السادس بعد أن استولى على طليطلة عام ٤٧٨هـ ثم على مدينة سالم بعدها ، نصب سريره على قبر المنصور بن أبى عامر تفاخرا منه بانتصاراته على العرب !!

من أعلامها أبو الحسن على بن خلف السالمى مؤلف «شذور الذهب فى الكيمياء» ، وأبو عامر بن أحمد البلوى السالمى مؤلف «درر القلائد وغُرر الفوائد» فى اللغة.

شاطبة :

Játiva تقع فى شرق الأندلس بمقاطعة بلنسية واشتهرت بصناعة الورق. كانت بحكم موقعها الحربى حصنا من أهم الحصون الأندلسية ، ولذلك فإنها ألفت مع بلنسية Valencia- فى عصر الفتنة ودول الطوائف- جزءا من إمارة مستقلة بدأت على يد عبد العزيز حفيد المنصور بن أبى عامر، ثم تعرضت لهجمات مكثفة من خايمى الأول Jaime I ملك أراجون Aragón منذ عام ١٢٣٩م وظلت تقاوم حتى أواخر عام ١٢٤٧م.

ما تزال آثار حصنها وسورها باقية إلى اليوم.

من أعلامها المحدث الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى ، صاحب كتاب «الموافقات فى أصول الأحكام».

قادش :

Cádiz تقع فى جنوب غرب الأندلس ، وهى ميناء على المحيط الأطلنطى وكانت قاعدة بحرية للأساطيل العربية.

دخلها الإسلام مع فتح طارق بن زياد للأندلس وتعربت منذ عام ٧١٣م وسقطت فترة تمزق الأندلس عام ١٢٦٢م، ولاتزال بها آثار عربية إسلامية، ومن أعلامها الكامل بن أحمد بن يوسف الغفارى القادشى.

قلعة أيوب :

Calatayod مدينة جليلة القدر بالنسبة للمدن الأندلسية ، حيث كانت تقع فيما بين ما يسمى بـ «الثغر الأعلى» (وكان كل ما ينسب إليها يسمى بالثغرى) وهى من أعمال سرقسطة (عاصمة شرق الأندلس) كثيرة الأشجار والأنهار والمزارع ولها عدة حصون وبالقرب منها مدينة لبلة.

من أعلامها محمد بن قاسم بن حزم ، ومحمد بن نصر الثغرى وكلاهما من أهل اللغة والأخبار. والمدينة تنسب إلى أيوب بن حبيب اللخمى.

أوريوله :

أوريوله Orihuela من المدن التى تقع شرق الأندلس وتكاد تلاصق مدينة مرسية Murica حتى إن بساتينها متصلة ببساتين مرسية التى كانت عاصمة شرق الأندلس. فتحها عبد العزيز بن موسى عام ٧١٤م وظلت مدينة إسلامية حتى الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادى حيث استولى عليها ملك أراجون Aragón خايمى الأول Jaime I .

من أعلامها خلف بن سليمان بن خلف بن محمد فتحون الأوريولى الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب «الشروط» ، وابنه محمد بن خلف الذى كان معنيا بالحديث وله كتاب بعنوان «الاستلحاق».

طريف :

Tarifa تقع فى مقاطعة قادش وهى ميناء بحرى محصن على مضيق جبل طارق، وتعد أقصى مدن القارة الأوربية فى الاتجاه الجنوبى.

أخذت طريف اسمها من القائد العربى «طريف بن مالك» الذى قاد فرقة استكشافية قبل عبور طارق بن زياد بجيشه بشهور قليلة.

كانت طريف أحد المعابر الرئيسية بين الشاطئ المغربى والشاطئ الأندلسى طوال الحكم العربى الإسلامى فى شبه جزيرة إيبيريا .

سقطت قبيل سقوط غرناطة - آخر المعاقل العربية فى الأندلس- بفترة وجيزة .

طلبيرة :

Talavera من أعمال طليطلة ، مدينة كبيرة قديمة البناء تقع على نهر تاجه Tajo، كانت حاجزا بين المسلمين والإفرنج إلى أن استولى عليها الإفرنج، وكان قد جرى عليها الخراب فاستعادها عبد الرحمن الناصر الأموى وجدد أسوارها، ولطبيرة حصون ونواح عدة تتبعها، سقطت قبيل سقوط طليطلة بقليل فى أواخر القرن الخامس الهجرى.

مجريط :

Madrid تعرف الآن باسم «مدريد» عاصمة إسبانيا. لم يرد لها ذكر كثير فى العصر العربى الإسلامى إلا على أنها حصن عربى صغير أقامه العرب على أحد روافد نهر التاجه El Tajo وسقط فى قبضة القشتاليين عام ١٠٨٣م ، وظلت مجرد حصن صغير حتى أواخر القرن السادس عشر الميلادى حين نمت بسرعة وتطورت لتصبح عاصمة إسبانيا.

من أعلامها الرياضى والفلكى أبو القاسم مسلمة المجريطى الذى ولد عام ٩٥٠م وترجمت بعض مؤلفاته فى الحساب والهندسة إلى اللغة اللاتينية.

منورقة :

Menorca واحدة من الجزر التى يطلق عليها الإسبان الآن «جزر البليار» Islas Baleares وكان العرب يسمونها - هى وثلاث جزر أخرى- الجزائر الشرقية.

http://al-maktabeh.com

تقع شرق الأندلس فى البحر المتوسط ومساحتها سبعمائة كيلو متر مربع، فتحها العرب فى الفترة التى فتحوا فيها شرق الأندلس (القرن الأول الهجرى) وهى ثانى جزر البليار - بعد «ميورقة Mallorca» - وكانت مقر الأسطول العربى الأندلسى . وتنازع الجزيرة أكثر من حاكم فى الفترة التى أعقبت وفاة المنصور بن أبى عامر وعرفت بفترة حكام الطوائف، لكنها اشتهرت فى عصر حاكمها «مجاهد العامرى» الذى كان يملك أسطولا كبيراً غزا به جزيرة سردينيا الفرنسية وضمها إلى مجموعة الجزر.

تنتج «منورقة» الحبوب وزيت الزيتون والكتان وتربى الماشية وبها آثار كثيرة ترجع للعصرين الرومانى والعربى.

سقطت قبيل الفترة التى سقط فيها شرق الأندلس . وفيما بعد كان موقع الجزيرة محل نزاع فى القرن الثامن عشر حيث استولى عليها الإنجليز ثم احتلتها فرنسا ثم الإنجليز ففرنسا مرة أخرى وأعطيت لإسبانيا نهائيا منذ عام ١٨٠٢م.

طريانة :

Triana حاضرة أندلسية من حواضر إشبيلية - أى المدن الصغيرة التى تتبعها- فتحها موسى بن نصير فى العام الذى فتح فيه إشبيلية (٩٤هـ) وفى منتصف القرن السابع الهجرى استولى عليها الملك القشتالى فرناندو الثانى عند استيلائه على إشبيلية.

ينسب إليها الفقيه عبد العزيز الطريانى الذى كان نحويا بارعا قرأ على أبى ذر مصعب بن محمد بن مسعود ، قرأ عليه الفتح بن عيسى القصرى.

لشبونة :

Lisboa هى الآن عاصمة البرتغال وكان العرب يطلقون عليها اسم «الأشبونة» قريبة من المحيط الأطلنطى وتقع على نهر «التاجه» El Tajo. فتحها العرب عام ٩٣هـ (٧١١م) وظلت تحت الحكم الإسلامى إلى أن استولى عليها الفونسو الأول عام ٥٤٢هـ (١١٤٧م) وحاول سلطان الموحدين أبويعقوب يوسف استردادها عام ٥٨٠هـ (١١٨٤م) لكنه لم يتمكن .

لاتزال لشبونة (أو الأشبونة) تحتفظ بالكثير من أسمائها العربية محرفة.من آثارها الإسلامية الباقية القلعة العربية وبقايا مسجدها الجامع.

من أعلامها أبو إسحاق إبراهيم بن هارون المصمودى ويعرف بالزاهد الأشبونى (توفى سنة ٣٦٠هـ) .

(٤)

شخصيات أندلسية

موسى بن نصير :

أحد أبطال الإسلام ، ومن أشهر قواده العظام الذين ساهموا بنصيب وافر فى الفتوحات العربية الكبرى، ويقترن اسمه بفتح بلاد المغرب والأندلس.

ولد موسى بن نصير سنة ١٩هـ (٦٤٠م) فى خلافة عمر بن الخطاب بوادى القرى. وكان أبوه نصير قائما فى حرس معاوية بن أبى سفيان . وقيل إنه كان وصيفا لعبد العزيز بن مروان، فأعتقه ، وأصبح موسى بن نصير مولى لعبد العزيز بن مروان . وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملا على العراق مع بشر بن مروان، ثم أخذت عليه بعض مآخذ ، وعتب عليه عبد الملك بن مروان وأراد قتله، فافتداه منه عبد العزيز بن مروان والى مصر بمال، وأجاره، وجعله فى قصره لما شاهده من لباقته وحسن تصرفه وحكمته .

وكانت بلاد المغرب قد تم فتح أغلبها بفضل جهود عقبة بن نافع الفهرى وأبى المهاجر دينار وزهير بن قيس البلوى وحسان بن النعمان الغسانى، ولم يبق منها سوى المغرب الأقصى . فلما توفى حسان بن النعمان ٧٨هـ (٦٩٧م) ، ولي عبد العزيز بن مروان موسى بن نصير على إفريقية (تونس)، وما يليها سنة ٧٩هـ (٦٩٨م) . فتوجه إليها على رأس جيش من وجوه العرب، وجند من أهلها ممن يتصف بالقوة والجلد، وجعل فى مقدمتهم طارق بن زياد. فأخذ يقاتل البربر، ويفتح بلادهم ومدائنهم ، ويبعث بغنائمه إلى عبد العزيز بن مروان والخليفة عبد الملك . حتى زال ما كان يحمله الخليفة عليه فى نفسه من ضغائن وأحقاد. فلما توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ (٧٠٥م) ولى الخلافة بعده ابنه الوليد، وبلغه ما تم من فتوح فى المغرب على يدى موسى بن نصير ، فعظمت منزلة موسى عنده، واشتد عجبه به.

ولم يزل موسى يفتتح مدن المغرب الأقصى، حتى بلغ طنجة - قصبة بلاد المغرب وأعظم مدنه ، فحاصرها حتى افتتحها وأقام عليها قائد جيشه طارق بن زياد. واستعصت عليه مدينة

سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر، وكان يحكمها من قبل البيزنطيين حاكم اسمه جوليان Julián، ويطلق عليه العرب يوليان.

ترك موسى قائده طارق على حصار سبتة برا، وعاد إلى مدينة القيروان، قاعدة المسلمين بالمغرب، وأخذ ينظم البلاد، ويعمل على نشر الإسلام بين البربر.. فنجح فى آن واحد، إذ ضمن انتقال أمة البربر إلى الدولة العربية عن طريق الاستعراب واعتناق الدين الإسلامى.

ثم حدث أمر لم يكن فى الحسبان، إذ قام بين الكونت جوليان (يليان) ورودريجو (لذريق). ملك إسبانيا القوطية، عداء دفع جوليان إلى تحريض العرب على غزو إسبانيا. وقيل إن سبب نقمة جوليان على رودريجو ملك القوط فعلة شنيعة فعلها بابنته فلوريندا.. فقد كانت العادة وقتئذ أن يرسل الآباء بناتهم إلى بلاط الملك بطليطلة للتأدب والتهذيب وتعلم آداب الملوك. وكان جوليان قد بعث ابنته «فلورديندا» إلى بلاط رودريجو وفقًا للعادة المتبعة. وكانت فلوريندا بارعة الجمال، فوقعت موقعا حسنا فى عين رودريجو، فاستدرجها إليه واستنكرها.

وعلم جوليان بما حدث لإبنته، فغضب لذلك أشد الغضب، وأقسم على الانتقام من رودريجو انتقاما رهيبا. فأجاز إلى إسبانيا، وآثر أن يكتم ما بنفسه حتى يسترد ابنته. وذكروا أن رودريجو أنكر عليه مجيئه فى ذلك الوقت، فتعلل جوليان بقصة ابتكرها من وحى خياله: فقد ادعى أن زوجته فى أشد حالات المرض، وأنها تتلهف لرؤية ابنتها، وتلح فى ذلك إلحاحا متواصلا قبل أن يدركها الموت. فوافق على طلب جوليان استعادة ابنته.

وقيل أنه حين ودعه، قال له رودريجو: إذا قدمت علينا، فى المرة القادمة، فتخير لنا من الصقور التى لم تزل تطرفنا بها، فإنها آثر جوارحنا إلينا. فأجابه جوليان: أيها الملك، وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك صقورا ما دخل عليك مثلها قط، يعرض بالذى أضمره فى نفسه من السعى فى إدخال العرب إسبانيا، وهو لايفطن.

فما كاد يصل إلى سبته حتى مضى من فوره إلى موسى بن نصير سنة ٩٠هـ (٨٠٧م)، وأخذ يصف له حسن الأندلس ومزاياها، وما جمعت من صنوف المنافع والمرافق وطيب المزارع وتعدد الثمار وكثرة الأنهار، ويكشف له عن عوراتها ومواضع الضعف فيها، ويحرضه على فتحها، ويذلل له الصعوبات، ويهون عليه أمر فتحها. وعاهده أن ينضم إليه هو وعدد كبير من النبلاء، أصحاب الحق الشرعى فى ملك إسبانيا الذى اغتصبه رودريجو.

وكانت لهذه المقابلة آثارها فى نفس موسى بن نصير ، واطمأن إلى جوليان، ووثق بصدق ما حدثه به ... فبادر بالكتابة إلى الوليد بن عبدالملك بن مروان يستأذنه فى فتح إسبانيا ، فرد عليه الوليد قائلا : «خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولاتغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال ». فعاد موسى بن نصير إلى مكاتبة الخليفة، وذكر له «إنه ليس ببحر زخار» وإنما هو زقاق يستبين للناظر ما وراءه. فنصحه الوليد أن يختبرها بالسرايا قبل مغامرته .

عندئذ بعث موسى سرية مؤلفة من أربعمائة فارس من البربر، وأقام عليه مولى من مواليه البربر اسمه طريف بن مالك المعافرى، ويكنى أبا زرعة . ووضع جوليان سفنه فى خدمة موسى، فعبر طريف الزقاق فى أربع سفن ، ونزل بجزيرة يقال لها جزيرة طريف- وتسمى اليوم برأس طريف- Tarifa وأغار طريف على الجزيرة ، فأصاب غنائم وسبايا لامثيل لها .

فلما عاين موسى مدى نجاح الطليعة ، استجد عزمًا لفتح الأندلس ، وأعد جيشا مؤلفا من سبعة آلاف فارس منهم ثلاثمائة من العرب، وبقيتهم من البربر . وقيل إثنى عشر ألف فارس.

وألقى موسى أمر قيادة هذا الجيش إلى مولاه طارق بن زياد ، فهيأ جوليان له السفن اللازمة ومضى معهم. وعبرت السفن الزقاق فى رجب سنة ٩٢هـ (٧١١م) .

تقدمت الجيوش الإسلامية فى داخل الأندلس ، وتوالت غاراتهم على الجزيرة الخضراء Al-geciras. وكان رودريجو مشغولا وقتئذ بقمع ثورة بنبلونه Pamplona قام بها حزب أبناء الملك المخلوع . فلما بلغه الخبر عظم عليه الأمر. وبادر إلى ملاقاة العرب فى جيش عرمرم، تبلغ عدته نحو مائة ألف من ذوى العُدة والعدد. فكتب طارق إلى موسى يستمده، ويخبره بفتحه الجزيرة الخضراء واستيلائه على منطقة البحيرة ، وأن رودريجو زحف إليه بما لا قبل له به. فبعث إليه موسى مددا مؤلفا من خمسة آلاف فارس تقوى به جيش طارق.

ولما نجحت حملة طارق إلى حد بعيد، رأى موسى بثاقب فكره ضرورة ضم مدن غرب الأندلس، والاستيلاء على حصونها، خشية أن يقطع القوط خط الرجعة على طارق. فعزم على أن يقوم بهذه المهمة بنفسه، وعبر الزقاق فى شهر رمضان سنة ٩٣هـ (٧١٢م) على رأس جيش مؤلف من ثمانية عشر ألفا . وقيل أنه رغب فى أن ينال نصيبا من شرف الغزو، فأقدم على ذلك بدافع من الغيرة والحسد مما أصابه طارق من نجاح .

ونزل موسى فى جبل يعرف بجبل موسى، ودخل الجزيرة الخضراء وأتم فتح المدن التى لم يتيسر لطارق فتحها مثل «قرمونه» Carmona، وكانت من أحصن مدن الأندلس ، ثم مضى

إلى «إشبيلية» Sevilla، فامتنعت عليه أشهراً ثم فتحها، واتجه بعدها إلى «ماردة» Mérida فافتتحها صلحًا سنة ٩٤هـ (٧١٣م). وفتح «لبلة» والتقى مع طارق فى «طلبيرة» Talavera وتعاونا معًا على فتح بقية شبه الجزيرة .. فارتقيا الثغر الأعلى، وافتتحا «سرقسطة» Zara-goza و«برشلونة» Barcelona، وأوغلا فى البلاد حتى تم لهما فتح بقية إسبانيا معًا : فاتحا حصن «بارو» وحصن «لك» و«بنا السرايا» حتى بلغا صخرة «بلاى» على البحر الأخضر، وأشرفا من هناك على الأرض الكبيرة «فرنسا».

وخطر لموسى أن يعود إلى المشرق من ناحية القسطنطينية «ويتجاوز الشام دروبه ودروب الأندلس ، ويضم إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية، مجاهدا فيهما مستلحما لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة». ونمى الخبر إلى الوليد فبعث رسولا يأمره بالكف عن التوسع، ويستدعيه هو وطارق. فخاب أمل موسى فى اختراق ما بقى من بلاد إفرنجة ، واقتحام الأرض الكبيرة، حتى يصل إلى الشام . وقفلا عائدين إلى المشرق. وفى طريقهما مرا على إشبيلية ، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على الأندلس، واختار إشبيلية مقرا له لاتصالها بالبحر . واستخلف موسى على طنجة وما يليها من بلاد المغرب ابنه عبد الملك. واستخلف بإفريقية (تونس) أكبر أولاده عبدالله.

ويغلب على الظن أن نزاعا حدث بين موسى وطارق بشأن «مائدة سليمان» التى غنمها طارق من طليطلة ، وأنه تخاصم مع مغيث الرومى، رسول الخليفة الوليد إليه، إذ طلب منه مغيث أن يسلمه حاكم قرطبة القوطى الذى أسره مغيث عند فتحه لقرطبة ، فامتنع موسى وقتل الأمير القوطى . واتفق طارق ومغيث على الوشاية لموسى بن نصير عند الخليفة.

أدرك موسى دمشق، وقدم على الوليد قبل وفاته، وسلمه الطرائف التى غنمها المسلمون من الدر والياقوت والزبرجد والتيجان المكللة بالدر والياقوت والجواهر ، فأمر الوليد بضمها إلى بيت المال. وكان الوليد قد مرض مرضه الذى مات منه، وكتب إلى موسى يأمره أن يتعجل فى قدومه ليدركه قبيل الموت، وكتب إليه سليمان، أخو الوليد، ينصحه أن يبطئ فى سيره . وذكر له سليمان أن الوليد فى نزعه الأخير، ومن الخير أن ينتظر موسى وفاته حتى تؤول إلى سليمان الغنائم والتحف الأندلسية . فعمل موسى بكتاب الوليد، وجد فى سيره فغضب سليمان وأقدم على الانتقام من موسى أشد الانتقام . وما لبث أن مات الوليد. وآلت الخلافة إلى سليمان، فشكا إليه مغيث وطارق من موسى، وكيف قتل الأمير القوطى. وبالغ طارق فى وصف ما غنمه موسى من الجواهر، وقال : «إنه قد غل جوهرا عظيمًا أصابه، ولم تحز الملوك من بعد فتح فارس مثله». فزاد ذلك من حقد سليمان على موسى، واستقدمه أمامه ،

http://al-maktabeh.com

أمامه ، وعنفه وقال له : «والله لأفلن غربك ، ولأفرقن جمعك ، ولأضعن من قدرك» . إليك ، وبه استعين عليك ». فأمر به سليمان أن يقف فى يوم صائف شديد الحر- وكان موسى رجلا بدينا- فوقف حتى سقط مغشيا عليه، وأغرمه أموالا لاطاقة له بسدادها ، فافتداه يزيد بن المهلب بألف دينار. ولم يكتف سليمان بذلك، بل أراد أن يشفى غله من موسى، فدس إلى أهل الأندلس من قتل عبد العزيز بن موسى وهو يؤدى الصلاة فى جامع «ربينة» سنة ٩٥هـ ، وأحضر رأسه أمام أبيه .

ولت حال موسى إلى أن كان يطاف به ليسأل من أحياء العرب ، ليسد رمقه ومات وهو من أفقر الناس وأذلهم بوادى القرى سنة ٩٧هـ .

(٥)

رحيل أبى عبدالله مع أسرته وكبـار أتباعـه من الأندلـس

بدأت أسطورة حرب الاسترداد لمملكة غرناطة الإسلامية تسد بعض الثغرات الخاصة بالحقيقة التاريخية البالغة الدقة وفقًا لما يرد فى تضمين هذه الثقافة، باعتبار أن هذه الحرب تعد واحدة من الأحداث البارزة فى تاريخ العصور الوسطى.

وعند معالجة الموضوع المتعلق بدخول الملوك الكاثوليك إلى غرناطة GRANADA أشير إلى الخروج الفورى لأبى عبدالله مع أسرته وكبار أتباعه تجاه منطقة البشارات Alpujarras والتى تم الاعتراف بها بناء على معاهدة تسليم المدينة. ولقد وصل بى التفكير بالقبول بخروج أبى عبدالله بدون عائلته خارج غرناطة لتقديم واجب التكريم لأصحاب الجلالة يوم دخول القوات المسيحية إلى الحمراء Alhambra لأقول إنه كان من المؤكد أنه بمجرد الانتهاء من حفل المجاملة والطاعة كان عليه العودة على الفور إلى داره، قصر القصبة بالبيازين، وأن يواصل معيشته فيه لفسحة من الوقت، ربما لبضعة شهور حتى يأمره الملوك الكاثوليك ، وفقًا لسياستهم وما يتفق معها، بالإنسحاب نهائيًا إلى مواقعه فى البشارات ومن هناك يذهب أبو عبدالله محدداً إقامته فى لواخار دى أندراكس Laujar de Andarax، دون أن يدون التاريخ اللحظة الحاسمة التى ترك فيها قصره بالمدينة.

ومما لايقبل مجالاً للشك أن الملوك الكاثوليك لم يسعدوا بانسحاب أبى عبدالله إلى منطقة البشارات وإنما كانوا يرغبون بشدة بأن يغادر شبه الجزيرة الأيبيرية وأن يذهب إلى ما وراء البحار. وفى واقع الأمر أن الملوك الكاثوليك ، بحصافتهم وحكمتهم الدبلوماسية ، وصلوا إلى تنفيذ بنود اتفاقية تسليم غرناطة وأراضيها بالشكل الذى يسمح للملك أبى عبدالله وأفراد عائلته وأتباعه ، الكبار والصغار ، بالذهاب إلى ما وراء البحار- إذا رغبوا فى ذلك- إلى

الأسكندرية أو تونس أو وهران أو فاس ، وأنه فى إمكانهم بيع ممتلكاتهم التى فى حوزتهم وأن تكون الأولوية لأصحاب الجلالة فى الشراء وأنهم فى هذه الحالة سوف يرسلون له قيمتها فى أى وقت يشاء، وأن تجهز له السفن ووسائل النقل دون تحميله أى رسوم نقل أو شحن حتى يمكنه نقل الأشخاص وكل ما يخصه من ملابس وبضائع وذهب وفضه وجواهر وحيوانات وأسلحة على ألا تكون أسلحة تعمل بالبارود ، سواء كانت صغيرة أو كبيرة . بالإضافة إلى أن أصحاب الجلالة أصدروا أوامرهم بألا يتم تحصيل أى رسوم تتعلق بالابحار والإنزال تحت أى مسمى آخر وأن يتم ذهابهم فى أمان وكرم وعزة وحماية وأن يتم حسن معاملتهم فى أى ميناء من الأماكن المشار إليها والتى يفضلون أن تنزل بها السفينة التى تقلهم.

ومن المؤسف أن بدرو مارتير دى أنجليريا Pedro Martir de Angleria ، الذى استطاع أن يعرف جانبًا عن قرب وأن يعيش جانبًا آخر من الأحداث الرئيسية لحرب استرداد غرناطة ، أنه اقتصر على الإشارة الموجزة لرحيل أبى عبدالله، من بين الأخبار الأخرى التى تشكل محتوى واحدة من أهم وأمتع رسائله : « فى رسالة أخرى، يقول، عرفت بنفسى كيف تم إبعاده من المملكة، ملك غرناطة الشاب أبو عبدالله فى الوقت السابق. الآن فى قلعة أنداراكس جاء إلى الأراضى التى كانت قد مُنحت له من أسيادى الملوك الكاثوليك فى الجبال المجاورة التى يطلق عليها جبال نيفادا. لقد تم هذا ضد رغبته ، أو بمعنى أفضل، أشعروه بالخجل ، بالنسبة لأولئك الذين يشعرون بالفضول الكبير تجاه الأشياء الأخرى؛ وبالنسبة لى فهذا كاف (معرفته). وترك إسبانيا وانتقل إلى إفريقية لكونها سكن الملوك الضعفاء، ذلك الملك الذى كان كبيراً ومخيفًا لكل المواطنين الإسبان. وبهذه الطريقة تم إلغاء أى شبهة خيانة من جانب أولئك الذين يعيشون بعيدا عن القانون، إذ إنه نادراً ما أن يهتم بشغب وتمرد الشعب الذى تنقصه القيادات التى بموجبها يأمل أن يكون محكومًا ».

فى هذه الجمل المتعقلة والحصيفة والهامة التى أوردها بدرو مارتير ، والتى كان يكتبها على وجه التحديد من برشلونة حيث يعمل ملحقًا فى حاشية الملوك الكاثوليك ، يكشف لنا بوضوح كيف تدخل فى سياسة الملوك الكاثوليك مراعاة الرحيل المباشر والفورى- كما أشرت سلفًا- لأبى عبد الله إلى ما وراء البحار حيث يرون أن المناسب للغاية هو تجنب التمرد أو نشوب صراع جديد فى المملكة يودى إلى سفك الدماء وبذل التضحيات على كل المستويات.

ولقد ظهر هذا الاتجاه السياسى للملوك الكاثوليك فى إشارات المؤرخ هيرناندو دل بولجار Hernando del Pulgar عندما يعرض شروط استسلام غرناطة بقوله: «من بين الشروط

الخاصة باتفاقية التسليم المذكورة ، التى تمت، حدث أن الشاب مكث فى البشارات ليكون سيداً عليها فى حياته وأن يحصل على دخل يقدر بألف مسكوكة كل عام ؛ ولأن هذا كان يشكل خطراً للتمرد لما يلى ذلك، عندما جرح الملك فى برشلونه، أرسل الملك الشاب بعض الفرسان المسلمين من أتباعه وكذلك البقينى Pequini، الرجل الرئيسى الذى سُمىّ بعد ذلك بالسيد فرانسيسكو انريكيث Don Franciso Enriquez وتعاقد الملوك الكاثوليك مع هؤلاء الذين باع لهم الشاب كل ما كان يمتلكه فى مملكة غرناطة وأعطوه مبلغ ألف قشتالى الذى بموجبه ينتقل الملك الشاب إلى ما وراء البحار..».

وإلى جانب الثوابت السابقة ، يكفى قراءة الجزء المعروف من المراسلات التى تتعلق بحكم غرناطة خلال تلك الفترة التى استمرت بين الملوك الكاثوليك وسكرتيره هيرناندو دى صافرا Hernando Zafra حتى يتم التأكد، بما لايدع مجالاً للشك، من أن الهدف السياسى الذى اتبعه الملوك الكاثوليك هو الاهتمام بمغادرة أبى عبدالله شبه الجزيرة الأيبيرية في أقصر وقت ممكن وحتى يحل السلام فى مملكة غرناطة وأن تتجانس سياسيًا ودينيًا.

ولكن يجب أن نتساءل الآن : هل وصل الملوك الكاثوليك إلى إجبار أبى عبدالله على الرحيل إلى ما وراء البحار بوسائل قمعية صراحة أو بطرق فنية للإقناع أو بالإيعاز ؟ أو باستخدام نفس الأساليب التى اتبعها بدرو مارتير ؛ بمعنى هل نزح أبو عبدالله إلى ما وراء البحار ضد إرادته أم وجد أن هذا مناسب له ؟ وبدراسة البيانات المعروفة حول هذه النقطة ودون الحكم المسبق، يجب التفكير- كما أرى- فى أن أبى عبدالله وأقطابه المقربين ، وبعد تسليم مدينة غرناطة والتنازل جانبًا للشعور الدينى لكل مسلم طيب بعدم البقاء فى بلد تكون خاضعة لملوك لايدينون بعقيدة الإسلام وبالنظر فى نفس الوقت إلى أن عديداً من كبار المسلمين كانوا يستعدون للنزوح والهجرة ، وأن الذين مكثوا فى غرناطة بما كانوا يعتقدون وكانوا يخشون الملوك الكاثوليك بدأوا يظهرون تضاؤل ولائهم وتعاطفهم ، حسبما يؤكد هيرناندوا دى صافرا. وكما سنرى فيما بعد ، أن قرروا الذهاب إلى ما وراء البحار ليكون لهم المستقر فى فاس أو فى تونس حيث يُنتظر أن يلقوا الترحيب الأفضل. ومن ثم بدأت المناوشات والمداعبات مع أبى عبدالله وأتباعه انطلاقًا من رغبته فى القبول بما جاء فى فصول اتفاقية التسليم ولم تذهب هذه المحاولات سدى وخاصة حول مقترحاته لتسليم مدينة غرناطة . ولكن باهتمام وبرغبة الملوك الكاثوليك بشأن بيع ممتلكاته والتأكيد على الوفاء بصدق بشأن تنفيذ كل الامتيازات التى يعرضونها عليه حال رحيله وتنفيذ كل متطلباته، فإن الملوك الكاثوليك أخفوا رغبتهم وقرارهم بإظهار مقاومة جادة تعضد خططهم فى حال الضرورة.

والمؤكد أنه بعد الوقت القصير من استسلام مدينة غرناطة تحت سلاح الملوك الكاثوليك ، ظهرت على السطح مفاوضات جديدة مطولة وثقيلة قام بها نفس الأشخاص الذين تدخلوا فى عملية الاستسلام للمدينة وقد تمت إدارة هذه المفاوضات الجديدة بنفس الحكمة والدهاء.

وكان هيرناندو دى صافرا طرفًا من سادته الملوك الكاثوليك، كما حدث فى تسليم غرناطة، حيث كان هو محور المفاوضات الأخيرة وكان عليه أن يجتاز الصعوبات التى تواجه هذه المفاوضات عندما يقول: « ... لقد غادر أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك غرناطة فى ساعة مبكرة بعد استلامها وتركونى هناك وبعد ذلك فهمت وأدركت بكل الدهاء الذى أتمكن منه بمرور الملك المسلم إلى ما وراء البحار والاتفاق معه بأن أقدم له مبلغًا كبيراً من المال وجانبًا كبيراً من البغال وأشياء أخرى كان قد تركها الملوك الكاثوليك لديه وأنه تم سداد أجرة السفن التى أبحرت لأول مرة بصحبة جونثالو فرناندیث Gonzalo Fernandez ».

ومضت سبعة شهور على استلام غرناطة وشهرين على غياب الملوك الكاثوليك عنها، عندما أخبرت أصحاب الجلالة بعودة المليح، سكرتير أبى عبدالله المخلص، برسالة وجهها أبو عبدالله من فاس إلى الملك يطلب منه رغبته فى العودة للإقامة فى العاصمة . ويشير هيرناندو دى صافره أن خادم أبو عبدالله حمل رسائل من الملك بهذه المدينة إلى أبى عبدالله «يشهد فيها أنه سوف يستقبله بكل الرضا والسعادة مثل شخصه تمامًا » والشئ الذى يمكن التحقق منه أن أبا عبدالله وأتباعه أعربوا عن حبورهم بهذه الرسالة الجديدة. ولكن على الرغم من ذلك يعتقد هيرناندو دى صافره إلى أنه يوجد بعض الذين يؤيدون الذهاب إلى تونس بدلاً من فاس، وإن كان لم يؤكد ذلك بصفة قطعية حيث أن السيد خوان دى جرانادا Juan de Grena-da الذى كان فى إمكانه إعلامه بشكل دقيق حول هذا الموضوع لأن والده ابن قماشه Aben-comixa الذى كان يحدثه صراحة عن كل شئ كان قد توجه إلى البشارات لحضور حفل زواج أخته .

ومن المعتقد أن رسالة أبى عبدالله التى يشير إليها هيرناندو دى صافرا هى نفسها التى نسخها المقرى Almacari فى كتابه تاريخ الأدب لإسبانيا العربية ، باعتبارها رسالة اختطها الكاتب Catib ، الشاعر الأصيل صاحب الأسلوب اللامع والفصيح أبو الدلاله محمد Abu-adalala Mohamed ، ابن عبدالله العربى Abdala Alarbi. والرسالة هى مقالة مطولة مكتوبة فى جزء منها شعراً والجزء الثانى نثراً مسجوعًا والتى أمر بكتابتها ، حسب رواية المقرى، السلطان المخلوع أبو عبدالله المتوجه إلى سلطان فاس، الشيخ الجواطاسى Xeque Al-

guattasi وعنوانها «الحديقة التى تنشر عبيقها بسرور فى الروح، فى شفاعة قرب للسيد، الأمير، سلطان فاس».

وفى هذه الرسالة يتأسف أبو عبدالله فى نبرة حزينة وشكوى وتذمر من المصير الحزين الذى جناه من حظه العاثر، ومع ذلك فإنه قد ناضل ضد هذا المصير الذى أصابه بالإحباط واليأس. ومن بين «أقوال الحمد لله» والشكر لله و«الثناء على رسوله» مرات عديدة يطلب ويتوسل لدى سلطان فاس أن يمنحه كرمه وترحيبه المنتظر به ومن جانب ملوك بنى مرين، حيث ينسب حظه العاثر من جراء الغدر والخيانة إلى أنه أصبح هو الضحية وكذلك عمه الزغل Zagal وأنه يعترف بأنه يستحق ذلك كعقاب فُرِض عليه بسبب أخطائه وذنوبه وأنه يتوسل بمرارة إلى الله برحمته ليغفر له .

ومن هذه المقالة المؤلفة شعراً ونثراً ، لن أقوم بذكرها نظراً لطولها ، وإنما سوف أختار منها:

«سيد الملوك ، الملوك العرب والأغراب.

حماك الله وأسبغ رعايته لمن هم فى كنفك

وأنت الحامى من كرب الزمان نتوسل بحمايتك...»

ومن ثم يتضح ثناء المؤلف على صفات النبل والكرم والسخاء التى يتمتع بها سلطان فاس وأسلافه ملوك بنى مرين. وفى جزء النثر المسجوع يتوسل تكراراً ومراراً ويتأسف ويطلب العفو والرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى ويطلب الصفح من سلطان فاس بين تعبيرات الرجاء والأمل والألم والندم التى وردت فى أبيات الجزء الشعرى من الرسالة المذكورة.

وعلى الرغم من الرغبات التى يكشف عنها أبو عبدالله فى رسالته من حيث ذهابه للإقامة فى فاس عندما يغادر شبه الجزيرة الأيبرية، يبدو أنه لم يكن قد وصل إلى حل على أرض الواقع يسمح له بالذهاب إلى المدينة المذكورة فاس أو يفضل الذهاب إلى تونس. ويقول هيرناندو دى صافرا فى رسالة صادرة فى شهر سبتمبر ١٤٩٢م، أنه كان قد أخبر سادته بشأن نوايا أبو عبدالله الذى يفضل رحيله إلى طريق فاس على طريقه إلى تونس، وأنه لم يُعرف على وجه اليقين ما هو الرد الذى جاء بشأن المحطة الأخيرة له فى أى من هاتين المدينتين.

والشئ الواضح والأكثر يقينًا آنذاك هو أن أبا عبدالله كان يضمر، فى داخله ، مثله مثل أتباعه، الهدف فى الذهاب إلى ما وراء البحار، حيث أنه فى نفس هذه الرسالة المؤرخة فى سبتمبر، التى أشرت إليها منذ قليل، يعلن هيرناندو دى صافرا أصحاب الجلالة أن أبى

عبدالله وأمه وزوجته وأخواته كانوا يبيعيون بقدر استطاعتهم كل ممتلكاتهم ومتعلقاتهم وأن البعض كان يشتريها منهم، دون الأخذ فى الاعتبار أن هذه الأشياء كانت محجوزة لأصحاب الجلالة وفقًا للشروط العامة الواردة فى اتفاقية تسليم غرناطة.

ومن بين الممتلكات التى باعتها الملكات المسلمات تظهر الأماكن العامرة المهمة مثل بياس Beas وهويتور سانتييان Huetor Santillan والتى كان على الملوك الكاثوليك حظرها ومصادرتها والمطالبة بها وبكل الأشياء المذكورة والمعروضة للبيع.

وليس من المعروف التلميحات المضللة والخداعة ، التى لم تكن ذات صفة قمعية، التى استخدمها الملوك الكاثوليك من خلال وساطة سكرتيرهم هيرناندو دى صافرا ، بهدف إخماد الهمة لدى أبى عبدالله وأتباعه المقربين، حيث كان العزم والإصرار من جانب أصحاب الجلالة بأن يترك أبو عبدالله وأتباعه شبه الجزيرة. ومن الرسائل التى حررها سكرتير الملوك الكاثوليك يجب أن نفكر فى أن كل عمل قام به كان يهدف إلى منح العطايا والهبات، مثلما حدث فى تسليم غرناطة، إلى المقربين من أبى عبدالله وخاصة المليح والبقنى والوزير ابن قماشه والشروط Chorrut والقيسى Caisi لكى يدفعوا أميرهم أبو عبدالله على الرحيل الفورى إلى ما وراء البحار ومغادرة الأندلس وأنه إذا نفذ ذلك سوف ينعم بالعطايا والأفضال التى يقدمها له الملوك الكاثوليك بالإضافة إلى فوائد أخرى جديدة . ومن جانبهم فقد وافق اتباع أبو عبدالله على ذلك وأنهم، على الأقل، يحاولون بذل الجهد لتذليل أى صعوبات حتى يتمكنوا من تحقيق رغبات أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك والإثبات فى نفس الوقت أنهم على ولائهم وطاعة أميرهم أبو عبدالله .

ومن ثم نرى تبادل الرسائل بين أبى عبدالله وأتباعه من ناحية وبين الملوك الكاثوليك وسكرتيرهم هيرناندو دى صافرا من ناحية أخرى. ففى الثانى من أكتوبر من نفس العام (١٤٩٢) أبلغ هذا الأخير الملوك الكاثوليك أن أتباع الأمير عبدالله كتبوا له ونصحوه بأنه من الملائم كثيراً أن يرسل إليهم وإلى أبى عبدالله بالطريقة التى يراها وأن يبدى لهم شكره على الخدمات التى يقدمونها إليه وإلى الملوك الكاثوليك .

ومن المسلم به أن الملوك الكاثوليك كانت لديهم الرغبة الصادقة قبل رحيل أبى عبدالله وأتباعه أن يقدموا له ما تم الاتفاق عليه حسب شروط تسليم غرناطة وكذلك تقديم المساعدة بتدبير فرقة مسلحة ووسائل انتقاله إلى أفريقيا حتى يتمكن من أن يفرض سيادته على ولاية أو قطعة أرض بافريقيا. ولقد أدرك أبو عبدالله وأتباعه ذلك ضمنًا من خلال الرسائل المتبادلة

بين أصحاب الجلالة وهيرناندو دى صافرا وبين الفقهاء والأمراء المتواجدين فى بعض المناطق بساحل المغرب الذين وعدوا بتسليم الإمبراطورية إلى أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك .

ولكن من المعلوم جيداً أنه فى يوم ٧ ديسمبر ١٤٩٢، أصيب الملك فرناندو بجرح خطير فى برشلونه على يدى أحد من يعتقد أنه مجنون، ومن ثم فإن المفاوضات حول استعادة روسيليون Rosellón وسردينيا Serdania لم يتم التقرير فيها بالسرعة والاهتمام اللازمين وعليه أيضًا تم تأجيل وصول أصحاب الجلالة بالعودة إلى غرناطة آنذاك.

ورأى أبو عبدالله أن ذلك كان ضد ما كان يأمله وأن أصحاب الجلالة لن يكون فى مقدورهم المجئ إلى غرناطة ، أراد أن يتوجه إلى برشلونة للقائهم وجها لوجه وأن ينهى معهم الكتابة بالعدل الخاصة برحيله إلى ما وراء البحار ومغادرة الأندلس. وقد أبلغ هيرناندو دى صافرا أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك بنية وهدف الملك العربى المسلم أبى عبدالله فى الذهاب فى منتصف شهر يناير من العام التالى ١٤٩٣م، وقد أثبت ذلك فى ٢٧ من نفس الشهر بأنه سوف يعاود إبلاغهم بأن أبا عبدالله قرر القيام بهذه الرحلة خلال شهر فبراير التالى وأنه يتوجه بنفس النية والإرادة التى عرفوها عنه فى رسائله السابقة. ولكن الملوك الكاثوليك اعترضوا على رغبة أبى عبدالله بالذهاب إلى برشلونة بأن حرضوا هيرناندو دى صافرا على أن يجعل الملك العربى يتخلىّ عن هذه الفكرة وذلك فى الرسالة التى كتبوها له بتاريخ ٢٦ من نفس شهر فبراير يقولون له ، بالإضافة إلى أشياء أخرى ، أنه بالنسبة لمجئ أبى عبدالله وللموضوع الذى يرغب فى الحديث إليهم بشأن مغادرته الأندلس، أنهم يشكرونه كثيراً على ما فعل وأن كل شئ فى أحسن صورة ، وأنه نظراً لبعض الأمور لايرون أن مجئ أبى عبدالله مناسب لهم فى ذلك الوقت ، لأن هذا يعنى تأخير رحيله فى الذهاب والإياب من وإلى برشلونه، وأنهم يعتقدون أنه من الأفضل أن يتم التفاوض فى غرناطة بدلاً من برشلونه وأن الأمر يجب أن ينفذ بخصوص مغادرته الأندلس والكتابة إليهم بما يريد وما يجب عليه أن يفعله وأن يستشير كذلك الأسقف ويتشاور مع كونت تنديا Tendilla ومع الحاكم كالبرون Calderón .

وفى الوقت الذى أصر فيه الملوك الكاثوليك على رفض ذهاب أبى عبدالله إلى برشلونه عقدوا لقاء مع الوزير ابن قماشه ، وبعد هذا اللقاء بعشرين يومًا أى فى ١٧ مارس من نفس العام عقدوا معه اتفاقية مكتوبة بشأن رحيل سيده أبى عبدالله وعائلته وكبار أتباعه وخدامه.

والمثبت فى هذه الاتفاقية ، فى المقام الأول ، أن يرسل أبو عبدالله سكرتيره وخادمه ابن

قماشه بطلب الإذن من أصحاب الجلالة بالذهاب للمعيشة فيما وراء البحار، فى أراضى المسلمين، وأن يقترح عليه، كنتيجة لذلك، شراء الأقاليم والقطاعات التابعة لأندراكس An-darax ولوتشار Luchar التى كان لها عائد ودخل يقدر حسب تأكيده هو بمبلغ ٤٧٠٠٠ مثقال (المثقال وزنه نصف درهم آنذاك)، وكذلك أقاليم برجه Berja ومارتشينا Marxena التى كان عائدها ٥٠٠٠٠ مثقال وإقليم أوخيخار Ugijar الذى كان عائده ٢٢٠٠٠ مثقال وإقليم خوبيليس Juviles الذى كان عائده ٣٠٠٠٠ مثقال، وليكون إجمالى الدخل العائد لهذه الأقاليم ١٤٩٠٠٠ مثقال ودون أن يدرج فى هذا الدخل الرسوم على الميراث وأحكام القضاء ولا على ضريبة الخبز التى كانت تؤخذ على كل أرض محروثة ولا على أعداد الدجاج الذى كان يوجد فى بعض المناطق ولا على الأفران ولا على أنوال الحرير ولايتضمن الرسوم الخاصة بالأشياء الأخرى التى كانت بالمملكة الغرناطية.

وكل هذه الأقاليم والمداخيل لبيت المال المشار إليها وكل الأشياء الأخرى التى تختص به أو التى يمكن أن يمتلكها يقدمها أبو عبدالله إلى أصحاب الجلالة بمبلغ ٢١٠٠٠ قشتالى (عملة ذهبية إسبانية قديمة) من الذهب الخاص والوزن الصحيح.

ومن جانب الملوك الكاثوليك وبعد الاعلان صراحة أفضل رغبة لهم هى أن يواصل أبى عبدالله حياته ومعيشته فى ممالكهم وأن يتحصل على الأقاليم المشار إليها بكل مداخيلها الأخرى والتى تفضلوا عليه بها ، يقدمون الوعد باحترام رغبته وإرادته بالذهاب إلى خارج الأندلس والاعراب له أنهم كم يكونوا سعداء بأن يقدموا له كل ما يعادل تلك الممتلكات التى يتركها بمبلغ ٢١٠٠٠ قشتالى الذى كانوا يقدمونه له .

وسيتم تقديم المال إلى أبى عبدالله قبل رحيله بثمانية أيام. وعلاوة على ذلك سيبقى لأبى عبدالله ثلثا الدخل الاجمالى الوارد من الأقاليم التابعة له فى السنة التى يتخذ فيها هذا الإجراء والثلث الباقى سيكون من نصيب أصحاب الجلالة.

وفى حالة رحيل أبى عبدالله من شبه الجزيرة الايبيرية قبل استلامه الكامل لثلثى الدخل عن ذلك العام يجب على أصحاب الجلالة أن يدفعوا له ما تبقى له إذا ترك لهم تفويضًا كافيًا لتحصيل الايراد .

كما أعلن أيضًا أنه إذا غادر أبو عبدالله الأندلس فى نهاية شهر أكتوبر التالى من ذلك العام وإذا تحقق ذلك سيقوم أصحاب الجلالة بالدفع له من حسابهم ما يعادل ثلثى الدخل المشار إليه وأنهم سوف يحصلون ذلك الدخل لحسابهم فيما بعد .

http://al-maktabeh.com

وعلى الفور وعد أبو عبدالله وشهد أمام أصحاب الجلالة بأنه لن يبقى فى هذه الممالك الإسبانية حتى نهاية شهر أكتوبر المذكور.

وقد التزم أصحاب الجلالة بأنهم سوف يتعهدون بالنسبة لأبى عبدالله والملكات المسلمات وأخته ولكل أتباعه وخدامه أن يمكنوهم من نقل حاجياتهم ومتعلقاتهم فى سفينتين كبيريتين بدون أى رسوم كما سبق الاتفاق عليه فى تسليم غرناطة وأنهم لن يدفعوا أية رسوم على أى شئ يخرجونه معهم من المملكة وأى أشياء أخرى وردت الإشارة إليها فى اتفاقية التسليم المذكورة.

كما أن أصحاب الجلالة مستعدون لتقديم هاتين السفينتين الكبيرتين خلال الثلاثة شهور التالية للوقت الذى يحتاجه أبو عبدالله لمغادرته الأندلس. كما يمكن أن يستفيد من هذا الامتياز أقارب يوسف دى مورا Yusaf de Mora الذين كانوا يقطنون طليطلة Toledo آنذاك للانتقال على هذه السفن إلى ما وراء البحار أى خارج شبه الجزيرة الأيبيرية.

وإذا قرر أبو عبدالله التوجه إلى تونس لتكون مقراً لإقامته وأنه لهذا الغرض يحتاج نقل وشحن بعض القمح إلى ساحل المغرب فإن السفن المذكورة ستقوم بنقل القمح حتى مملكة تونس بالكميات التى يمكن تحميل السفن بها وبشرط ألا يستغرق تحميلها أكثر من ثمانية أيام.

كما يتعهد أصحاب الجلالة بتقديم التسهيلات والسماح لأبى عبدالله بالقيام ببعض الأعمال ، دون أن يكلفهم ذلك نقودا ، التى هو فى حاجة إليها انطلاقًا من منظور حسن النوايا.

وبالنسبة للملكات المسلمات فقد تم النص فى نفس الكتابة بالعدل أنه إذا أراد أصحاب الجلالة الاحتفاظ بالعقارات والأراضى والدخل الناتج عنها وحسب إثبات أحقيتهن فيها وفقا لسندات الملكية لمدة تجاوز الخمس عشرة سنة أو امتلاكهن لها خلال هذه المدة سيتم تعويضهن عنها بالقيمة التى تعادلها مع خصم الربع، مع الأخذ فى الاعتبار قيمتها حسب السعر الذى كن قد تقدمن به عند شرائهن هذه الممتلكات قبل ذلك . وفى حال عدم رغبة أصحاب الجلالة فى الشراء يسمح للملكات المسلمات بالبيع لأشخاص آخرين حسبما يرتضين بذلك .كما يقبل أصحاب الجلالة بنفس الشروط شراء الممتلكات والعقارات والأراضى من الوزير ابن قماشه وتلك الأراضى التى كانت فى دالياس Dalias بنصف إيراد الملح الذى كان يعادل ٩٢٥٠ مثقال ، وأن كل ذلك يقدم إلى أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك وفقًا لسندات الملكية بمبلغ

٤٥٠٠ قشتالى من الذهب الخالص وثلثى الدخل عن العام الجارى . وفي حالة اكتشاف أن الممتلكات والأراضى المعلن عنها لاتقدم الدخل المثبت من جانب ابن قماشه سيتم خصم المبلغ المعادل من إجمالى ٤٥٠٠ قشتالى المعروض عليه.

كما يتضح أيضًا أن ابن قماشه ، حسبما يريد كان يرغب أن يعطى الابن خوان دى جرانادا Juan de Granada مقاطعة دالياس Dalias بنصف إنتاجها من الملح أو ما يعادله من مال، ولحسن الحظ أن أصحاب الجلالة لم يقدموا نقوداً لابن قماشه عن تلك الأراضى وإنما لإبنه السيد خوان Don Juan.

وفيما يتعلق بالمليح Muleh يتعهد أصحاب الجلالة بأن يقدموا له مقابل الممتلكات والأراضى التى يتملكها فى غرناطة ومملكتها مبلغ ٤٥٠٠ قشتالى مثلما يمتلك ويبيع ابن قماشه ، وأنه إذا كان يمتلك أكثر منه سيتم سداد ما زاد على ذلك. ولكن هذا يجب إدراكه فى حالة ما إذا قبل المليح أو أن يكون ذلك بموجب كتابة بالعدل؛ وفى حالة ما إذا ثبت عكس ذلك سيكون فى استطاعة أصحاب الجلالة أن يعقدوا اتفاقًا منفصلاً.

كما قدم أصحاب الجلالة إلى أبى القاسم بن سراج Bulcasim Abencerraje مقابل الحصول على ممتلكاته وأراضيه فى فيريرا Ferreira وبكيرا Poquerraje ، التى كانت تنتج ١٢٠٠ مثقال ، دخل العام الجارى، وأنه فى حالة مغادرته الأندلس قبل أن يتسلم الثلث الأخير من الإيراد سيقوم أصحاب الجلالة بالسداد له ويحصلون هذا الثلث بعد ذلك لحسابهم . ونفس الشئ الذى يحدث مع أبى القاسم بن سراج يتم مع البولودى الذى كان يتحصل على عائد يقدر بـ ٦٠٠٠ مثقال .

كما وعد أصحاب الجلالة فى نفس الكتابة بالعدل بأنهم سوف يتفضلون بمبلغ ٣٠٠ مسكوكة ذهبية قشتالية إلى يوسف دى مورا Yusaf de Mora مقابل التزام المسلمين فى منطقة البشارات بالإتفاقات السابقة وألا يسببوا أى أحداث جديدة عند مرور أصحاب الجلالة.

ومن الواضح فى الكتابات بالعدل أن أصحاب الجلالة لديهم الرغبة بشأن تنفيذ ما جاء فى كتابة بالعدل أو بأخرى على أن تكون هذه الكتابة بالعدل موقعة من الملك أبى عبدالله أو من هو مفوض بإسمه وأن يقسم بذلك فى حضور الشخص أو الأشخاص الذين يحددهم أصحاب الجلالة.

مع ذلك فقد أعلن أبو عبدالله رغبته فى أنه عليه أن يكون فى خدمة أصحاب الجلالة حيث أن قراره هو الرحيل من الأندلس والذهاب إلى أراضى المسلمين وأنه لايريد أن يعارض ذلك وأن المليح بموجب التفويض الذى منحه له سيده أبو عبدالله أصبح مخولاً بكل الثبات والقوة وحسن النوايا بأن يلتزم أصحاب الجلالة بالشروط التى تضاف إلى الاتفاقية:

- بالنسبة للسفينتين الكبيرتين اللتين ستقدمان لسيده حتى يتمكن من مغادرة الأندلس وفقًا للاتفاقية المذكورة ، أن تكون إحداهما سفينة إنييجو دى أرتيتا Inigo de Artieta والأخرى تكون حمولتها أكثر من ألف طن وأن تكون مؤمنة من جانب ولاية جنوه وبضمان لونخا دى إشبيليه Lonja de Genoveses وفرنسيسكو بينيلو Franciso Pinelo وكاتب العدل المعين. وإلى جانب السفينتين الكبيرتين ، ووفقًا لشروط الاتفاقية ، يجب على أصحاب الجلالة أن يضعوا تحت طلب أبى عبدالله وابن قماشه سفينتين شراعيتين على أن يتم تسليحهما تسليحًا جيداً للدفاع عن السفينتين الأخريين اللتين تقلان الملك أبى عبدالله وعائلته. وكل هذه السفن ستكون جاهزة فى الميناء يتم الاتفاق على الإبحار منه قبل عشرين يومًا من رحيلها .

- يجب على الملوك الكاثوليك أن يرسلوا مع المهاجرين بعض الأشخاص من أصحاب السلطة والاحترام والثقة لمرافقتهم وذلك زيادة فى الأمن ولكى يقدموا فيما بعد شهادة وأخبار كيف تم إبحارهم حسب رغبتهم.

- وفقًا للاتفاقية التى تمت بواسطة ابن قماشه، يجب على أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك أن يقدموا المال مقابل أقاليم دالياس Dalias وأورخيبا Orgiva وفيريرا Ferreira وبوكيره Poqueira و البولودى Boludy، ولن يتم تسليم المال الخاص بالممتلكات التى ما زالت فى حيازة أتباعه لأنها ليست ملكًا لهم وإنما سيتم دفع المال إلى أبى عبدالله باعتباره المالك الحقيقى لهذه الأقاليم والممتلكات .

- سيستلم أبو عبدالله وأتباعه المال الناتج عن بيع الممتلكات المذكورة ، قبل شهر من رحيلهم من الأندلس والذى سيكون فى منتصف أغسطس كما كان يُعتد، وليس قبل الرحيل بثمانية أيام حسب ما كان قد اتفق عليه مع ابن قماشه.

سيتم الالتزام مع أبى عبدالله وأقاربه وخدامه بما تم الاتفاق عليه فى اتفاقية تسليم غرناطة بشأن الأسلحة والمعدات الحربية التى يمكن أن يحملها معه فى وقت الإبحار، ولن يتم سداد

رسوم تحت أى مسمىً لأى من الأشياء التى يحملونها معهم ولن يتم فحصها أو مراجعتها أو شراؤها.

- يأمر أصحاب الجلالة جونثالو فرناندیث، قائد إيورا Illora، بأن يدفع إلى أبى عبدالله والمليح وابن قماشه وابراهيم القيسى كل ما يثبته قاضى غرناطة من ديون عليه. وأن المبلغ الذى يتم تحديده سيتم سداده قبل رحيلهم من الأندلس بشهر وهو نفس الوقت الذى أمر فيه أصحاب الجلالة بسداد مستحقاتهم عن ممتلكاتهم. ولهذا الغرض يأمر أصحاب الجلالة المذكور جونثالو فرناندیث أن يتحقق ويعطى الأمر بالسداد فى المدة المذكورة.

- يرسل أصحاب الجلالة شخصًا بعد ذلك يتحقق من قيمة الأراضى والأشياء الأخرى التى يمتلكها أبو عبدالله والمليح وابن قماشه وآخرون والتى يجب على أصحاب الجلالة سداد قيمتها وما يجب على هؤلاء أن يتسلموه من مقابل.

- يتفضل أصحاب الجلالة على ابراهيم القيسى وعلى أقاربه الذين كانوا يتكونون من إثنتى عشرة عائلة تسكن طليطلة ، حتى يتمكنوا من المرور والحضور إلى الميناء لمغادرة البلاد وإعفائهم من سداد أية رسوم عن أشخاص وعائلاتهم وحاجياتهم ومتعلقاتهم مثلما تم مع أقارب يوسف دى مورا Yusaf de Mora .

- تنقل السفن أبا عبدالله وكل أقاربه وأتباعه وخدامه إلى مملكة تونس أو إلى مملكة فاس أو إلى ميناء الاسكندرية أو أى من الموانئ التى يفضلها الملك أبو عبدالله ، وفقا لما تم الاتفاق عليه فى اتفاقية تسليم غرناطة، وأن يكونوا مستعدين للإبحار من ميناء عدره Afra.

- كذلك يتم تقديم كافة الخدمات المنصوص عليها فى اتفاقية تسليم المدينة.

- يدفع أصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك إلى الملكات المسلمات ما يعادل قيمة البساتين التى تحمل أسماء: جناين التوابين Genin Ataubin وغيرها، كذلك قيمة الممتلكات والأراضى وأسواق الغلال والحمامات والطواحين والضياع والمزارع والديار التى يمتلكنها ، وأن أصحاب الجلالة يأخذونها بأسرع وقت وعى البساتين الموجودة فى جيناجوف Ginajof وجناين سيدى مخلص Genin sidi Mocliz وجناين سيدى حامد Genin sidi Hamet وجناين سيدى على Genin Sidi Ali وجناين قصر شنيل Genin Alcazar enil وجناين القاضى Genin Alcadi وجنين الفقاز Genin Alfacaz .

- إذا رغب الفقيه محمد البقنى Mohamed el Pequenni ومنصور الجينى Manzor el Geyeni الذهاب مع أبى عبدالله ، يكون على أصحاب الجلالة أن يدفعوا لهما وفقًا للنظام

والطريقة التى تمت مع أبي عبدالله وفى نفس الوقت يكون السداد نقداً، ذهب أو فضة ، بما يعادل قيمة القنطار الذى يمتلكانه مع مراعاة أن القيمة تكون حسب الدخل عن العام السابق ١٤٩٢ .

- وفقًا للإتفاق الذى تم بين ابن قماشه وأصحاب الجلالة ، إذا كان المليح لديه من الممتلكات أكثر مما أشير إليه فى اتفاقية التسليم يتم السداد له مقابل هذه الزيادة. ويتم الاتفاق على ما زاد عن الممتلكات التى أعلنها ابن قماشه بسداد الثلث و ٣٠٠٠ ريال خاصة بمداخيل صناعة الأحذية بغرناطة ، بالإضافة إلى مداخيل أوتورا Otura وكل ما كان يبيعه ينقل إلى أصحاب الجلالة الذين يدفعون له مقابله وما زاد عليه. وبالنسبة لبقية كل ما كان يمتلكه من ديار ومزارع عنب وبساتين وطواحين وأشياء أخرى يقوم أصحاب الجلالة بتفويضه بالبيع بأفضل سعر إلى ما يرغب حيث أن هذه الممتلكات لم تكن ضرورية لأصحاب الجلالة.

- يتقرر أخيراً التزام أصحاب الجلالة من جانبهم بكل ما جاء فى هذه الكتابة بالعدل وأن يلتزم ويقسم على ذلك أبو عبدالله أيضًا حيث يقدم كتابة أخرى بالعدل مماثلة مصدق عليها وموقعه بإسمه .

- تحمل هذه الكتابة بالعدل توقيعات أبو القاسم المليح ومحمد البقنى وإبراهيم القيسى والأستاذ أندريس كالديرون ، المأمور القضائى لغرناطة ، وهيرناندو دى صافرا ، ويظهر تفويض كاتب عدل المنطقة والموثق العمومى دييجو جارثيا الريكو Diego Garcia el Rico.

هذا وكان الملوك الكاثوليك قد وافقوا على الاتفاقية الخاصة برحيل أبى عبدالله وأتباعه، وتم التصديق عليها فى ١٥ يونيه ١٤٩٣ بالتوقيع عليها بإسمهم ومفوضهم فرناندو الباريث Fernando Alvarez .

وبتاريخ ٨ يوليه من نفس العام وافق عليها وأكدها أبو عبدالله بصورة مماثلة وصدق عليها وختمها فى مدينة أندراكس Andarax وأضاف بقبضة يده سطوراً باللغة العربية يصدق بها ويؤكد على وعوده التى يلتزم بها حسبما جاء فى محتويات الكتابة بالعدل.

ويقول هيرناندو دى صافرا فى الرسالة التى وجهها إلى سيادته الملك الكاثوليكى والتى تحمل تاريخ نفس شهر يوليه أن الملك أبى عبدالله لم يكن نشطًا فى إرسال الكتابة بالعدل بشأن إنهاء اتفاقية التسليم من جانبه وأن كل يوم تأخير وكل ساعة ينتظرها بشأن التسليم تمر عليه كما لو كانت ألف سنة. ويعلن هيرناندو دى صافرا فى نفس الرسالة أنه إذا تم التسليم من جانب أبى عبدالله وحضرت السفن التى يقدمها أصحاب الجلالة يمكن إنهاء أمرين مرة

واحدة، أى رحيل أبى عبدالله والاستيلاء على المدن فى نفس الوقت حتى يمكن تجنب أى موقف عدائى.

وفى حقيقة الأمر أن الشئ المؤسف للملوك الكاثوليك فى هذه الفترة أنهم لم يكونوا سعداء بإنهاء وجود المملكة الإسلامية فى غرناطة وحسب وإنما كانت تطلعاتهم إلى السواحل الإفريقية، وبدأت تداعبهم وتراودهم فكرة القيام ببعض الغزوات والهجمات الفورية على بعض المواقع أو الموانئ الإفريقية. والرغبة التى كانت لديهم كان يشجعهم عليها ملوك آخرون كانوا فى عصرهم من خلال زيادة سلطانهم على مملكتهم ومحاولة كسب أراض جديدة يسيطر عليها أولئك الذين لايدينون بعقيدة المسيحية. وقد ظهر التنافس بين ملوك البرتغال حيث بدت رغبتهم فى اجتياح جزء من منطقة المغرب العربى منذ عهود سابقة فى إطار القمع والعقاب المفروض على القراصنة الأفارقة والأوربيين الذين كانوا يعيثون فساداً ويسببون الرعب والهلع على السواحل الأندلسية، وفى ذات الوقت تجنب الخطر الجسيم القادم من القوات التركية التى كانت تهدد هذا الجزء من حوض البحر المتوسط. وهذه كلها كانت أسباب بارزة حرضت وحركت فكرة الغزو الاعتداء على أى جزء بالساحل الإفريقى .

(٦)

عملية إفتداء الأسرى الكناريين بساحل المغرب

مفهوم الفدية هو سداد مبلغ من المال مقابل الإفراج عن شئ ما أو إطلاق سراح شخص ما سقط فى أيدى العدو، وهذه العملية يتم القيام بها منذ أمد التاريخ. وفى زمن الحروب كان يتم التشدد فى طلب الفدية للأشخاص الذين تم اختطافهم أو الذين وقعوا فى الأسر، وكانت العائلة وربما كل جماعة أو طائفة الأسير تتدخل بالمساهمة فى سداد المقابل، وكانت الطريقة العملية الشائعة، نظرا لطلب المقابل المبالغ فيه لعمليات الافتداء أو لزيادة عمليات الاختطاف، أن أمر أحبار اليهود أن يتم شراء واسترداد الأسرى مرة ثانية بالقيمة التى يساوونها فى سوق العبيد[١].

هذا وقد استمر استخدام هذا النوع من الصفقات فى العصور الوسطى، وزاد بشكل كبير فى شبه جزيرة أيبيريا، حيث كان يتعايش على ترابها مسيحيون ومسلمون. وكان يتم إفتداء المسلمين من جانب أقاربهم بالسعر المحدد حسب ما يراه مختطفوهم، ونفس الشئ كان يتم أيضا بالنسبة للأسرى المسيحيين ، ولقد شكلت هذه العملية انزعاجا وقلقا لملوك قشتالة الذين سنوا وشرعوا القوانين بشأن ما يخص رعاياهم الأسرى، الذين فى حوزة الأعداء- الذين على غير عقيدتهم- ومن ثم كانت عملية إفتدائهم تقوم على تقليد متفق عليه بينهم وخاصة بسبب وجود الفرد المسلم فى شبه الجزيرة الأيبيرية . ويمكن رصد بعض الأوامر بهذا الخصوص التى صدرت فى المراسم الملكية ، ويشير الفونسو العاشر Alfonso X إلى رعاياه فى أراضى الأعداء :

« ... لأن رعايانا وأهل بلادنا الموجودين فى أراضى المسلمين ... يمكن إفتداؤهم، ونأمر بأنه إذا تم فك أسرهم مقابل الماشية التى يجب تقديمها إلى من يمسكونهم ، فإن حراس خزائننا ومشرفينا ومحصلى الضرائب لن تأخذهم بهم رحمة ولانصف رحمة ولا أى حق آخر.. »[٢].

ويصير فيليب الثالث Felipe III على نفس الموضوع عندما يأمر:

إذا كان الأسرى المسلمون ، الذين هم فى فى حوزة المسيحيين ، يمثلون ضرورة لإفتداء المسيحيين، الذين هم فى حوزة المسلمين ....، فإننا نأمر بأن المسيحى ، الذى هو سيد هذا المسلم المذكور والذى هو أسير فى أراضى المسلمين، أن يكون إفتداء المسيحى مقابل ذلك السعر الذى كلفه ويساويه ... »[٣].

وحسبما يتضح من التعليقات السابقة، فإنه كان من العرف فى قشتالة إفتداء الأسرى المسلمين مثل إفتداء الأسرى المسيحيين . ومنذ أن تم غزو أرخبيل كناريا Archepiélago Canario وتحوله ليكون حدود أفريقيا ، استمرت عمليات الافتداء ولكن بمغريات جديدة.

وفى حقيقة الأمر، كانت كلمة «إفتداء» ذات مدلول كبير للمتاجرة ، حيث كانت عمليات افتداء للمسلمين أكثر من المسيحيين، وخاصة فى حالة تبادل رجال برجال، أو أجناس بشرية مقابل بضائع.

١- أسلوب عملية الافتداء :

جاءت عملية الافتداء كمحصلة لعمليات الدخول والغارات التى شارك فيها العديد من سكان جزر كناريا فى القرن السادس عشر. وكانت تقوم هذه الغارات والغزوات على أساس اقتناص الغنائم بساحل المغرب، حيث كان يتم جلبهم إلى الجزر بيد القراصنة [٤]، ثم بعد ذلك، فى حالة السلم، يتم إطلاق سراح الأسرى مقابل المال والبضائع والعبيد السود[٥].

ويمفهوم عملية الافتداء بأنها مؤسسة تجارية، كانت تحتاج إلى تنظيم يتم إعداده فى أراضى كناريا ، على خلاف العملية فى حد ذاتها والتى كانت تتم دائما على الأراضى الإفريقية.

والمؤسسة التجارية الطبيعية هى تلك التى تتم بين شخصين ، على الرغم من مشاركة عدد أكثر أحيانا، حيث يكلفون بنقل المسلمين إلى ساحل إفريقيا من أجل القيام بعملية الافتداء[٦]. وكان يتم تشكيل هذه المؤسسات على شكل شركات، حيث كانوا يجلبون المسلمين موضوع عملية الافتداء ، كانوا ينضمون كشركاء فى هذه الشركات [٧]. ولهذا كان يقوم الرفاق أو الآباء الذين لهم أبناء فى الأسر فى أفريقيا باستئجار مركب[٨]. وعلى سطح هذه السفن إلى جانب الربان والبحارة كانت توجد شخصية دائمة الحضور لايمكن الاستغناء عنها فى مثل هذه التعاملات ألا وهو الدليل، أو لسان حال الموريسكيين المرتدين ، العالم بطبيعة الأراضى والعارف بكل القبائل التى كان يأتى منها الأسرى.

وكانت مهمة رُبان المركب والبحارة هى التوجيه والانتظار على الساحل فى الوقت الذى كانت تتم فيه العملية[٩]، ويحصلون بذلك على أجورهم . وكان الربابنة يتلقون أجورهم عن أنفسهم وعن السفن وكذلك البحارة . وكان أجر الرُبان حوالى ٥٠ مسكوكة ذهبية شهريا وإن كانت تزيد أو تقل أحيانا[١٠]، أما البحارة فكانوا يحصلون على ٦ أو ١٠ مسكوكات ذهبية شهريا [١١]. والأمر الطبيعى أن البحارة كان يتم التعاقد معهم من خلال الشركاء وتتم إعاشتهم على حساب الشركاء أنفسهم [١٢]. وكان الجميع يستفيد دوما من إمكانية المشاركة فى هذه المؤسسات عندما يسمح لهم بعمليات الإفتداء لأحد العبيد ببضائعهم[١٣].

وإلى جانب طاقم المركب، كان يظهر أيضا فى هذه السفريات دليل السفينة، والصبيان الملاحون الذين كانوا يتلقون حوالى ٦,٥ مسكوكة ذهبية و٢,٥ مسكوكة ذهبية على التوالى.

وكانت هذه العمليات تواجه بعض المخاطر أحيانا، إذ أنه على الرغم من أنها كانت تتم فى فترة السلم وفى إطار الفترة الآمنة فإن المغاربة البربر المتعبين من عمليات الإغارة التى كانوا هم هدفا لها من جانب أهل كناريا لم يكونوا يحترمون الهدنة، ولهذا كان يتم حمل بعض المدافع التى بموجبها كان يتم الدفاع فى حالة الخطر، إذ فى عام ١٥٥٢ طلب دييجو دى كابريا بيراثا Doego de Cabrera Piraza وايرناندو دى كابريرا سانابريا Hernándo de Cabre-ra Sanabria ، أصحاب سفينة لانثاروتى Lanzarote من حاكم كناريا الكبرى (جران كناريا) Gran Canaria ، رودريجو مانريكى دى أكونيا Rodrigo Manrique de Acuña أربع قطع مدفعية خفيفة من الحديد مع أدواتها [١٥]. وفى عام ١٥٦٠ تلقى إثنان من السكان من رُبان إحدى السفن اثنتين من قطع المدفعية الخفيفة مع أربعة قواعد لها وعدد اثنتا عشرة كرة للقيام بعملية الافتداء بساحل المغرب[١٦].

وكانت الشخصية البارزة والأكثر أهمية فى هذه المعاملات هى شخصية الدليل. وعلاوة على معرفته بطبيعة ومسالك الأراضى التى يجوبها ولمعرفته بلغة أهلها كان هو الذى يعقد الصفقات ، أى « ... أقدم لكم الخدمة لمعرفتى بلغة المسلمين ولهذا تقومون بعملية الإفتداء ولهذا من الآن فصاعدا وأينما أكون عليكم بالعمل ... »[١٧]. ومن أجل هذا العمل كان الموريسكيون ، بالإضافة إلى تسلمهم راتبًا ، يحصلون عن كل أسير تم افتداؤه مبلغا من المال يصل إلى نصف مسكوكة ذهبية فى إحدى المناسبات ، وعن كل ٢٥ أسير مسكوكة واحدة وعن بقية أخرى جزءاً [١٨]. وفضلا عن ذلك إذا كانت عملية افتداء الأسرى أو اختطاف واحد

منهم بغتة كان الأسير خاصا له [١٩]، وربما كان هذا راجعا إلى التقليد الذى كان موجودا فى قشتاله حيث أمر خوان الثانى فى عام ١٤٤٧م:

« ... أن الدليل الذى يخصنا له أن يأخذ ويرتهن مسلمًا داخل حدود ممالكنا، وله الحرية فى الإمساك به ويكون ملكًا له ... »[٢٠].

ولم تنظر محاكم التفتيش بعين التقدير نشاط هؤلاء الموريسكيين الجواسيس، نظرا لتنقلهم بين كناريا وأفريقيا إذ كانت حياتهم بمثابة الحياة المزدوجة ، وذلك لاعتقادها بأن حرية التنقل تشكل أمراً خطيراً ، ومن ثم توصلت هذه المحاكم إلي حظر مرور المرتدين إلى ساحل المغرب مثل الأدلاء أو الوسطاء . وبالفعل فى عام ١٥٣٢، منع لويس دى باديا Luis de Padilla، قاضى محاكم التفتيش فى الجزر، أن يمر المرتدون إلى ساحل المغرب وألا يقوم البحارة أو الرُبان بنقلهم إلا بتصريح منه [٢١]. ومع ذلك ، فإن أصحاب الجزر، وخاصة جزر لانثاروتى Lanza-rote وفويرتى فينتورا Fuerteventura ، لم يبالوا بهذا المرسوم، حيث كانوا يقومون بنقل الموريسكيين و الأدلاء معًا. وفى البداية وفى عام ١٥٣٣م، قام خوان بيردومو Juan Perdo-no، المفوض باسم السادة ساتشو دى إيريرا Sancho de Herera وفرنان دارياس دى سابيدا Fernan Darías de Saveda ، أصحاب لانثاروتى وفويرتى فينتورا، بالتوسل لدى قاضى محكمة التفتيش بأن يتراجع عن المرسوم الذى أصدره وأن يمنح ترخيصًا ووكالة حتى يتمكن هؤلاء السادة وعدد آخر من قباطنة السفن من المرور إلى ساحل المغرب حتى يتمكنوا من نقل الموريسكيين دون الوقوع تحت وطأة أى عقاب [٢٢]، ولكن فى عام ١٥٥٢ قامت المحكمة بالتحقيق مع أحد الموريسكيين، من أهل جزيرة لانثاروتى، يدعى خوان بورتوجيس Juan Por-tugues والمتهم بأنه كان مترجما بساحل المغرب بدون ترخيص ؛ وقام هذا الأخير بالدفاع عن نفسه زاعمًا ومدعيًا أن هؤلاء السادة كانوا قد هددوه بطرده وعائلته من الجزر إذا لم يرافقهم، وأنهم كانوا قد أكدوا له بأنهم سوف يتفاهمون مع المحكمة [٢٣]. وفى نفس العام، أيضا ، كان لويس دى باديا Luis de Padilla قد طلب من مانويل نونييث اسبارجو Manuel Nu-nez Espargo ، المقيم فى لانثاروتى، ومن الموريسكى بدرو ارياس Pedro Arias بأن يمثلا أمام دار القضاء لأنهما قاما بنقل مسلمين كافتداء بساحل المغرب ، دون ترخيص ، وأن هذا محظور بمرسوم من محاكم التفتيش[٢٤].

ومع ذلك فإن المحكمة ذاتها قد تذرعت بهؤلاء الأشخاص عندما وجدت أنهم يخصونها. ومن ثم عندما علمت أن كثير من المرتدين من بين الهاربين إلى ساحل المغرب، كانت لديهم النية للعودة إلى الجزر ، تعاقد قاضى محكمة التفتيش بدرو اورتيث دى فونيس Pedro Or-

http://al-maktabeh.com

tiz de Funes مع عدد من الأدلاء بهدف المرور إلى ساحل المغرب [٢٥]. ومن بينهم الموريسكية اينيس دى بيجا Inés de Viga ، التى كانت فى صحبة زوجها خورخى راميريث Jorge Ramirez ، تصرح فى عام ١٥٧٢ أنها كانت ذاهبة إلى ساحل المغرب بتصريح من قاضى محكمة التفتيش بشأن افتداء بعض المسلمين، برفقة الدليل فرانسيسكو دى كابريرا Francisco de Cabrera [٢٦]. وظلت هذه الموريسكية بساحل المغرب أكثر من عامين، حيث مارست حياتها المزدوجة لأن المحكمة كانت تشتبه فى كل من بسلالتها إذ كانت تقول المحكمة أنها كانت مسلمة وأنها كانت تأكل اللحم يوم الجمعة وكانت تعيش فى كناريا كمسيحية[٢٧].

وفيما يبدو أنه إلى جانب المهمة التى كان يضطلع بها قاضى التحقيق كان يحاول القيام بأى عمل تجارى ، إذ إنه فى عام ١٥٧٢ نما إلى علمه وصول سفينة إلى جران كناريا وبها سجادة رقيقة تقدر بقيمة جارية ، ورواية طولها ٢٠ باره من قماش التفتاه وأشياء أخرى كثيرة[٢٨]. ويؤكد قاضى محاكم التفتيش ذلك بنفسه، إذ أنه يعزو أن عملية الافتداء تمت أساسا من أجل احضار المرتدين، ولكن تم ذلك بحجة الافتداء مع إثنين من المسلمين التابعين له مثلهما مثل أشخاص آخرين، لأن المسلمين لم يوافقوا على أن ترسو أى سفينة [٢٩]. وحسب رواية قاضى محاكم التفتيش أن المسلمين التابعين له لم يرغبا التحول إلى المسيحية على وجه الاطلاق[٣٠].

وفى عام ١٥٧٣م قام دى فونيس de Funes باستئجار مركب آخر بهدف الذهاب للبحث عن اينيس دى بيجا Inés de Viga ، حيث تعاقد لهذا الغرض مع دليل آخر، وهو الموريسكى مارتين اليمان Martín Alemán الذى كان عليه أن «يلتحف» بسجادة قيمة حتى تكون السفينة والناس فى مأمن [٣١]. وفى هذا الإطار كانوا خبراء ومهرة ، حيث أجرى بدرو الباريث Pedro Alvarez اتصالا مع ابن جليس الملك، الذى أعطاه حرية الذهاب آمنا أينما وحيثما أراد [٣٢].

وعلاوة على عمليات الافتداء هذه، كانت تتم عمليات أخرى غير مشروعة ومحظورة بموجب القوانين الكنسية والملوك القشتاليين.كان يقول الفونسو العاشر Alfonso X عنهم بهذا الخصوص :

«بعض المسيحيين أشرار وهم أولئك الذين يقدمون المساعدة أو النصيحة إلى المسلمين الذين هم أعداء العقيدة وأن أولئك المسيحيين الذين يعطون المسلمين ويبيعون لهم الأسلحة المصنوعة من الخشب أو من الحديد، أو السفن الشراعية أو السفن الجاهزة ، أو تقديم الخشب

لهم لصناعتها . وهناك من المسيحيين كذلك الذين يرشدون المسلمين ويوجهون سفنهم بهدف إيذاء المسيحيين . وآخرين يعطونهم ويبيعونهم الخشب للقيام بالغارات وبالأعمال الخداعية الأخرى. والمسيحيون بذلك يرتكبون عداوة كبيرة ويزرعون ضغائن جسيمة ولاينظرون إلى خير الكنيسة المقدسة وأى واحد منهم يقوم بمثل هذه الأشياء يكون فى خدمة المسلمين الذين يبيعونهم ، إذا أرادوا ، أو يستفيدون منهم مثلهم مثل عبيدهم. وبالإضافة إلى ذلك فإن تصرفاتهم هذه تسقط عنهم إنتمائهم للكنيسة ويكونوا ملاعين وتطبق عليهم قوانين حرمة الكنيسة ويجب أن يحرمون من كل ما يمتلكون، ويحرمون من تبعيتهم للملك»[٣٣].

ويحظر الملوك الكاثوليك هذه التجارة فى عام ١٤٨٠م أيضا :

«خسائر كبيرة وأضرار جسيمة تمارس ضد مواطنينا، وخاصة أولئك الذين يقيمون فى الأندلس ، من جراء التعاقدات الكبيرة التى يقوم بها بعض المسيحيين فى أراضى المسلمين ، حيث يضعون ويحملون الأسلحة إلى المسلمين وإلى فرسانهم وكذلك يقدمون لهم الخبز وأشياء أخرى من تلك الأشياء المحظورة.... »[٣٤].

وعلى الرغم من هذه المحظورات ، كانت توجد فى كناريا تجارة غير مشروعة بين الجزر وساحل المغرب، حيث كان يتم مع افتداء المسلمين تبادل الحبوب والغلال والأسلحة وأشياء أخرى مقابل العبيد، كنوع من تشجيع أصحاب ومواطنى لانشاروتى وفويرتى فينتورا ومن جانب بعض الولاة[٣٥]. وكان السكان يقلدونهم، إذ إنه فى عام ١٥٤٦م اعترف أحد الملاحين بأنه تلقى خمس مسكوكات ذهبية فى داخل ملابس لكى ينقلها مقابل افتداء واحضار أسير يبلغ عمره من ١٠ إلى ١١ سنة [٣٦]، وفى عام ١٥٥٥م قام آخر بنقل رطلين من حبات المرجان والأوراق والقلانس (أغطية الرأس) مقابل احضار أسرى[٣٧].

وكانت محاكم التفتيش تولى اهتمامًا بمراقبة هذه التجارة غير المشروعة حيث كانت تجمع المعلومات بهذا الخصوص لمعاقبة المخالفين، وبما فى ذلك عندما كانت تطلب منهم تصريحا لأصطحاب الورسيكيين كأدلاء إلى ساحل المغرب فى عمليات الافتداء، وكانت تجعل هؤلاء الأدلاء والمنظمين يقسمون على أنهم لن يوافقوا ولن يعطوا حراب الرماح ولا أى أسلحة ولا أى أشياء أخرى للدفاع عن المسلمين [٣٨].

وعلى الرغم من ذلك، لم تتلاشى هذه العادة لدرجة أن نفس الوالى هيرنان بيريث دى قزمان Hernan Pérez de Guzmán، فى حوالى عام ١٥١٨م أو ١٥١٩م، شهر وندد بهذه التجارة ، التى كانت تتم من تورى دى مار بكينيا Torre de Mar Pequena (برج البحر

الصغير) ، حيث كان يعطى للمسلمين مؤونة من الخبز والدقيق والشعير والأسلحة والفضة وأشياء أخرى[٣٩]. ونفس الشئ فى إحدى جولات محاكم التفتيش فى جزيرة لانشاروتى عام ١٥٢٠ ندد وشجب المفتش بابيا Pavia بأن من تلك الجزيرة كان ينقل للمسلمين القمح والشعير والزيت والأسلحة وكل ما كانوا يريدونه [٤٠].

١-١- افتداء المسلمين :

كما سبق أن أشرنا إلى أن عملية إفتداء المسلمين أصبحت تجارة أكثر من تلك العمليات التى كانت تتم بين كناريا وأفريقيا. ولكى يتم تنظيم عملية الإفتداء هذه كان يتم اختيار أولئك المسلمين الأغنياء بصفة رئيسية ، والذين كان فى إمكانهم أن يجعلوا عائلاتهم تدفع من أجلهم مبالغ هامة مقابل افتدائهم، على الرغم من معاودة العملية والحصول على الفائدة المرجوة من عمليات الإغارة بأخذ المسلمين . وأصبحت المثابرة والاجتهاد فى هذه التجارة أكثر أهمية من الحديث حول عمليات الدخول والافتداء التى لها نفس الغرض .

ولم تر محاكم التفتيش ، التى كانت تقوم بدور المراقب الدائم، بعين الاعتبار هذه التجارة. وبهذا الصدد تقدم المفتش باديا Padilla ، فى مايو ١٥٤٥م، بشكوى إلى دار القضاء يقول فيها أن المسلمين المأسورين والذين يتمتعون بثراء كاف يرفضون اعتناق الديانة المسيحية، وأنه ليس لديهم - سوى فكرة واحدة هى : دفع فديتهم من أجل العودة إلى ديارهم [٤١]. وكان أخذ المسلمين الأغنياء والطلب من أجلهم فدية عالية شيئا عاديا، وذلك منذ اللحظة التى أجرى فيها سكان الجزيرة اتصالا مع أفريقيا. وعلى سبيل المثال، فى عام ١٣٢١م تلقى السيد دنيس دى بورتوجال Don Denis de Portugal من السيد زالى Zale عشرة آلاف مسكوكة ذهبية مقابل إفتداء بعض أقارب هذا الأخير [٤٢].

وعادة تتم عملية افتداء المسلم عقب القيام بعملية الدخول المسبق. ففى عام ١٥١٩م حضر إلى الجمعية عدد من شخصيات الجزر: لويس دى أداى Luis de Aday بيشتى دى مونتيسديكوا Vicente de Montesdecoa برناردينو دى لاسرنا Bernardino de la Serna وكاتب العدل رودريجو دى أوكانيا Rodrigo de Ocaña ، لنقل المسلمين إلى عملية الافتداء بساحل المغرب، وكان إجمالى المنقولين ٢٠ مسلما [٤٣]، ومن المحتمل أن وقوعهم فى الأسر كان قد تم فى حملة سابقة، حيث كان كل من لويس دى أداى وبيشنتى دى مونتيسدكوا يواظبان على عمليات الدخول إلى ساحل المغرب.

وكان هناك بعض المقيمين ممن ينتهزون الفرصة فى اللحظة التى تتم فيها عمليات الافتداء لشراء الأسرى مقدما، ويتضح ذلك فى كتابة العدل حيث يعترف أحد مواطنى لانثاروتى Lanzarote أنه مدينًا لأحد المواطنين فى لا بالما La Palma بجارية بيضاء، حديثة الأسر وتبلغ من العمر من ١٨ إلى ٢٠ سنة وسليمة ومعافية وذات طلعة بهية، وأنه كان قد دفع ثمنها نقدا ليتم تسليمها فى هذا الشهر أو قبل ذلك إذا وصلت إلى ساحل المغرب قبل الموعد(٤٤).

وبنفس الطريقة كان البحارة أو الأدلاء شركاء فى بعض الغارات حيث كانوا يأسرون أسيراً مسلما والقيام بتسليمه مقابل فدية. وكان الموريسكيون وأحد مواطنى جزيرة تنريفى Tene-ride يسلمون فى حقبة الستينيات من ذلك القرن المسلمين التابعين لهم حتى يتم افتداؤهم بمال. وقد قام الموريسكى كريستوبال دى ثربانتيس Cristobal de Cervantes، أحد مواطنى جزيرة جران كناريا Gran Canaria فى عام ١٥٦٠ بتسليم ميلشور مانسيبيا دى لوجو Mel-chor Mansilla de Lugo المقيم فى جزيرة تنريفى وقائد سلاح وهو رجل مشابر فى التعاملات مع أفريقيا ..، أسيرة مسلمة تدعى ماهينا Mahena، إلى أن سقط سجينا فى حوزة البرتغاليين بسبب اغاراته على غينيا (٤٥)، وأن هذه الأسيرة المسلمة تمت مقايضتها بعدد من العبيد الآخرين(٤٦)، وكذلك تم تسليم أسيرة مسلمة أخرى تدعى مولالى Molali إلى ملشور ماتيوس Melchor Mateos ، ربان المركب التى كانت تذهب فى صحبة مانسيبيا Mansilla (٤٧). وكان هناك موريسكى آخر يرسل إلى ساحل المغرب مسلما يدعى ابراهيم Brahen مع مواطن من جزيرة فويرتى بنيتورا Fuerteventura يدعى البارو اورتيث Alvaro Ortiz(٤٨) للقيام بعملية الافتداء . ولهذا السبب كان عليهم أن يدفعوا أجرة العبد الأسير سواء تم افتداؤه أم لا ، إلى جانب أجرة العبيد الأسرى الذين كان يتم إحضارهم كمقابل، وكذلك سداد مبلغ من المال إلى الربان مقابل عمله وكذلك إعاشته (٤٩).

وفى حالات أخرى يقال ما يريده فى المقابل، بحيث أنه إذا حصل الوكيل على فائدة أكثر فهى له . وقد سلم هيرناندو كالديرون Hernando Calderón ، المقيم فى تنريفى، خوان دى ريبير Juan de Riber غلامًا مسلمًا يدعى حامد Hamete مقابل أن يحضر له اثنين أو اثنتين من العبيد الأسرى يتراوح عمرهما بين ١٨ و ٢٠ سنة ، على أن يكونا بشوشى الوجه، ممشوقى القوام، بدون أى مرض أو أى عيب خلقى(٥٠).

وأحيانا تكون هناك إفادة بأن أقارب وأهل المسلم أو المسلمة مستعدون لدفع المقابل، والسبب فى ذلك أن هذه العملية تمت قبل ذلك فى الغالب . ولقد أرسلت المسلمة التى تدعى

مـــريم Meriam للإفتداء فى عام ١٥٧٤ مقابل اثنتين من الجوارى السود حسبما اتفق، أو مقابل عبد وكمية من اللحم والشحم والجلد والعنبر وأشياء أخرى تساويها فى القيمة؛ ولكن سيدها طلب إعادتها حيث قام بسداد نفقات وأجر وعمل الوكيل [٥١]. وأحيانا تكون الأسيرة نفسها هى التى تتعامل مع سادتها بشأن ما سوف يعطون أو يقدمون من أجلها . وهناك المسلمة التى تدعى ماينا Maynaa، ملك السيدة إيزابيل دى موخيكا Isabel de Muxica، التى أرسلت للافتداء فى عام ١٤٩٤ بتصريح من السيد لويس دى لاكوبيا أى بنيا بيديس Luis de la Cuevay Benavides ، رئيس المحكمة والقائد العام لكناريا، لتتفاهم مع سيدتها والتى من أجلها تستطيع أن تحصل على اثنين من الجوارى، ذكر وأنثى يبلغ كل واحد منهما عشرون عامًا تقريبا، وفى حالة عدم وجود رجال يكون البديل إمرأتين. ولكى تطمئن السيدة من تسليمها إلى أحد المقيمين محل ثقتها بألا تبرح هذه الفتاة السفينة حتى يحصل على العبيد الأسرى مقابل لها ، ومن ثم إذا لم تتم هذه الصفقة عليه أن يعيدها مرة أخرى إلى الجزيرة[٥٢].

والوضع الطبيعى آنذاك كان يقوم على مقايضة إثنين بواحد، على الرغم من أنه فى بعض الأحيان كان يتم الحصول فى المقابل على عبد وسجاجيد رقيقة وعنبر وإبل على وجه الخصوص[٥٣]، ولكن إذا كان العبيد من أصل ونسب ووجاهة الطلعة كان من الممكن الحصول على مائة مقابل واحد، ومثال على ذلك اثنتان من الجوارى الموريسكيات ، كانتا ملكًا لحاكم تنريفى وكانتا مختارتين لملكة بوهيميا Reina de Bohemia ، حصل على قاضى الاقامة فى نفس الجزيرة على ثمانين عبد أسود وسجاجيد رقيقة وجلود بقر وأشياء أخرى كمقابل لهاتين الموريسكيتين [٥٤]. ومع ذلك كان هذا النوع من الافتداء استثناء وكان يتم القيام به فقط إذا كان الأسرى من أصل ونسب ومحتد طيب أو من أهل الشرف.

وعلى الرغم من أن هذه الإرساليات الخاصة بعمليات الافتداء كانت تبدو سهلة للوهلة الأولى إلا أنها كانت تنظم لأغراض أخرى أيضًا . وأحيانًا عندما يتم التنظيم والتخطيط لافتداء مسيحيين أسرى فى أفريقيا كانت تتم الاستفادة فى نفس الوقت بافتداء الأسرى وكان ربان ومرشد السفينة يستفيدان من هذه الظروف لتصريف البضائع التى يتاجرون فيها [٥٥]. وفى نفس الوقت كانت تدفع أجرة السفينة عن الوقت الذى كانت تنتظر فيه لاتمام عملية الافتداء والقيام بأعمال الصيد وحمل التوابل اللازمة والملح لزوم الأسماك [٥٦]. وأحيانا كانت تتم الاستفادة من عملية الانتظار من أجل نهب الأماكن المجاورة والاستيلاء على كميات من الحناء والاصباغ[٥٧].

http://al-maktabeh.com

وكان لنقل واحضار المسلمين إلى القارة سببا فى إزعاج وقلق محكمة التفتيش، ولهذا وبعد إصدار الأمر بعدم جواز مرور الموريسكيين إلى ساحل المغرب بدون ترخيص كما سبق أن رأينا ، فقد فرض فى عام ١٥٦٦ قيام إدارة تفتيش ومتابعة حيث تتجمع السفن فى لاس بالماس، مقر المحكمة ، قبل أن تغادر إلى أفريقيا بهدف استجواب المسلمين ومحاولة ارتدادهم إلى المسيحية. وكان المفتشون يتقدمون بشكاوى إلى المحكمة العليا ضد سادة العبيد الذين بدلا من أن يعملوا من أجل ارتداد أسراهم إلى المسيحية واعتناقها كانوا يعرقلون القيام بهذه المهمة. ويشير المفتش باديا Padilla فى رسالة له: «لم تكن هناك عناية أو اهتمام بمحاولة جعل هؤلاء المسلمون مسيحيين، وقبل ذلك كانوا يعتنون بألا يكونوا ...»[٥٨].

وقد احتج سادة الجزر على الإجراء الذى فرضته محكمة التفتيش ، وخاصة الاجراء الذى أصدره كونت جزيرة لانشاروتى السيد اجوستين دى هيريرا أى روخاس Agustin Herrera Roias الذى كان دائم الذهاب إلى ساحل المغرب سنويا للإمساك بالمسلمين ، والقيام بعد ذلك بمفاوضات مع عائلاتهم المتضررة وللحصول على فدية منهم مقابل عدد من العبيد السودانيين[٥٩].

ومع ذلك فإن عمليات تجمع السفن فى ميناء لاس بالماس كانت تتم، حسب ما تم معرفته من خلال الوثائق، على أساس الحجج والأسانيد التى يسوقها المفتش إلى المحكمة العليا عندما يضيف بقوله : «... إذا تم منع عمليات الافتداء سوف يفقد المسلمون الأمل وسوف يتحولوا إلى مسيحيين وبهذا يمكن تقديم خدمة جليلة للرب»[٦٠]. وفى عام ١٥٦٩ أبلغ المفتش أورتيث دى فونيس Orits de Funes بنفسه المحكمة العليا بما وجده فى الجزر، حيث أشار إلى العادة التى كانت قائمة فيها بتسليح السفن بمائتين أو ثلاثمائة رجل والقيام بعمليات دخول واقتحام لساحل المغرب والقيام بأسر المسلمين وبيعهم أو العودة بمبادلتهم، ولكل هذا كان يطلب حلاً وعلاجًا لهذه المسألة[٦١].

وفيما يختص بالاجراءات التى توقعها وأدركها السيد لويس دى باديا Don Luis de Padilla والتى وصلت إلينا بغرض هذه الدراسة والمتمثلة فى مصادر من الدرجة الأولى حيث نجد فى التقارير المتعلقة بساحل المغرب والتى تم إعدادها ابتداء من عام ١٥٥٣ تدوين اسم الطالب الراغب فى القيام بعملية الافتداء ، بالإضافة إلى رقم وأسماء المسلمين الذين تم نقلهم بهدف إنجاز العملية.

وفى بادئ الأمر كان يبدو أن محاولة المحكمة كانت تهدف إلى التحكم فى عملية التجارة القائمة بين كناريا وساحل المغرب وأن منح التصاريح والتراخيص كان مجرد إجراء محض. وفى

الواقع كان هذا الذى يتم عندما كان المسلمون المنقولون لعملية الافتداء من البالغين ، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بالأطفال تبدأ المحكمة فى وضع المحاذير ولاتصرح بذهابهم . وفى عام ١٥٥٣ امتثل أمام قاضى محكمة التفتيش المواطن انطون ميرشانتى Antón Merchante طالبًا تصريحا للقيام بعملية افتداء فى منطقة «جيد» Geida على حدود غينيا تختص بـ «حامد» Hamete وهو مسلم تابع لكاستيو Castillo ، وهاله دى هيرنان بيراثا Hala de Hernán Peraza وعيسى دى كابريا بيراثا Ica de Cabrera Peraza الذى لم يكونوا مسيحيين؛ ولهذا الغرض عمل فرانسيسكو وجونثاليث Francisco González مترجما للحوار الذى دار بين قاضى محكمة التفتيش والمسلمين [٦٢]. وكان الإصرار والمثابرة على القيام بعمليات الافتداء هذه أمراً عاديًا للغاية ، إذ أنه فى يناير من عام ١٥٥٤ امتثل نفس رُبان السفينة طالبًا تصريحًا للنقل اثنين من الموريسكيين وامرأة مسلمة لافتدائهم [٦٣]. وطلب قاضى محكمة التفتيش من الجميع الوعد والتعهد بعدم نقل أسلحة ولا أى شئ آخر من الأشياء المحظورة إلى ساحل المغرب.

وكانت العادة أن يتم إرسال هؤلاء المسلمين فى مجموعات أو بناء على اتفاق بين عدد من المواطنين المقيمين . وفى سبتمبر عام ١٥٥٣ امتثل أمام محكمة التفتيش خوان بابتيستا كاساريس Juan Baptista Casares ، من جنوه (إيطاليا) طالبًا تصريحًا لإرسال المسلم عبدالله Abdalla لعملية الافتداء [٦٤]، وفى عام ١٥٥٤ اتفق عديد من المواطنين المقيمين مع صاحب زورق لإرسال المسلمين التابعين لهم إلى أفريقيا، ولهذا الغرض امتثل أمام قاضى محكمة التفتيش كل من على Ali، إحسان Ysan ، ظافره Zafra وجوده Guda والمترجم أندريس كارمونا Andrés Carmona ، الذى عنه يقال أنه بإمكانه الذهاب لكونه رجلاً محل ثقة ولكونه متزوجا وله عائلة فى جران كناريا [٦٥].

وكل عام كان يمثُل أمام المحكمة عدد من الأسرى المسلمين، الذين على الرغم من اقناعهم بارتدادهم إلى المسيحية فإنهم كانوا يحافظون على عقيدتهم الإسلامية مثل المواطنات المسلمات «حامينا Hamena، هانادا Hanada وعباده Abbada .

وفى أحيان أخرى عندما كان يتم الطلب أو الالتماس من جزيرة أخرى مثل ذلك الالتماس الذى طلبه خيرونيمو اجنيسى Jerónimo Agnese لنقل كل من موسى Musa وبارجاس Barjas وآبو Abu وعقيد Ahuide والبتول Elbatul لعملية الافتداء إلى ساحل المغرب من جزيرة لانثاروتى، كانت المحكمة ترسل لجنة إلى الجزيرة المذكورة حتى يتمكن الأسقف من إعلام الأسرى بالفائدة التى سيكونون عليها باعتناقهم للمسيحية لإنقاذ أنفسهم وذلك لكونهم ضلوا وأخطأوا باتباعهم شريعة محمد [٦٧].

وبما أن التقارير التى يدور حولها التعليق تكون فى إطار التكرار، نظرا لمعالجة نفس الموضوع، وبخصوص منح التصريح ، فإن قضاة محاكم التفتيش كانوا يضعون التعديلات والعراقيل التى تحول دون التنفيذ بمجرد أن يكون هناك طفل بين العبيد الأسرى المنقولين إلى ساحل المغرب، ومثال على ذلك، فى عام ١٥٥٢ امتثل أمام قاضى محكمة التفتيش خوان دى تريجيروس Juan de Trigueros ، المقيم فى تنريفى وقبطان السفينة، ، والذى كان متعجلاً للرحيل إلى جيده Geida بصحبة الربان ودليل المركب أمادور دى بابييا Amador de Pavila والمترجم الونسو اسبينو Alonso Espino، طالبا تصريحًا بنقل ٣٣ فرداً من الأسرى المسلمين ، من بينهم الكبار والصغار، والذكور والإناث ، وهم أبراى Abray، تاجيدى Taguidi، حاجة Haxa (٤٠ سنة) تيداى Tiday (٣٥ سنة) ، حاجة Haxa (٥٠ سنة) ، فاطمة Fátima ، مريم Marium (٣٠ سنة) مع طفلة رضيع بدون إسم، تندمان Tendeman (٣٠ سنة) ، تيدار Tidar (٣٠ سنة) منصوره Mansora (٤٠ سنة) ، وجميعهم ملكًا له باستثناء الاثنتين الأوليتين ، فهما ملكًا لجونثالو رودريجيث Gonzalo Rodríguez وجونثالو جارثيا Gonzalo García؛ تيجيكيله Tegiquila (طاعنة فى السن) ، حاجوا Hagua (٤ سنة) ، حاجوا Hagua (إمرأة عجوز)، تونكير Tonquer (إمرأة عجوز) ، تماريث Tamdriz (إمرأة عجوز) ، فاطمة Fátima (سنة) ، حامد Hamet ، البتول Elba-tul، معن Mahan ، إندهان Endahan ، تاماجاديس Tamagadis، معن Mahan، ويحيى Yahia، أطفال أقل من ٦ سنوات . وأمام هذا التقديم الأخير وبعد الاستشارة المسبقة والتداول مع رجال اللاهوت وفقهاء الآداب وحكماء الضمير رفض قاضى محكمة التفتيش عملية افتدائهم معللاً كونهم أطفالاً قصر وكونهم عبيداً مثل آبائهم، ومن ثم لايمكن السماح بأن يعودوا إلى ساحل المغرب ليظلوا هناك غير مؤمنين وأن العكس هو أنه يجب أن يقوم أصحابهم الأصليون بتعميدهم وتثقيفهم بالعقيدة الكاثوليكية وألا يكون هناك أمل لإمكانية افتدائهم، أما بقية المسلمين الذين أتوا من ساحل المغرب منذ حوالى عشرة شهور يمكن منح التصريح لنقلهم (٦٧).

ويعد اهتمام المحكمة بهؤلاء الأطفال الأسرى والرغبة فى ارتدادهم للمسيحية وضوحًا جليًا. ومثال على ذلك، عندما علمت المحكمة بوجود طفل صغير مسلم فى جران كناريا يدعى ياسين Yacín وأنه لم يكن يرغب فى الذهاب إلى ساحل المغرب وإنما أراد أن يكون مسيحيًا وأن عدداً من الموريسكيين كانوا يمنعونه من اعتناق المسيحية بالاعتداء عليه ضربا إلا أن المحكمة أصدرت أمرا بتعميده وأطلقت عليه اسم خوان Juan (٦٩).

كما أن المحكمة كانت تضع العوائق عندما كان الأمر يتعلق بنقل المسلمين الأحرار والمسلمين الآخرين الذين كانوا يتحدثون اللاتينية واللغة القشتالية القديمة للإقتداء . ففى عام ١٥٦٩ منع كونت لانثاروتى Cond de Lanzarote نقل جونثار Gonzar، مسلم حر ، وتاندوما Tandoma، صبى ومسلم متحدث باللاتينية، وثافرا Zafra، حرة وفاطمة Fátima، فتاة متحدثة باللاتينية والقشتالية القديمة، تافنثارتى Tafenzarte وخليف Halife، فتى مسلم عمره ١٢ عاما [٧٠].

وبهذه الشاكلة يمكننا مواصلة إحصاء العديد من الأسرى الذين يتم منحهم ترخيصًا لنقلهم بخصوص عملية الافتداء ، ولكن حتى لا نقع فى عملية التكرار قمنا بالحذف والاكتفاء بهذا. وفى مقابل هؤلاء العبيد الأسرى كان يتم تحصيل الضعف عادة، وكقاعدة عامة كان هذا يسرى على السود المطلوبين فى متاجر ومحلات بيع السكر والمصنوعات الجلدية ومتاجر العنبر وأسواق الإبل، بصفة خاصة، مثل أولئك الثلاثة الذين قدمهم قريب لهم مقابل فتاة مسلمة تدعى خديجه Hedeyga[٧١]. ومقابل هؤلاء الأسرى كان يتم كذلك الحصول على عمليات افتداء فى صورة معدات عسكرية مسروقة من جانب المسلمين فى عمليات الكر والفر والقرصنة التى كانوا يغيرون فيها على كناريا وكذلك الأسرى والمسيحيين الذين تم اختطافهم وأسرهم فى أفريقيا[٧٢].

١-٢ عملية افتداء الأسرى:

فى بداية هذه الدراسة أشرنا بالتعليق إلى أن خلاص ومناص المسيحيين كان اعتياديًا فى الأراضى الأيبيرية بسبب وجود مسلمين ومسيحيين على ترابها . وفى كناريا لم يكن هذا التعايش عاديًا أو اعتياديًا وإنما القضية تبدأ منذ القرن الخامس عشر عندما كان أهل الجزيرة يقومون بعمليات الدخول والكر والفر فى أفريقيا ، وفى بعض الأحيان كانت الأمور تزداد سوءاً وتفاقمًا وأن الذين كانوا يذهبون بغرض الأسر يقعون هم فى الأسر . ولهذا، كان من بادئ الأمر أن تقوم المؤسسات والهيئات بالمساعدة فى عملية الافتداء لهؤلاء المغامرين ، ودليل على ذلك فى عام ١٥١٥م يوافق اجتماع كاتدرائية كناريا على منح صدقة (مساعدة) قدرها ٦٠٠٠ مرابطى (مسكوكة إسبانية قديمة) لأحد المقيمين فى لا بالما La Palma بشأن عملية افتداء اثنين من أبنائه أسيرين فى أراضى المسلمين [٧٣]. كما كان فى ساحل المغرب عدد كبير من الأسرى المسيحيين الذين كانوا ضحية خداع من أدلائهم الذين ذات مرة انقلبوا ضد أهل كناريا عندما كانوا على أرضهم وبعضهم تم أسرهم بغتة عندما كانوا يقومون بالصيد[٧٤].

وهناك سبب آخر وهو حالة عدم النظام والفوضى التى كانت سائدة عند القيام بعملية السلب والنهب وقطع الطريق والمداهمة،كما يؤكد بذلك والى كناريا السيد الونسو فرناندیث دى لوجو don Alonso Fernández de Lugo ، عند الإشارة فى رسالة يقول فيها : «منذ سنة بهذه المنطقة كانت هناك أربع سفن فقدت الكثير من المسيحيين»[٧٥]، وأن المناوشات والإغارات التى كان يقوم بها البربر فى كناريا سواء بعنصر المفاجأة فى البداية أو بعمليات الغزو للجزر حصدت العديد من الأسرى المسيحيين ، إذ إنه فى عام ١٥٣١م أرسلت إحدى المواطنات فى جران كناريا نصف مسكوكة ذهبية ضمن وصيتها للمساعدة فى عملية الافتداء لإبنة صياد ، تم أسرها فى أراضى المسلمين»[٧٦].

ويقص علينا روميو دى أرماس Rumeu de Armas بعض هذه الأحداث ، وخاصة تلك التى يعلق عليها المؤرخ دييجو دى توريس Diego de Torres، علاوة على أخبار أخرى حيث تقدم بعض النساء نقودا وبضائع من أجل اطلاق سراح أزواجهن الذين وقعوا فى الأسر بساحل المغرب[٧٧].

ولدينا معرفة عن مغادرة سفينة عام ١٥٢٨م متجهة إلى ساحل المغرب بحثا عن المسيحيين الذين كانوا قد مكثوا هناك عندما كانوا فى الأسطول [٧٨]، ونفس الأمر أيضا فى عام ١٥٥٥م عندما كان يؤجر ربان السفينة سلفادور الباريث Salvador Alvarez سفينته الحربية لنائب مجلس البلدية بدرو آثيدو Pedro Acedo بهدف الذهاب إلى أطراف ساحل المغرب لإطلاق سراح أفراد مسيحين كان قد تم أسرهم عندما كانوا فى الأسطول [٧٩]، وفى عام ١٥٥٦م كان قد ذهب لافتداء ثلاثين مسيحيا[٨٠].

وكان لاستمرار عمليات أسر الكناريين فى أفريقيا بسبب حالة الفوضى الموجودة فى الاغارات والغزوات أن جعلت البلاط الملكى يتدخل، حيث أصدر أمرا ملكيا يوم ١٩ يونيه ١٥٥٦م يفوض فيه حكام جزر كناريا بأحقية السماح أو المنع لعمليات الدخول إلى ساحل المغرب مع المراعاة بصفة خاصة أن الراغبين فى الدخول «مسلحين جيدا وبرفقتهم قادة على قدر كبير من الخبرة والممارسة»[٨١].

وبعد هذا التاريخ استمرت الحملات والإرساليات : ففى عام ١٥٥٦م تم استئجار سفينة أمادور دى بابيا Amador de Pavía لنفس الغرض [٨٢]، وفى عام ١٥٥٧م تدخل صاحب الترخيص مانسيا دى لوجو Mansilla de Lugo[٨٣] ؛ وفى نفس العام قام آباء الأبناء المأسورين بساحل المغرب باستئجار سفينة المواطن بلتسار جونثاليث Baltasar Gonzalez المقيم فى لا بالما La Palma [٨٤].

http://al-maktabeh.com

وبعد عدة سنوات اتفق سيد فويرتى بينتورا Senor de Feurteventura جونثالو دى سابيدرا Gonzalo de Savedra مع قبطان مركب ومع دليل موريسكى بهدف الدخول إلى أفريقيا والحصول على أخبار عن المسيحيين الذين كانوا قد ظلوا هناك وذلك نتيجة لعملية دخول كان قد قام بها .

وهذه هى الأخبار التى تركت بصماتها فى الوثائق ، وإن كان من الواضح أن هناك عدداً أكثر من الأسرى الذين تم الإمساك بهم بالقرب من السواحل الأفريقية.

وكان القيام بعمليات الافتداء هذه مماثل لنفس العمليات التى كانت تختص بافتداء المسلمين ، مع وجود فارق، وهو أن العمليات التمهيدية ونفقات توظيف المال كانت على عاتق عائلات الأسرى وأصحاب السفن والسلطات المختصة.

وفى عام ١٥٨٤م قام السيد جونثالو دى سابيدرا بحملة لافتداء سبعة من المسيحيين وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين ، ومن أجل انقاذهم حمل معه ٤٧ عبدا أسيراً ، كبيرا وصغيرا، الذين أحضرهم كعاقبة للأسطول المذكور ، وكذلك موريسكى كمتحدث بلسانه الذى يؤكد إخلاصه ووفائه له [٨٦]. ووجد هذا السيد نفسه، بالاتحاد مع حاكم جران كناريا ، ملزما بأن يسلم زوجة سلبادور أومبييريث Slavador Umpiérrez ، المواطن المقيم فى فويرتى بينتورا ، الذى أسر بساحل المغرب، مبلغا قدره ٢٠٠ مسكوكة ذهبية قيمة إعاشة سنوية للزوجة وأولادها، بالإضافة إلى ١٠٠٠ أوقية - ما يعادل ١٩٢٠٠٠ مرابطى- مع المصروفات والتكاليف التى يتحملها زوجها حتى يصل إلى فويرتى بنيتورا[٨٧] وذلك بموجب الدعوى التى قدمتها إيزابيل فرنكا Isabel Franca ، زوجة المذكور .

وفى ممرات أخرى كان المسلمون أنفسهم يطلبون نمط ونوع الافتداء لأسباب عائلية كثيرة تتعلق بأسراهم فى كناريا . فمثلا ذهب برتغالى إلى جران كناريا لشراء اثنين من الأسرى المسلمين، تكون الطلبات هى افتداء بعض المسيحيين الأسرى بساحل المغرب [٨٨]. كما كانت هذه الطلبات تتضمن أشياء أخرى. وقد سلم آباء كل من جوتيرى دى اسكوبيدو Gutierre de Escopedo، وجونثالو دى بيرا Gonzalo de Vera وخوانا دل بورتال Jauna del Por-tal السيد منسيبا Mansilla وخوان دى بالبردى Juan de Valverde ، مفتش الضرائب فى تنريفى Tenerife ، مبلغ ٢٠٠ مسكوكة ذهبية وعبدا أسودا و٣قطع سجاد رقيقة وسترة من القماش وقلنسوة قرمزية اللون وقبعة وقميصان وبعض الأحذية ، وكلها جديدة من أجل افتداء إبنهم [٨٩].

وفى مناسبة أخرى كان المسلمون يطلبون مبلغا من المال نقدا مقابل عملية الافتداء وكانوا يحتجزون أحد الكناريين رهينة مقابل انتظار عودة صاحب الشان بباقى المبلغ النقدى [٩٠].

وإلى هنا تنتهى رواية هؤلاء المغامرين الذين سقطوا أسرى فى أفريقيا كمحصلة لعمليات الإغارة التى كانوا يقومون بها، ولكن ابتداء من النصف الثانى من القرن السادس عشر ازداد عدد الأسرى الكناريين نتيجة لعمليات الاغارة المدبرة وعمليات الاعادة من جانب القراصنة البربر على لانثاروتى وفويرتى بينتورا بصفة أساسية. وفى عام ١٥٦٩ تم أسر ٩٠ مسيحيًا و٢٠٠ فى عام ١٥٨٦ وغيرهم كثر فى عام ١٥٩٣[٩١]، وكان لعمليات السطو والأسر أن جعلت السلطات بالإضافة إلى محاولة تخليص وإطلاق سراح الأسرى، تدفع برجال البحر وربابنة السفن بالقيام بمراقبة سواحل الجزر والإخطار بوصول العدو[٩٢].

وفى مرات أخرى كانت تتم عمليات إغارة وغزوات وكانت المحصلة أسر مسيحيين، وكانت تقوم المؤسسات العاملة فى الجزر، ومن بينها مجمع الكنائس، بتقديم المساعدات: ففى عام ١٥٦٩ أعطى المجمع ٥٠ مسكوكة ذهبية لخوان بوتييا Juan Botella، المواطن المقيم فى جزيرة لانثاروتى ، بهدف المساعدة فى افتداء زوجته وأبنائه وأشخاص آخرين؛ وفى يونيه ١٥٧٠ منحه المجمع الكنسى نقودا لنفس السبب؛ وفى يوليو من نفس العام قدم المجمع ١٢ مسكوكة ذهبية لسلبادور بونييا Salvador Bonilla لإفتداء زوجته وخمسة أبناء، وفى أغسطس ١٥٧٥ سلم نفس مجمع الكنائس ٢٠ مسكوكة لماريا دى بيتانكورت María de Betancount لافتداء زوجها الأسير بساحل المغرب[٩٣].

ولم تكن هذه الإغارات تسبب أضرارا للمواطنين المقيمين فى الجزر، وإنما كانت تحدث أضراراً فى الأطراف القريبة من الجزر والتى أصبحت تعيش فى مثل هذه الظروف الصعبة. ومثال على ذلك أن أحد المواطنين فى ريبادير Ribadeo، بجليقيه Galicia، فقد ابنه عندما كان ماراً بكناريا وهو فى طريقه إلى الهند، حيث تم أسر الابن من جانب بعض سفن المسلمين الشراعية ؛ وحتى يستطيع أن يواصل طريقه وجد نفسه مضطرا للإمساك بشخصين حتى يصل إلى اتفاق لافتداء ابنه بالسعر الذى يناسبهم [٩٤]. وهناك مواطن آخر بقادش Cadiz تم أسره فى نفس التاريخ من عام ١٥٨٦م، ولكن تم افتداؤه من جانب السيد أرجوتى دى مولينا Ar-gote de Molina، الذى افتدى أيضا عريف الملاحين بسفينة مقابل ٥٥٠ مسكوكة دفعها إلى المسلمين ولهذا التزم بسداد الدين[٩٥].

أما أولئك الذين ليست لديهم إمكانية فى تلقى المساعدات من المؤسسات والذين ليست لديهم ممتلكات مثل عائلة منثيا دى كاردونا Mencia de Cardona ، التى عرضت أمهم للبيع، وربما بهدف عتقها هى وأولادها [٩٦]، ولم يكن أمام هؤلاء سوى طلب المساعدة ، كما كانت هى العادة فى شبه الجزيرة بموجب ترخيص ملكى[٩٧]. وفى عام ١٥٩٣م لجأ إثنان من المقيمين إلى هذه الطريقة كحل، الشخص الأول: كاتالينا جونثاليث Catalina González التى أعطت تفويضا لمواطن مقيم يدعى فرانسيسكو دى اورتيجا Francisco de Ortega، الذى طلب باسمها مساعدة من الشخص الذى يراه مناسبا حتى يمكن افتداء زوجها وأولادها وأختها وابن عمها الذين وقعوا فى الأسر فى أراضى المسلمين بالامساك بهم فى لانثاروتى Lanzarote [٩٨]. والشخص الثانى هو خوان مارتين Juan Marín المقيم فى فويرتى بنيتورا Fuerteventura الذى أعلن فى نوفمبر من نفس العام أن الجزيرة تم السطو والهجوم عليها من جانب المسلمين منذ ثلاثة شهور وأن المسلمين أسروا العديد من المواطنين وكان من بين المأسورين امرأة وأبناؤها الخمسة، وأنه لم يكن هناك أى إمكانية أو ممتلكات لإنقاذها وإفتدائها مع أولادها ، وأنها طلبت باسم الرب أن يساعدها فى إطلاق سراحها لأن طلبها عادل، وفوضت جاسبار هيرنانديث Gaspar Hernández لكى يطلب باسمها المساعدة فى كل ممالك وأقاليم إسبانيا وبلاد الهند حتى يتم إنقاذها وافتدائها [٩٩]. ومع ذلك فإنه فى عام ١٥٩٩م اعتنق أربعة من أبناء خوان مارتين الموريسكيين الاسلام[١٠٠].

ومن بين كل الأسرى الذين أشرنا إليهم، نجد أن الموضوع الهام الذى أشار إليه المؤرخ بييرا أى كلابيخو Vieray Clavijo ، المتمثل فى زوجة وابنة ماركيز لانثاروتى السيدة إينيس بينيتيث دى لاكوبا Ines Benitiz de la Cueva والسيدة كونستانثا دى هيرايرا Constanza de Herrera، فقد تم إنقاذ وافتداء هاتين السيدتين من جانب المركيز بمبلغ ١٥٠٠٠ مسكوكة ذهبية ، تم تقديم ٥٠٠٠ مسكوكة ذهبية منها عند الاتفاق ، وعند التسليم تقديم ١٠٠٠٠ مسكوكة ذهبية الباقية للسيد فرانسيسكو سارمينتو Francisco Sarmiento ، أخوه الشرعى، ولماركوس دى سان خوان بيراثا Marcos de san Juan Peraza[١٠١] باعتبارهما رهينتين واللذين كانا أسيرين فى المغرب حتى عام ١٥١٩م على الأقل. وهو التاريخ الذى تؤكد فيه زوجة السيد فرنسيسكو ، السيدة سباستيانا دى سوسا Sebastiana de Sosa أنه كان رهينة بساحل المغرب[١٠٢]. وكانت عملية الافتداء هذه مكلفة للغاية بالنسبة للماركيز ، وكان على زوج ابنته السيد جونثالو دى أرجوتى إى مولينا don Gonzalo de Argote Molina بمبلغ ٢٠٠٠٠ مسكوكة ذهبية وليس ١٥٠٠٠ مسكوكة على النحو

التالى : ١٠٠٠٠ مسكوكة ذهبية عند الاتفاق ، ١٠٠٠ رسوم العلم ، ١٥٠٠ لموراتو أرانيث Morato Arraez والمبلغ المتبقى ٨٥٠٠ مسكوكة عند تسليم الرهائن ١٠٢٠٠ مسكوكة ذهبية ، الذى قام بدوره بتسليمهم للتاجر بلتسار بولو Baltasar polo بنفس القيمة .

وفرض المجلس الملكى إدعاء ضد الماركيز يمنعه فيه الخروج من إسبانيا حتى يتم دفع مبلغ الفدية . وقام أرجوتى Argote بتسهيل الأمور ووعد بتسليم المبلغ فى ضورة ممتلكات بمبلغ ١٢٠٨٥٠ريال reales، سدد ١١٢٢٠٠ ريال كان دينا لبلتسار بولو Baltasar polo ومبلغ ٨٦٥٠ ريال لافتداء مسيحيين آخرين فى لانثاروتى Lanzarte ، تم أسرهم بساحل المغرب. والأملاك التى وعد بها أرجوتى Argote كان على تاجر لانثاروتى وفويرتى بينتورا وإشبيليه بلتسار Baltasar أن يحصلها حيث أعطى تفويضا لصهره وأخته إيزابيل دى مولينا Isabel de Molina الذين كان عليهما الالتزام بتنفيذ ما اتفق عليه [١٠٣].

ومع ذلك فإن سداد المبلغ لم يتم الوفاء به، إذ أنه فى عام ١٥٩٩ فوض بدرو دى فيجيروا Pedro de Figueroa ، المقيم فى إشبيلية ، مواطنًا آخر بإشبيلية ، مولود فى جران كناريا ، لكى يمثل أمام القضاء بشأن التنفيذ فى ممتلكات الماركيز، والمطالبة بالنفقات المترتبة على ذلك اعتبارا من ٥ يونيه ١٥٥٩م وسداد قيمة السفريات التى تم القيام بها إلى الجزر وتحصيل المبلغ المتنازل له من بلتسار بولو فالنسيانو Baltasar Polo Valenciano، المقيم فى المغرب على أساس ١٠٢٤٩ مسكوكة ذهبية كدفعة أولى و١٠٤٠٤٠٠ مرابطى قيمة مصروفات القضايا التى رفعها بولو Polo ضد الماركيز بشأن سداد المسكوكات الذهبية والنفقات التى صرفها فرانسيسكو سارمينتو Francisco Sarmiento وماركوس دى سان خوان Marcos de San Juan [١٠٤].

وكما أمكن التحقق والتثبت على الرغم من امتلاك الممتلكات ، فإن بلوغ عمليات الافتداء للمسيحيين لم يكن بسيطًا مثل حالة عمليات الافتداء بالنسبة للمسلمين . ومن الطبيعى أن أقارب هؤلاء المسلمين ، الذين كانوا يعيشون فى نفس الأماكن التى كان يمر منها الكناريين، كانوا ينتظرون عودتهم ويأخذونهم كأسرى وينقلونهم من مكان إلى مكان وكان يتم مقايضتهم فى المغرب بسرعة فائقة . وكانت عمليات إطلاق سراح المسيحيين تستغرق، فى بعض الأحيان، ٢٠ سنة ، كما رأينا فى المثال الأخير ، فى حين أن إفتداء المسلمين كان يمكن الانتهاء منه فى غضون أسابيع أو شهور .

الهوامش : عملية افتداء الأسرى الكناريين بساحل المغرب

١- كارلوس ألونسو فونتيلا : الرق من خلال الإنجيل ، مدريد ، ١٩٨٦، ص٣٢-٣٣ .

Alonso Fontela , C.: La esclanited a traués de la biblia , Madria 1986, pp. 32-33 .

٢- الأوامر الملكية لقشتالة ، سلمنقة ، ١٥٦٠، عمود ٣١١ .

Ordenanzas Reales de Castilla, Salamanca, 1560 , columna 311 .

٣- المصدر السابق ، الأعمدة ٣١٣- ، ٣١٥ يضاف : «وإذا تملك سيد المسلم فى الحرب أو فى غزوة أخرى، يكون من حق السيد أن يبيعه بالمبلغ الذى يريده . وإذا كان مسلمًا يباع فى مزاد علنى أو بأى طريقة أخرى للبيع ويرغبه أحد بنفس السعر مقابل المسيحيين يقدم له هذا المسلم مقابل هذا العدد ...»

٤- مانويل لوبو كابريرا : الرق فى جزر كناريا الشرقية فى القرن السادس عشر (السود والمسلمون والموريسكيون) لاس بالماس، ١٩٨٢ ، ص٦١-٨٩ .

Lobo Cabrera, M.: La esclavitud en las Canarias Orientales en el siglo XVI (negros, moros y moriscos) las Palmas, 1982, pp. 61-89 .

٥- أ. ثيورانيسكو : «ملشور مانسيبا دى لوجو، تاجر العبيد (١٥٢٦-١٥٧٥)»، كتاب دراسات الأطلنطى السنوى ، ٩ (١٩٦٣) ، ص١٢١ .

Cioranescur, A.: "Melcher Dransilla de lugo , un licenaiado negreso 1526 -1575), Anuario de Estudios Atlánticos, 9, (1963), p. 121 .

٦- وعلى سبيل المثال ، فى عام ١٥١٦ قام كل من بدرو دى لوجو Pedro de Lugo وبارتولوميه بينيتيث Bartolomé Benítez وأندريس سواريث جاباييناتو Andrés Suarez Gallinato وماركوس بيردى Marcos Verde بتنظيم حفلة موسيقية لإرسالية وحملة الافتداء إلى ساحل المغرب: أ. ثيرانيسكو: تاريخ ؛روث دى تنريفى، الجزء الثانى، ١٤٩٤-١٨٠٣م، تنريفى ١٩٧٧، ص٣٧٥ .

Cioranescu, A: Historia de Santa Cruz de Tenerife, 11, 1494-1803 , Tenerife, 1977, p. 375 .

٧- فى عام ١٥١٩ يعترف كل من بيثنتى مونتيس دى أوكا Vicente Montes de oca ورودريجو دى أوكانيا Rodrigo de Ocana ، الكاتب بالعدل، ومن المقيمين فى لاس بالماس Las Palmas، أنهما أعطيا برناردينو دى لاسرنا Bernardino de la Serna، أمين خزائن مال سانتا كروثادا Santa Cruzada، جزءًا فى الشركة التى أسسها الأول مع لويس دى أداى Luis de Aday للذهاب إلى عملية الافتداء بساحل المغرب. سلم أمين خزائن المال أمة مسلمة عمرها ٣٥ سنة: السجل التاريخى الإقليمى

فى لاس بالماس ، كريستوبال دى سان كليمنتى، رقم ٧٣٤، صفحة ١٢٢، مكررة .

Archivo Histórico Provincial de las Palmas , Cristóbal de San Clemente, n. 734, f. 122 r.

٨- وثائق السجل التاريخى الإقليمى فى لاس بالماس ، بدرو دى أسكوبار ، رقم ٧٦٨، الصفحة ٦٩ ؛ الونسو دى بالبوا، رقم ٧٧٠ : بلتسار جونثاليث Baltasar Gonzalez، المقيم فى لا بالما La Palma ، ريان وصاحب المركب سان خوان San Juan، التى أجرها إلى كل من دييجو دى سيكيرا وجونثالوا دى بيرا وللآباء الذين لديهم أبناء أسرى فى أراضى المسلمين.

A.H.P.L.P., Pedro de Escobar , n. 768 , p. 69; Alonso de Balboa, n. 770 .

٩- السجل التاريخى الإقليمى فى لاس بالماس ، ألونسو دى بالبوا ، رقم ٧٦٩، انظر صفحة ٢٤٠ .

A.H.P.L.P., Alonso de Balboa, n. 240, f. 240, v.

١٠- كان الرُبان سلبادور الباريث Salvador Alvarez يتسلم ٤٢ مسكوكة ذهبية سنويا ، السجل التاريخى الإقليمى فى لاس بالماس ، أوريانو دى باديبا، رقم ٧٦٣، صفحات ٢٣٧-٢٣٩ مكررة.

A.H.P.L.P., Adriano de Padilla, n. 763, pp. 237-239 r.

١١- كان بحارة حملة الافتداء التى تمت فى عام ١٥٥٢ يتسلمون راتبًا شهريًا حوالى ٥,٥ مسكوكة ذهبية.

A. H.P.L.P., Luis Fernandez, n. 761 , p. 117 .

١٢- السجل التاريخى الإقليمى فى لاس بالماس ، خيل دى كيسادا، رقم ٧٥٨ ، الصفحات ٢٠٠-٢٠٢: فى عام ١٥٤٥ كان بدرو إيرنانديث دى سابدرا Pedro Hernández de Saavedra، صاحب لانشاروتى Lanzarote وفويرتى بنيتورا Fuerteventura ملزمًا بطعام وشراب كل طاقم البحارة.

A.H.P.L.P., Gil de Quesada, n. 758 , ff . 200-202 .

١٣- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Alonso de Balboa, n. 775 , f.r.

فى هذه المؤسسات تم التقرير بأن الرُبان يمكنه إفتداء عبد أو جارية، أسيرة حرة من كل شئ، بمسكوكة ذهبية، والبحارة بالمسكوكات الذهبية التى يرغبونها على ألا يتجاوز عددها اثنتين لكل بحار.

١٤- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Luis Fernandez, n. 761, f. 117 .

فى هذه الحملة كان يوجد دليل وصبى ملاح، حيث كان يتلقى الأول أجراً قدره ٦ مسكوكات ذهبية والثانى مسكوكتين و٧ ريالات شهريًا.

١٥- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Luis Fernández , n. 761 , f. 125 .

يتم التعهد أنه إذا لم يتم إحضار هذه القطع، عليهم سداد مبلغ خمس دوقيات ذهبية عن كل واحدة.

١٦- فى عام ١٥٦٠م، يقول كل من جونثالو رودريجيث وبارتولوميه بيلاثكيث أونتيبيروس : أن الرُبان سيمون أعطاهما وسلمهما قطعتين من المدفعية الخفيفة مع أربعة قواعد لها وإثنتا عشرة كرة وذلك بهدف حملها فى السفينة التى تتوجه إلى ساحل المغرب. ويلتزمان عند عودتهما من عملية الافتداء أن يسلمانه كل شئ وإذا لم يقم بعملية التسليم بالشكل والحالة المتفق عليها سوف يمنحانه اثنتى عشرة دوقية ذهبية.

A.H.P.L.P., Antonio Lorenzo, n. 807 , s.f.

١٧- حسب الاتفاق الممنوح فى تنريفى عام ١٥٤٩ بين لويس بيردومو وفرنانديسكو سورلورثانو دل أويو.
Cioranescu, A." Historia ..., p. 380 .

١٨- فى عام ١٥٣٨ م سيتلقى لويس دى أداى لكونه الناطق بلسان الحملة عن كل رأس من العبيد الأسرى تم الفوز بها نصف مسكوكة ذهبية.

Cioranescu, A.: Historia...

١٩- فى عام ١٥٦٠م، عندما كان مانسيبيا دى لوجو يتعاقد بشأن خدمات الموريسكيين السيد/ دون لويس دى باديبا ولويس دى باديبا ليكونا أدلاء إلى ساحل المغرب كان يعدهما بأشياء أخرى من بينها : إذا أحضرا عدداً من المسلمين أو السود خلسة من الشاطئ يكونا ملزمين بإبحارهم فى السفن على أن يكون نهاراً وليس ليلاً وأن يدفع لهما أجرة السفينة : فرانثيسكو ميندث ، رقم ٨١٦ ، انظر صفحات ٢-٥ .

٢٠- الأوامر الملكية ... عمود ٣١٦ .

Ordenanzas Realez .., columna 316 .

٢١- تم قراءة هذا المرسوم فى لانثاروتى Lanzarote وفى مقر كنيستها يوم ١٥يسمبرس١٥٣٢م : سجل القصر، مجموعة وثائق ساحل المغرب.

Archivo Alcazar , Legajo Berbería.

٢٢- ١٩ فبراير ١٥٣٣م- بناء على طلب خوان بيردومو تم منح ترخيص حتى يمر إلى ساحل المغرب ٤٥ موريسكى وزوجاتهم وأبناؤهم باعتبارهم أشخاصاً جديرين بالثقة العالية فى لانثاروتى، سجل القصر، مجموعة وثائق ساحل المغرب.

A.A., Legajo Berbería.

٢٣- سجل متحف كناريا ، محاكم التفتيش ، مجموعة وثائق ١٣١-١٧ . فى القضية التى بدأت فى

عام ١٥٥٢م يؤكد أنه فى خلال ثلاث سنوات كان قد ذهب إلى ساحل المغرب خمس مرات.

Archivo Canario , Inquisición, leg. CXXXI .

٢٤- أمر عال صدر فى كناريا بتاريخ ٢٦ يناير ١٥٥٢م، سجل متحف كناريا، محاكم التفتيش، مجموعة وثائق ٦٢-٣٦ .

A.M.C., Inquisición, leg . 62-32 .

٢٥- عالج هذا الموضوع أ. روميو دى أرماس : إسبانيا فى أفريقيا الأطلسية ، مدريد، ١٩٥٦، ص٥٩٥-٥٩٦ .

A. Rumeu de Armas : España en Africa Atlántica, Madrid, 1956 , pp. 595-596 .

٢٦- السجل التاريخى ...

فى الوثيقة يعترفان بقولهما أن الترخيص الذى منح لها ولزوجها ألزمهما العودة إلى الجزيرة بالسفينة «كـابريرا Cabrera» وعليهما تنفيذ ذلك خلال أربعة أيام بعد العودة بالمركب. وإذا ظلت السفينة «كابريرا» بساحل المغرب كان عليهما دفع ٣٠٠ دوقية لمحكمة التفتيش.

A.H.P.L.P. Roque de Loreto , n. 857 , f. 108 r.

٢٧- هكذا تعلن ذلك بنفسها فى عام ١٥٨٧م حسب شهادة موزع الجرايات أنطون دى بيجا : سجل متحف كناريا ..

A.M.C., Inquisicion , fondo Bute, vol . XI , fs. 20 r y 40 r.

٢٨- السجل التاريخى ...

نظراً لضياع كل المحتويات بسبب سرقة بعض سفن العدو، أعطى قاضى التحقيق بمحاكم التفتيش ، ألونسو ريدوندو ، تفويضاً لكى يحصل من الربان كل شئ وكل الخسائر التى مُنى بها .

A.H.P.L.P., Francisco Méndez , n. 822 , p. 107r.

٢٩- سجل متحف كناريا ، محاكم التفتيش ، موضوعات متنوعة، دون تصنيف .

إنه فى يوم ٨ يوليه ١٥٧٢م يقول أحد البحارة المقيمين فى لاس بالماس فى شهادته أنه لايمكن قبول الاتصال مع المسيحيين بأى طريقة أخرى.

A.M.C., Inquisición, fondo Bute, 2@ serie, procesos - carcel, f. 103r.

٣٠- سجل متحف كناريا ...

A.M.C., Inquisicion , fondo Bute @ serie, vol II, f. 105 r.

٣١- السجل التاريخى ...

A. H. P. L. P., Luis de Balboa, n. 860 , f.r.

٣٢- سجل متحف كناريا ...

A.M.C., Inquisicion , fondo Bute, 2 @ serie, voll. II, f. 105 r.

٣٣- مجموعة القوانين الإسبانية ، المجموعة الرابعة ، الوثيقة ٢١ ، القانون الرابع.

Códigos espanoles, Partida 4 @ , Título 1 , ley IV .

٣٤- المجموعة الجديدة من قوانين إسبانيا ، المجلد الثانى عشر ، المجموعة الثانية، القانون الثانى : «عقوبة أولئك الذين يخرجون أشياء ممنوعة أو أشخاص ، ليكونوا مسلمين أو يهوداً ، إلى أراضى المسلمين ». الأوامر الملكية...، الأعمدة ٣١٠-٣٢٠ : «عقوبة لأولئك الذين يقدمون إعاشة وطعام فى أراضى المسلمين.

Novísima Recopilación de las leyes de Espana, Libro XII, titulo II, ley II, Ordenanzas reales ..., columnas 310-320 .

٣٥- مانويل لوبو كابريرا : «كناريا وساحل المغرب : «العلاقات التجارية فى أوائل القرن السادس عشر» المؤتمر الإسبانى الأفريقى لحضارات حوض المتوسط (١٩٨٤).

Lobo Cabrera, M.: "Canarias y Berbería: relaciones comerciales en los comienzos, del siglo XVI", Congreso Hispano- Africano de las Culturas Mediterraneas, (1984) .

٣٦- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Gil Quesada, n 759, f. 423 r.3.

٣٧- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Pedro Escobar , n. 764, f. 889 v.

٣٨- سجل متحف كناريا ، محاكم التفتيش ، موضوعات متنوعة، بدون تصنيف .

«وهكذا أقسم أنطون ميرشانتى Anton Merchante، قبطان وقائد السفينة ، بدرو جونثاليث Pedro Gonzal ، نائب القبطان ، فرانثيسكو جونثاليث Francisco Gonzalez وبدرو دى سانتو أندريس Pedro de Santo Andrés موريسكيان».

A.M.C., Inauisiciones ...

٣٩- السجل العام بسيمانكاس ، غرفة قشتالة ، مجموعة أوراق ١٣٤-١٣٧ ، بدون تاريخ.

Archivo General de Simancas Cámara de Castilla, leg . 134-7 , sin fecha.

٤٠-سجل متحف كناريا ...

«فى نفس الرسالة يندد المفتش بقوله إنهم يذهبون ويأتون إلى ساحل المغرب كل يوم وينصون هناك الأسلحة التى يحملونها »

A.M.C., Inquisicioe fondo Bute, vol I, f.LXXIIIr

٤١- السجل التاريخي الوطني، محاكم التفتيش ، مجموعة أوراق ٢٣٦٣، المذكورة على لسان أ. روميو دى أرماس، المصدر السابق، ص٥٩٧ .

Archivo Histórico Nacional , Inquisicion , leg 2,363, cit .por Rumeu de Armas, A: . Op. cit ., p. 597 .

٤٢- خ.م . سيلفيا ماركيس: اكتشافات برتغالية. وثائق لتاريخها ، منشورة ومقدمة بواسطة ... لشبونه ، ١٩٤٤ ، ملحق المجلد الأول، الوثيقة ١٧ ، ص٢٧ .

Silvia Marques , J.M. da : Descobrimientos portugueses. Documentos para a sua historia, publicados e prefaciados por ... Lisboa , 1944 , Suplemento vol , I, doc. 17 , p. 27

٤٣- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Cristobal de san Clemente, n. 734 , fs. 122-147 , 149 y 285 r.

٤٤- السجل التاريخى ...

«إذا لم يتم الحصول على فريسة (أسيرة) فى هذه الرحلة، يلتزم بتسليمها بعد الوصول من رحلة أخرى، ويرهن لهذا السبب ثلثى قيمة العبد الأسير (حامد) Hamete، الذى يكون برفقته ، ونصف قيمة العبده الأسيرة (فاطمة) Fátima، التى تكون أيضًا برفقته».

A.H.P.L.P., Cristobal de San Clemente,n. 736 , p. 39 .

٤٥- م. لوبو كابريرا : الرق ...

Lobo Cabrera, M. La esclavitud, pp. 122-123 ; Cioranesci, A.: " Melchor Mansilla..." pp. 116-162 .

٤٦- السجل التاريخى...

«عن كل عبد أسر كان حضر إليه كان عليه أن يدفع له ٨ مسكوكات ذهبية، دون أى التزام آخر».

A.H.P.L.P., Franiso Mnz, n 816 , f. 67 r.

٤٧- السجل التاريخى ...

«ولهذا يعطيه ثريانتيس ١٠ مسكوكات ذهبية وقنطار بسكويت (بقسماط) وكان يضع شرطًا بأنه رذا لم يتم افتداء العبدة الأسيرة سوف يعطيه ٤ مسكوكات فقط عن عمله . (القنطار يساوى ١٠٠ كجم حاليًا وكان يعادل ٤٦ كجم قديمًا) .

A.H.P.L.P., Alonso Hernández, n 789 , f, 165 r.

٤٨- السجل التاريخى ...

«حتى يتم نقل المسلم إلى عملية الافتداء يكون فى إمكان أورتيث Ortiz أن يستخدمه وأن يجنده لخدمته».

http://al-maktabeh.com

A.H.P.L.P., Franciscio Mendez , m 816 , f. 11 r.

٤٩- أولئك الذين يرسلون الأسرى يعطون مبلغًا من المال إلى المكلفين بعملية الافتداء، ما بين ٨ و ١٠ مسكوكات علاوة على شئ من البسكويت (البقسماط) .

٥٠- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Francisco Méndez, n 821 , f. 6r.

٥١- السجل التاريخى ..

A.H.P.L.P., Lorenzo Palenzuela . n . 831, f.r.

«كانت هذه الجارية الأسيرة تابعة للمقيم فى لاس بالماس البارو رودريجيث Aflvaro Rodríguez الذى سلمها إلى المقيم فى تنريفى Tenerife مانويل جونثاليث Mannel Gonález ، رئيس سفينته .

٥٢- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Ambrosio de Campos, n 884 , f. 360 v.

٥٣- السجل التاريخى ...

«كان عليه أن يقدم لرودريجو دى بائينا Rodrigo de Baena جملا بقية مقابل افتداء عبد أسير مسلم».

A.H.P.L.P., Cristobal de san Clemente, n. 735 , f. 617 r.

٥٤- السجل العام فى سيمكانكاس ...

Archivo General de Simanceas , Registro General del Sello , 1549, diciembre 22 .

٥٥- السجل التاريخى ...

«ربان السفينة سان ماركوس San Marcos المتعاقد لافتداء أسرى مسيحيين كان مفوضًا فى إمكانية الافتداء مقابل بضائع وأشياء أخرى بإثنين من العبيد الأسرى.

A.H.P.L.P., Alonso de Balboa, n. 769 , f. 240 v. , Adriano de Padilla, n. 763 , f.267 r.

٥٦- السجل التاريخى ...

«تم سداد أجرة السفينة التى يقودها الربان بلتسار جونثاليث Baltasar Gonzalez علاوة على أجرة افتداء المسيحيين وكذلك القيام بأعمال الصيد وكان يحمل لهذا الغرض التوابل والملح والتى كان عليه شحنها إلى جزيرة لابالما La Palma».

A.H.P.L.P., Cristobal de San Clemente, n. 740 , f. 176 r., Rumeu de Armas, A. op. cit ., p. 598 .

٥٨- ر. ريكارد: المقال المذكور ، ص٩٦ .

Ricard , R. Art . cit ., p. 96 .

٥٩- أ. روميو دى أرماس، المصد المذكور ، ص٥٥٢-٥٥٣ .

Rumeu de Armas, A.: Op. cit , pp. 552-553.

٦٠- ريكارد ، المصدر السابق.

Ricard, R.: Art . cit .p. 96 .

٦١- سجل متحف كناريا ..

«الكتاب الأول من خطابات محاكم التفتيش بكناريا إلى سادة المجلس . يشير المفتش إلى أن ما يتم مع المسلمين هو نفس الشئ الذى يفعلونه بأسر المسيحيين».

A.M.C., Inquisición, leg LXVII -7 , Libro 1 de Cartas de Inquisición de Canarias a los Senres del Consejo.

٦٢- سجل متحف كناريا ...

A.M.C., Inquisicón, Asuntos Varios , sin clasificar .

٦٣- المصدر السابق، ...

الموريسكيون هم فرانثيسكو جنثاليث ويدرو دى سانتو أندريس Francisco Gonzalez Pedro de San-to Andrés والمسلمة هى تارجة Targa تابعة للإسكافى خوان بيريث Juan Pérez .

٦٤- المصدر السابق.

٦٥- سجل متحف كناريا ...

«الأسرى العبيد هم ملك بدرو خيرون Pedro Giron،خوان دى ثيبربو Juan de Ciervo، خيرونيمو دى مايويلو Jeronimo de Mayuelo ، وهى شخصيات معروفة فى جران كناريا Cran Canaria وعلى علاقة بالارساليات والبعثات إلى ساحل المغرب».

A.M.C., Inquisicion, leg . LVI- 32 .

٦٦- سجل متحف كناريا ...

A.M.C., Inquisicon , leg .CXXIX-6 .

٦٧- السجل الأفريقى، مجموعة أوراق ساحل المغرب، التماس تم فى يناير ١٥٨٣م.

A.A., Legajo Berbería.

٦٨- السجل الأفريقى...

A.A., Legajo Berbería.

٦٩- سجل متحف كناريا ...

A.M.C., Inquisición, fondo Bute, vol VIII, fs. 201 r., 217 r .

٧٠- سجل متحف كناريا ...

«فى يمين القسم الذى أخذه قاضى محكمة التفتيش على الرُبان وقائد المركب يثبت فيه أنه عند العودة عليه أن يمتثل أمامه لإعطاء تقرير عما حدث فى عملية الافتداء ، وإذا لم يمتثل أمامه عليه أن يخطره بخطاب .

A.M.C., Inquisición, legajo XLVII- 19 .

٧١- سجل متحف كناريا ...

A.M.C., Inquisición , legajo XLVII- 19.

٧٢- سجل متحف كناريا ...

«اهتم قاضى محكمة التفتيش بنفسه ، فونيس Funes، بهذه المعدات العسكرية حسب اعتراف الموريسكى مارثيال دى سابيدرا Marcial de Saavedra.

A.M.C., Inquisición , fondo Bute, vol . III, fs . 150-153 .

Inquisición , fondo Bute, 29 Serie , vol . II, fs . 105 y ss.

٧٣- ر. ريكارد ، المقالة المذكورة ، ص١١٤ .

Ricard , R. Art. cit ., p. 114 .

٧٤- ر. ريكارد : الأسرى الكناريون فى أفريقيا «مجلة التاريخ ، ٦٩ (١٩٤٦)، ص٨٠ .

Ricard, R. Art. cit., p. 114 .

٧٤- ر. ريكارد : الأسرى الكناريون فى أفريقيا «مجلة التاريخ» ٦٩ (١٩٤٥)، ص٨٠ .

Ricard, R, "Canarios Cautivos en Sfrica ", Revista de Historia, , 69 (1945) , p. 80 .

٧٥- السجل العام في سيمانكاس ...

«فى ذات الرسالة يعلن عن فقدان ووفاة مسيحيين فى كل عام بسبب عدم إرسال ربابنة وقادة سفن مهرة ومن أصحاب الخبرة».

A.M.C., Camara de Castilla, Legs. 132-147 , 132-148 .

٧٦- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Hernándo de Padilla, n. 747 , f. 417 , r.

٧٧- أ. روميو دى أرماس، المصدر السابق ، ص٥٩٤-٥٩٥ .

Rumeu de Armas, A.:Op. cit., pp. 594-595 .

٧٨- السجل التاريخى...

«نعرف من هذه المغادرة بالمطالبة التى يقدمها رُبان السفينة بشأن الاستيلاء على هلب السفينة التى كان موكلاً لها بهذه المهمة».

A.H.P.L.P., Cristobal de San Clemente, n.749 , f. 44 r.

٧٩- السجل التاريخى ...

«عمليات الأسطول كانت قد بدأت من جزيرة تنريفى Tenerife».

A.H.P.L.P., Adriano de Padilla, n 763 , f. 237 r.

٨٠- سجل متحف كناريا ...

«للقيام بعملية الافتداء هذه كان يتم اصطحاب مسلمين».

A.M.C., Inquisicon, leg CXXIX-6.

٨١- أ. ثيورانيسكو : «ملشور مانسيليا...» ص١٣٣ .

Cioranescu , A." Melchor Mansilla..", p. 133 .

٨٢- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Alonso de Balboa, n. 769 , f 240 v.

٨٣- المقال المذكور ، ص١٣٨-١٤٠ .

٨٤- السجل التاريخى...

«قام رُبان المركب بإيجار السفينة لدييجو دى سيكيرا Dieg deSequera ولجونثالو دى بيرا Gonzalo de Vera بنفسهما وباسم الآباء الآخرين الذين كان لديهم أبناء أسرى فى أراضى المسلمين».

A.H.P.L.P., Alonso de Balboa, n 770, f.r.

٨٥- السجل التاريخى ...

«كان على الرُبان بدرو دى أوريجويلا Pedro de Origuela أن يصل إلى ميناء سان بارتولوميه San Bartolome حيث كان عليه أن ينتظر الموريسكى المواطن المقيم فى فويرتى بينتورا Fuertventura ثمانية أيام».

A.H.P.L.P., Pedro Negrin Galán, n. 986 , f.r.

٨٦- السجل الأفريقى ...

«لهذا السبب طلب تصريحًا من محكمة التفتيش يوم ٢٢ أكتوبر . وفى نفس السنة ومن فويرتى بينتورا Fuerteventura أرسل بدرو نجرين جالان Pedro Negrín Galán رسالة إلى المحكمة مبلغًا إياها إخلاص ووفاء الموريسكى خوان أرياس Juan Aria».

A.A., Legajo Berbería.

٨٧- السجل التاريخى ...

«كان هذا الأسير فى تاجاوس Tagaos حيث هرب منها حتى مدينة مراكش وهناك اختبأ فى منزل بلتسار بولو Baltasar Polo، الذى أنهى إجراءات خطاب إطلاق سراحه بمبلغ ١٠٠٠ أوقية وزيادة على ذلك سداد ١٠٠ أوقية و٤٠ أوقية إلى قادة الموانئ حسب العُرف المتبع بساحل المغرب».

A.H.P.L.P., Bernardino Palenzuela, n. 929, f. 460 r.

٨٨- و«يشهد بذلك الراهب باسيليو دى بنيالوسا Basilio de Penalosa فى يوليه ١٥٧٢م عندما يقول بأن البرتغالى ذهب إلى السيد قاضى محكمة التفتيش يتوسل إليه بأن يبيعه إثنين من المسلمين كان قد اشتراهما، لأنهم فى ساحل المغرب طلبوا منه هؤلاء الأسرى العبيد لإفتداء مسيحيين».

سجل متحف كناريا ...

A.M.C., Inquisición , fondo Bute, 29 serie, vol . II, f. 112 r.

٨٩- السجل التاريخى ...

A.H.P.LP., Rodrigo de Mesa, n. 779, f. 134 r.

٩٠- أز ثيورانيسكو : «ملشور مانسيبا ...» الصفحات ١٣٨-١٤٠ .

«عندما لم يكن فى حوزة السيد مانسيبا Mansilla المبلغ النقدى المطلوب من جانب المسلمين ترك شقيقه رهينة، وأصبح مضطراً وملزمًا بأن يحضر لهم فى رحلة أخرى المبلغ النقدى المطلوب».

Cioranescu, A.: Melchor Mansilla ...", pp. 138-140 .

٩١- ر. ريكارد : «أبحاث ...» الصفحات ١٠٥-١٠٩- ١١٠- ١١٤ . أ. روميو دى أرماس : أعمال القرصنة والإغارات البحرية ضد جزر كناريا، مدريد ١٩٤٧-١٩٥٠، الصفحات ٦٣٩ وما يليها . خ. بيرا إى كلابيخو: أخبار التاريخ العام لجزر كناريا ، سانتا كروث دى تنريفى، ١٩٦٧ ن ١٩٧١ ، المجلد الأول، الصفحات ٧٢٩-٧٣٠- ٨١٧ .

Ricard. R.: " Recherches..." pp. 105-109 , 110 y 114 Rumeu de Armas, A.: "Piraterías y araques navales contra las Islas Canarias , Madrid, 1947-1950 , pp. 639 y ss. Viera Clavijo, J.: " Noticias de la Historia General de las Islas Canarias ", S.C. de Tenerife, 1976-, vol I, pp.729-730 y 817 .

٩٢- السجل التاريخى ...

«فى عام ١٥٨٨م تم التعاقد مع بدرو خايميس Pedro Jaimes، الفتى، وخوان جوميث Juan Gomez، رجال البحر، للقيام بمراقبة المسلمين على سواحل لانثاروتى Lanzarote وفويرتى بينتورا

Fuerteventura ، وفى عام ١٥٩٠م كانوا يدفعون ٥٠٩ ريال لربان سفينة أحضرت إخطاراً للمدافع عن المسلمين «فرانثيسكو دى كاساريس Francisco de Casares ، رقم ٩٢٤، ص٣٣٥ مكررة».

A.H.P.L.P., Franciso de Casares, n. 923 f. 530 , r. n .924 , f. 335 r.

٩٣- ر. ريكارد: «أبحاث ...» ص١١٥ .

Ricaed , R.:" Recherches ..." p. 115 .

٩٤- السجل التاريخى ...

«التفويض للمواطن المقيم فى ريبا دير Ribadeo المدعى ميجيل بيريث دى بانيوس Miguel Pérez de Panos، والمواطن المقيم فى لاس بالماس Las Palmas، المسمى أجوستين جارثيا لوثانو Agustin García Lozano .

A. H.P.L.P., Luis de Loreto, n 871, f.450 r. y Alonso de San Juan, n. 880, f. 378 r.

٩٥- السجل التاريخى ...

A. H.P.L.P., Lorenzo de Palenzuela, n 843 , fs . 238 r. 240 r.

٩٦- السجل التاريخى ...

«والدتهم، إيزابيل لوخا Isabel Loja ، المقيمة فى فويرتى بينتورا Fuerteventura أعطت تفويضًا لإبنها فى عام ١٥٩٤، بموجب التفويض الممنوح لها من ابنتها أمام شهود بالسفن الشراعية ملك أربوم أراثيث Arbum Araez ، لكى يحصل ثمن كل الممتلكات والأثاث ومفروشات المنزل التى تخص المذكورة فى فويرتى بينتورا ».

A.H.P.L.P., Lorenzo de Palenzuela, n 850 ,f 585 r.

٩٧- م. لوبو كابريرا : «الرق...» ص٩٦ .

Lobo Cabrera, M.: " La esclavitud...", p. 96 .

٩٨- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Teodoro Calderon, n. 900 , s.f.

٩٩- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Francisco Casares, n. 900, f. 535 v.

١٠٠- سجل متحف كناريا ...

A.M.C., Inquisicion , leg . CLXXVII- 100 .

حسب البيانات التى صدرت فى لانثارتى "Lanzarote" .

١٠١- خ. نييرا إى كلابيخو ، المصدر المذكور، المجلد « ١ » ص٧٣٠ .

Viera y Clavijo, J.: Op. cit., vol I, p. 730 .

١٠٢- السجل التاريخى ...

« تؤكد هذه السيدة فى شهر يوليه ١٥٩١م أن زوجها كان رهينة بساحل المغرب ولهذا السبب منحت تفريضًا إلى بومبو أجنيسى Pompeo Agnese، المواطن المقيم ، ليقدم طلبًا لمحكمة كناريا فى لانثاروتى Lanzarote وفويرتى بينتورا Fuerteventura ويطلب تنفيذه ».

A.H.P.L.P., Francisco Suarez, n. 902, f. 303 v.

١٠٣- السجل العام فى سيمانكاس ...

A.G.S., Gámara de Castilla, leg . 2751 .

١٠٤- السجل التاريخى ...

A.H.P.L.P., Francisco Ponce, n. 965 , f. 65 r.

(٧)

الموريسكيون

التمرد - الحرب - والطرد

عديدة هذه الدراسات التى تناولت مأساة الموريسكيين Los, moriscos، أى الأقليات المسلمة التى ظلت تعيش فى إسبانيا المسيحية بعد حروب الاسترداد. هذه الجماعات التى وإن لم يهدر دمها ، فقد أجبرت على أن تنكر هويتها علنا، وظلت فى الخفاء تتواصل مع الجذور، هؤلاء الموريسكيون الذين عاشوا مزساة «التطهير العرقى» منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى، وحتى بداية القرن السابع عشر، فكانوا عرضة للاضطهاد والظلم ، للقمع والرفض .. أبحاث تناولت حياة الموريسكيين الدينية واليومية، وكفاحهم للتمسك بهويتهم ، هجراتهم من مناطق إلى أخرى ، ومراكز تجمعاتهم الجديدة فى الشرق والشمال، وخضوعهم باستمرار لمحاكم التفتيش ... ويبقى كتاب «تاريخ الموريسكيين، حياة ومأساة أقلية» الذى أصدره الباحثان أنطونيو دومينجيث أورتيث وبرنار فنسان، من الكتب التى تستوقف المرء فى سلسلة الأبحاث المهمة عن هذه الجماعات التى يشكل وجودها فى إسبانيا حتى عام ١٦١٤، استمراراً عقائديا واجتماعيا للتاريخ العربى الإسلامى فى شبه جزيرة إيبريا، والذى يبقى مبتورا، إذا توقف عند بكاء عبدالله بن الأحمر على الملك الضائع..

وبعد سقوط غرناطة فى يد الملكين الكاثوليكيين ، فرناندو وإيزابيل ، عاش المسلمون فى إسبانيا مرحلة قاسية وصعبة : وعدهم «الغالبون» باحترام هويتهم الشخصية ، والحفاظ على بنيتهم الاجتماعية ، وعلى شريعتهم وثقافتهم .

ولم يلبث التسامح الذى وعدوا به ، أن انقلب إلى عداء وإلى محاولة لإلغاء الهوية ، فان عليهم أن يختاروا بين التنصر والانسلاخ عن الجذور، والرحيل إلى خارج الحدود، تاركين

وراءهم كل شئ. وقد كافح الموريسكيون طوال قرن ونيف للحفاظ على ملامح شخصيتهم، فى مواجهة سياسة الاستيعاب التى اتبعها الملوك الإسبان : بالإضافة إلى مراحل فى منتهى المأساوية ، مثل انتفاضة ١٥٦٨-١٥٧٠ فى غرناطة ، كانت حياة الموريسكيين اليومية مشحونة بالتوتر بينهم وبين «الغالبين» . وبالرغم من ذلك، ظلت هذه الأقلية المهزومة متشبثة بهويتها إلى حد الانتحار الجماعى .

وانطلاقا من هذا الواقع المأساوى ، يوضح الباحثان أن هناك ثلاث مراحل فى تاريخ الصراع المسيحى الموريسكى، تتمحور حول ثلاثة أحداث حاسمة، تغيرت معها جذريا صيغة التعايش المشترك والمسالم بين الفريقين ما بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٠٢ سحقت انتفاضة المسلمين فى جبل البشارات Alpujarras بقيادة إبراهيم بن أمية، فتنصرت الجماعات الناجية من الموت كى لا ترحل إلى المنفى، وشملت سياسة الإيمان الواحد مسلمى قشتالة- كانوا يعيشون حياة خاصة بهم ، ويضعون شارات خاصة على ثيابهم، ليتميزوا بدونيتهم عن «الغالب» - بالرغم من أنه لم يكن لهم علاقة بانتفاضة الأندلس الشرقية وكانت هذه الإجراءات تعنى نسف مبدأ التعايش المشترك السائد.

وفى مرحلة ثانية، انتفض موريسكيو حى البيازين فى غرناطة (١٥٦٨-١٥٧٠)، وللأسباب ذاتها التى دعت الأندلسيين الشرقيين إلى التمرد. وقد لاقوا أيضا المصير ذاته ، إلا أنهم بالرغم من إعلان تنصرهم أجبروا على مغادرة مدنهم وقراهم ، إلى مدن وقرى أخرى بعيدة عن «مملكة غرناطة» أو تقع فى حدودها . وفى عام ١٥٧م، تم إجلاء حوالى خمسين ألف مسلم عن أراضيهم وبيتهم، حتى لايشكلوا تجمعا واحدا يمكنه أن يقوم بشئ ما ذات يوم .

وفى إشبيلية وقرطبة والبسيط Albacete وطلطلة وشقوبية Segovia وسلمنقة Sala-manca كان هذا الحدث يعنى بالنسبة للأقليات المهزومة نهاية أمل بإمكانية التفاهم المتبادل بينهم وبين الآخر. وبإمكانية احترام هويتهم وحقوقهم والاعتراف بإنسانيتهم.

وتجسد المرحلة الثالثة (١٦٠٩-١٩١٤م) إلغاء الوجود الاجتماعى للموريسكيين من كل الأراضى الإسبانية. وقد صدر الأمر بطردهم نهائيا من إسبانيا ، وانتصرت السياسة الكاثوليكية التى تلغى الآخر.

ومن ثم بعد أن تشتت موريسكيو غرناطة، اتجهت سياسة الدولة إلى مراقبة أدق تحركات موريسكيى أراجون Aragon، المجموعة الأكثر عدداً فى إسبانيا ؛ مما أدى إلى خلق أجواء

http://al-maktabeh.com

متوترة باستمرار بين الموريسكيين الإسبان والكاثوليك الإسبان. وكما فى أماكن عديدة من قشتالة: لقد كشفت أحداث ١٥٧٠م عن كل ما يمكن أن يفرق بين الجماعتين المتواجهتين، ولم تكن الجراح العميقة قابلة لتلتئم بسرعة.

وكان أقل تضامن بين الموريسكيين يعتبر تهديدا لأمن الدولة، مسلطا على رقبتها، وصار كل موريسكى موضع شك، وبالمقابل اعتبر كل مسيحى خصما . وكان الوضع المرير يتطلب حلولا جذرية ، خاصة وقد فشلت كل الوسائل المقنعة لحمل الموريسكيين على التنصر، والاندماج بهوية مزيفة فى مجتمع الدم الواحد والدين الواحد. وخاصة أيضا أن الجماعات المحاصرة فى أرضها ، كانت تسعى فى الظروف الصعبة التى تعيشها إلى تحالفات مع مسلمى أفريقيا الشمالية، ومع الأتراك وحتى مع البروتستانت الفرنسيين .

وفشلت محاولات إقناع الآخر بالتنصر ، ومحاولات تسهيل الزواج بين الجماعتين ، من أجل الانصهار بين المجموعتين. واتجهت سياسة الدولة فى أواخر القرن السادس عشر إلى الفصل الكامل بين الجماعتين. وحرم الموريسكيون حمل السلاح ، وإن لم يكونوا يحملون غير القليل منه الذى استعملوه فى مراحل انفجار العنف فى أراجون، وصودرت ممتلكاتهم.

ولم يعد الموريسكيون ينتمون إلى مجتمع الدولة الذى صاروا غرباء فيه ، وإنما عاشوا على هامشه، واعتبروا فيه جماعة دونية. وإن امتلك بعضهم ثروة صغيرة ، فقد كانت غالبيتهم من البنائين والباعة وصانعى الحدوات. كانوا يقومون بالأعمال القاسية التى لايقوم بها الآخرون، وحوصرت آمالهم بمستقبل أفضل . وانطفأت آمالهم بإمكانية التعايش المشترك بالنسبة إلى المسيحيين الإسبان لقد نبش الإسبان التاريخ الدينى القديم ليغذوا نعرات الكراهية ضد الموريسكيين، ويؤكدوا لأنفسهم أنهم يفوقونهم نسبا وأن معاملتهم الدونية لهم مبررة تاريخيا ودينيا، وأن ما يفصل بينهم هو ما يفصل بين سلالة النبلاء والعبيد .

وفى أواخر القرن السادس عشر ، لم يبق للموريسكيين فى أرضهم غير تواصلهم السرى والصعب مع الجذور، وغير كراهية الآخر ورفضه لهم. وقد توجت الكراهية وتوج الرفض بأمر الملك فيليبى الثالث فاختصر ذلك المرحلة الأخيرة من حياة البؤس والقهر والتهميش التى يعيشونها فى وطنهم، وصدر أمر بطردهم نهائيا من إسبانيا ، كحل جذرى يضع حدا للتوتر المستمر بين الجماعتين ، بين النبلاء والعبيد، كما يضع حدا للخوف من وجود اجتماعى «مغاير» للوجود الكاثوليكى فى إسبانيا، كما فى كل أوروبا الغربية.

يمثل تمرد الموريسكيين بمملكة غرناطة، ليلة عيد الميلاد، حدثًا تاريخيًا شديد التعقيد لكل ما يتعلق بالجنس البشرى . ويمكننى القول أنه توجد هناك عوامل ثقافية واجتماعية واقتصادية،على المستوى القومى والدولى، تتشابك وتترابط فيما بينها من حيث نشأتها وتطورها ونضجها ، وأن هذه العوامل تثير فضول ورغبة الباحث فى أن يراها بوضوح مع استحالة التعرف على اتجاهاتها بغية تبسيط الدوافع والأسباب ، وإن كان هذا الرأى من جهة أخرى قد يكون تعسفيًا بالإضافة إلى قلة جدواه[١].

ومن ثم، فإننى لا أزعم القيام هنا بدراسة أسباب تمرد المسيحيين الجدد أو الموريسكيين ، وإنما أحاول أن أشير فى خطوط عريضة إلى بعض الأفكار التى تساعد القارئ على الفهم، فى إطار ما هو متاح وممكن، من خلال رؤية جذور الحرب الأهلية التى عزلت وضربت ودمرت مملكة غرناطة، وخاصة ما يتعلق بإقليم المرية Almeria خلال فترة السنوات ١٥٦٩-١٥٧١ . وكانت هذه الحرب محصلة لمعارضة صريحة بين المسيحيين الجدد أو الموريسكيين والمسيحيين القدامى، وأن هذه المعارضة أصبحت أكثر توتراً وتشدداً على مدار ستينيات القرن السادس عشر الميلادى، نظراً للأزمة الاقتصادية التى تفاقمت طوال فترة هذه السنوات العشر. وكان لزيادة التوتر الاجتماعى، الناتج عن الأزمة الاقتصادية ، التى يمكن متابعتها من خلال سجلات كتبة العدل والتوثيق ، ومن خلال الوثائق التى تعكس بمصداقية كبيرة الحياة اليومية لكلتا المجموعتين ، حيث كانت المواجهات تحتدم بينهما أكثر وأكثر . وعديدة هى الوثائق التى يعلن فيها الموريسكيون شكواهم بسبب أعمال العنف التى كانت ترتكب ضدهم من جانب المسيحيين القدامى، ومن الناحية العملية فإن تلك الوثائق التى يثبت فيها تعسف وسوء معاملة مسيحى قديم من جانب موريسكى غير موجودة، لأن هذا الأخير، الذى ينتمى إلى المجموعة الاجتماعية التى غُلبت فى عام ١٤٩٢م، يجب أن يتمسك دائما بموقفه فى الدفاع عن نفسه .

وعند قراءة هذه الوثائق المسجلة يتولد لدى الباحث الإنطباع بأن الموريسكيين يتمردون عندما تنفد كل طاقاتهم وقدراتهم على التحمل والجلد. وتكشف لنا بعض المحاضر والوثائق أنه بين الطبقات البرجوازية بالمدن كانت توجد عناصر محرضة وكانت تبعث على التمرد على الموريسكيين، وكانت حجتهم بسبب عمليات السرقة والنهب والسلب. ومن المؤكد أن عديداً من

الأماكن ذات السيادة لم يحدث بها تمرد لأن سادتها كانوا يدافعون عن أتباعهم الموريسكيين من جشع وطمع بعض العناصر من المجموعة المناوئة.

وهناك وثيقة مسجلة ، صادرة فى فيرا Vera بتاريخ٣١ أغسطس١٥٦٩م، تعكس ما سبق أن ذكرته منذ قليل : أحد المقيمين فى هذه المدينة يُدعى دييجو دى ثرفانتيس Diego de Cervantes كان قد أسر وأودع فى السجن العمومى لمدينة كويباس Cuevas لأنه «تفوه بكلمات قبيحة ومهينة ضد بعض أتباع ماركيز بلش Marques de Velez ، وأن المسيحيين القدامى الذين يؤيدون الموريسكيين كانوا مسلمين مثلهم »[٢]. ومن المعروف جيداً أن ماركيز بلش قام بحماية رعاياه وأتباعه حتى يتجنب تمرد مدينة كويباس Cuevas وأماكن أخرى تابعة لولايته. والملاحظ أن الجملة المذكورة كانت موجهة ضده وضد ممثليه، الذين تم وصفهم ب «الموالون» أو «المؤيدون»، ومن هنا قام حاكم (عمدة) كويباس Cuevas بسجن دييجو دى ثرفانتيس Diego de Cervantes، باعتباره فرداً سوف يشتهر خلال فترة امتداد الحرب بهجماته ضد المدن والقرى الموريسكية ولجشعه وطمعه بالاستئثار بالمحاصيل التى يحصل عليها كغنيمة.

وعقب مجموعة قرارات مجلس تيرنتو Concilio de Terento، حاولت الكنيسة ، من خلال تزايد غيرتها المسكونية، التدخل بشكل متزايد فى سرائر وذمم الموريسكيين؛ كما كان للتأثير المباشر للبابا بول الثالث Papa Paulo III على رئيس أساقفة غرناطة بدرو جيريرو Pedro Guerrero أن قلل نسبة التسامح مع الموريسكيين والتى انتهت بالوصول إلى المجلس الملكى للكاردينال دييجو دى اسبينوزا Consejo Real del Cardinal Diego de Espino-sa، الذى اتسم بصلفه وتشدده وعدم المرونة، حيث كان موقفه الشخصى حاسمًا بشأن المشكلة الموريسكية المعقدة. وقام اسبينوزا Espinosa باستشارة عدد من الرجال الذين يتسمون بنفس العقلية بصياغة وإصدار أمر عال La Pragmatica عام ١٥٦٧ والذى كان يتضمن عملية كاملة تهدف فى مجملها إلى جعل المجموعة الموريسكية تتقبل وتتطابق مع حضارته ، أى أن يحضرها بحضارته؛ حيث حظر عليها استخدام اللغة العربية وفرض عليها القشتالية، كما حظر عليها إرتداء الأزياء التقليدية وإجبارها على إرتداء الأزياء والملابس التى «يستخدمها المسيحيون» ، كما أن الموسيقى والرقصات الشعبية الموريسكية لايمكن ممارستها أو القيام بها فى حفلات العرس والزواج وفى الأعياد الأخرى وإلزامهم باتباع العادات والتقاليد التى يتسم

بها المجتمع المسيحى المتأصل ،كما حظر عليهم استخدام الحمامات ، فضلاً عن الأسماء الشخصية ذات الأصل العربى التى أصبحت محظورة تماماً [٣].

ولسوء طالع الموريسكيين أصبح السيد دييجو دى اسبينوزا don Diego de Espinosa المفتش العام Inquisidor General وذلك نظراً لتزايد نفوذه وتأثيره على فيليب الثانى Fe-lipe II، ومن ثم اضطردت واستشرت نشاطات وفعاليات محاكم التفتيش ضد الموريسكيين بشكل ملحوظ .

ويقول ك. جاراد K. Garrad فى دراسة تاريخية مهمة إنه يعتبر أن محكمة التفتيش Santo Oficio هى واحدة من الأسباب القريبة الصلة التى أدت إلى تمرد الموريسكيين ، وأن تتبعهم ومطاردتهم تزايد بشكل محلوظ فى الفترة ما بين عامى ١٥٦٠ و ١٥٦٨م حيث نزحوا إلى مناطق أخرى وأنهم حتى هذه السنوات لم تكن معاناتهم من جراء تصرفات محاكم التفتيش شديدة[٤].

ويؤكد دييجو دى ميندوثا Diegi de Mendoza تحديداً بقوله «إن محاكم التفتيش بدأت أعمالها بالضغط والتشدد بشكل يفوق الأمر العادى »[٥]. وأمام هذه الاعتداءات المتزايدة على عاداتهم وسرائرهم يكون من اليسير فهم وإدراك الحالة النفسية والمعنوية التى فرضت على الموريسكيين الذين أصبحوا «مقهورين مثل النعاج الشاردة... فى حالة من القمع والجور والظلم لايمكن تصورها مثل حالة طيور التُرغُلة (قُمارىّ) وهى فى مخالب طائر النسر الجارح» ... هذه العبارات جاءت على لسان مارمول كارباخال Marmol Carvajal تعكس تماما حالة ووضع الموريسكيين فى فترة السنوات السابقة على التمرد[٦].

ولكننى أعتقد أن ألد الأعداء للموريسكيين كانوا بعض عناصر البرجوازية المحلية التى كانت لديها الرغبة فى الاستفادة من حالات الصراع السياسى والدينى حتى تتمكن من الاستيلاء على ممتلكات المسيحيين الجدد. وقد كانوا يحركون نفوس مجموعتهم ويحرضونها فى الشؤون التجارية والمهنية، على المستوى المحلى، وقد وجدوا الفرصة سانحة أمامهم بالقيام بحملة إعادة الأراضى التابعة لمجلس البلدية والقرى والتى- كما يقال- كانت قد أحتلت بدون وجه حق من جانب الموريسكيين. هذا وقد أرسل فيليب الثانى Felipe II لجنة بترأسها الدكتور سانتياجو Santiago التى صادرت على إمتداد سبع سنوات سابقة على حالة التمرد

أكثر من مائة ألف هكتار من الأراضى والتى كانت فى أغلبها أراض ملك المسيحيين الجدد[٧].

ولم يكن لهذا الأمر فائدة لبيت المال العام وحسب وإنما أيضًا لنواب مجلس البلدية والكنائس المحلية، الذين كانوا دائمًا يتوقون إلى تملك الأراضى، فضلاً عن المستخدمين فى دوائر المحاكم الملكية؛ «نظراً للأضرار التى كان قد تسبب فيها وزراء العدل «سيكون هذا أحد الأسباب الرئيسية للتمرد التى يعزوها ابن حميه Aben Humeya [٨].

وقد وجد جانب كبير من القطاع المسيحى فى تمرد الموريسكيين فرصة لإطلاق العنان لجشعهم وطمعهم. وفى الزيارة التى قام بها كبار الموريسكيين فى البيازين Albaicin لرئيس المحكمة العليا Presidente de Chancilleria فى شهر أبريل ١٥٦٨ بشأن الشكوى من جراء الرهانات التى كان يوجهها إليهم المسيحيون حيث كانوا يسمونهم علانية بالخونة، حيث عرض رئيس اللجنة بوضوح أن كل ذلك كان إفتراء من أولئك الجشعين والحاقدين حيث كانت تنتابهم «أقل رغبة فى أن يسود الهدوء وأن همهم وانشغالهم كان هو أن يأخذوا ممتلكاتنا»[٩].

وفى حرب الموريسكيين ، التى لم تكن حربًا بين الدول وإنما بين جماعات، كانت الغنائم الشخصية تمثل أهمية هائلة . ومن هنا تم اعتبار مقدم النزاع الذى بدأ عام ١٥٦٨ بمثابة الحل الاقتصادى لجانب كبير من العائلات المسيحية المتأصلة الذين يتعايشون مع الموريسكيين. وكان مفهوم التمرد يعنى الموافقة والتصديق على عمليات السلب والنهب وأنه أصبح أمراً عامًا على مستوى الجماعة . ومن ثم فإنه ليس هناك مجال للشك فى أن العامل الاقتصادى يكون أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى هذا الصراع . وأعتقد أن الجانب الدينى كان يمثل سببًا ثانويًا : كان الدين مستخدمًا كعنصر تحريض وخاصة لدى بعض الأفراد الخاضعين لسيطرة رجال الدين المسيحى الذين نشطوا كعناصر تمثل التعصب النفسى فى خدمة المصالح الاقتصادية.

ولكل هذا بلغت الأمور حداً لايمكن احتماله أو التساهل فيه، كما أن التمرد الموريسكى الذى أصبح يتسم بحالة من الهوس وضياع الأمل، كما بدا ذلك، لم يكن أمامه مفر من أن يشتد ويتفاقم وأصبح حقيقة عندما بدأ تطبيق الأمر العالى La Pragmatica عام ١٥٦٧م، بعد أن فشلت كل محاولات الموريسكيين للحيلولة دون تطبيقه .

وأمام هذا التحريض المتزايد والظلم المتفاقم جاء رد الجانب الموريسكى بالتفاف وتعاون أفراده وتضافر مجموعته حيث أصبح يمثل روح الفريق ، مثلما أطلق عالم الاجتماع ابن خلدون Ibn Jaldon مُسمًّى «العصبية» أو «العُصبة» ، وأن هذا الموقف ساعدهم كثيرا حيث تم تنظيم أنفسهم عسكريًا والتف الموريسكيون حول رئيسهم بالمفهوم القبلى بأن يقوم كل محارب بحماية عائلته وكل ما يتعلق بجماعة الموريسكيين ، مما جعلهم أقوياء بالفعل . و«العصبية» هى بمثابة مساعدة شعب فى مواجهة الأعمال الظالمة، وأنها كانت ظاهرة بشكل خاص بين القبائل الجبلية فى ألتو أطلس Alto Atlas ، أو فى القرى الصغيرة التى تكون فيها أواصر الدم قوية. وأن هذه العصبيات تكررت فى أماكن أخرى بمنطقة البشارات Alpujarras ، التى كانت تعتبر العصب الرئيسى للتمرد، باعتبارها المنطقة التى كانت توجد بها البنية القبلية ، وهى منطقة تقوم على أحياء أو «حارات». وكان لصلة القرابة والتواصل القائم بين المقيمين - الأهالى - فى هذه المنطقة أن يَسَّرَ «توحيد القلوب الذى يجعل لأواصر الدم قيمة ويشحذ همم الرجال للخروج دفاعًا عن ذلك الذى يطلب المساعدة » حسبما جاء فى التعريف الرائع لابن خلدون(١٠).

وفى القرى الموريسكية الصغيرة القابعة فى سلسلة جبال مملكة غرناطة كانت توجد كل الظروف والملابسات الجديرة بإيقاد النزعة العصبية، وهذا الأمر استطاع إبراهيم بن أميه Aben Humeya أن يتوقعه قبل حدوثه عندما غادر غرناطة إلى موقعه الصغير فى بالور Valor فى قلب منطقة البشارات Alpujarras . وفى هذه المنطقة وفى ليلة أعياد الميلاد عام ١٥٦٨ اندلعت واحدة من الحروب الأكثر ضراوة والأكثر إيلامًا وحزنًا من تلك الحروب التى جعلت تاريخ إسبانيا يتسم بالسواد .

الحرب:

كُتب العديد عن الحرب بين المسيحيين والموريسكيين التى تلت حركة تمرد منطقة البشارات Alpujarras . وسيكون فى مقدور القارئ أن يستشير مؤلفات كل من دييجو دى يمندوثا Diego de Mendoza ، مارمول كارباخال Marmol Carvajal وبيريث دى هيتا Perez de Hita والتى سيجد فيها مادة كافية تجعله يشعر بالرعب من جراء الأعمال الوحشية التى ارتكبها كلا الطرفين وحتى يقتنع بصفة أساسية ، بعرض الحملات المنظمة من جانب المسيحيون ضد الموريسكيين، وليس للحملات التى قد يكون فى إمكاننا أن نصفها بأنها حملات استراتيجية ، كما وصفها المؤلفون السابق ذكرهم، وإنما الإشارة إلى تلك الغارات التى كانت تقوم بها قوات الحرس المدنى بصور مفاجئة وخاطفة والتى لم تحقق آية نتائج إيجابية من وجهة

النظر التكتيكية ، وإن كانت نتائجها الاقتصادية مثمرة ، إذ كان يتم تزويد المسيحيين الذين كانوا يقومون بعمليات الإغارة بالعديد من رؤوس الماشية والأمتعة والعبيد والأسرى والملابس والجواهر، الخ ... وإننى أقوم بالإشارة إلى هذه الإغارات لأنها تعكس بصداقية المواجهة بين كلا الفريقين، من حيث السرعة والتلقائية ... وهذا التاريخ يمكن كتابته من منظور اليقين من خلال الوثائق الخاصة التى يظهر فيها البطل كما هو أمام كاتب العدل حيث يعرف أن سلوكه وتصرفه سيكون محميًا بناء على سر المهنة. ولكن هذه الأعمال الفردية والمحفوظة فى الوثائق المسجلة توضح لنا لُب الموضوع لتلك الحرب الأهلية الحزينة والمؤلة.

هذا وقد امتد التمرد، الذى بدأ فى البشارات الغرناطية Alpujarra granadina يوم ٢٤ ديسمبر ١٥٦٨م، إلى المنطقة الشرقية الواقعة حاليًا بإقليم المرية Almeria ، وسرعان ما استشرى هذا التمرد إلى مناطق فيلكس Felix ولوخار Lojar وكانخايار Canjayar ، وكل أعالى وأواسط وادى أندراكس Andarax وحتى مناطق بتشينا Pechina وبيناهادوكس Be-nahadux، حيث أصبحت كل هذه المناطق تعيش كل أحداث هذا التمرد. وبسرعة فائقة تحولت القرى المسالمة، التى كان يسكنها الفلاحون، إلى مسرح لأعمال العنف التى لاتصدق . وقد قام الموريسكيون بإشعال نار التمرد على الفور ضد الكنائس حيث تم نهبها وسلبها مع تقطيع وتدمير الصور واللوحات وإشارات الصليب وملابس القساوسة الرسمية والكئوس المقدسة، فضلاً عن تحطيم الأجراس ، لدرجة أن عديداً من المعابد تحولت إلى نيران مشتعلة.

كما تم طرد وإخراج كل الخوارنة والقساوسة والشمامسة والمستفيدين من ذويهم من ديارهم. وبعد عمليات إذلال وإخضاع ووفيات وتدمير وتحطيم وتقطيع جائرة تم تطويق أعضائهم وأطرافهم فى مجموعات والقيام بقطع آذانهم وأنوفهم وإخراج عيونهم وألسنتهم وقلوبهم وأحشائهم.

ويرجع تحول الفلاحين المسلمين إلى أفراد سادين ليس فقط بسبب تفجر عمليات الخنوع والإذلال الخطيرة والقمع على مدار سنوات ، وإنما أيضًا لإنضمام عناصر إلى جانب الموريسكيين كان لها دورها المهم خلال فترة الحرب، وأشير هنا إلى أن مجموعة اللصوص من الموريسكيين الذين كانوا هاربين فى الجبال لأسباب متعددة، حيث شكلت هذه المجموعات فرقًا من قطاع الطرق وأعمال القرصنة واتسمت بالوحشية لأنها عانت من إهانات فى مناطق السلاسل الجبلية لدرجة أنها أصبحت مثل الحيوانات المفترسة لتجد فى حالة التمرد الفرصة التى طالما انتظرتها للإنتقام من كل حالات المعاناة التى تحملتها وواجهتها . وكان يلتف

هؤلاء الموريسكيون البائسون حول رئيس لهم حيث ذاعت شهرتهم فى مثل الجورى El Gori والرامى El Rami حيث قاموا بعمليات حاسمة فى تمرد «وادى المنصوره Valle de Alman-zora و«نهـر المرية» Rio de Almeria . وكان لصوص الموريسكيين هم الذين وصلوا إلى القرى النائية الواقعة فى مناطق السلاسل الجبلية حيث أعلنوا أن «غرناطة وكل المملكة أصبحت مسلمة» ، حيث تشبع الفلاحون بأفكار التحرير الشامل والانتقام . وكانت هذه العناصر الوافدة هى التى جعلت الموريسكيين فى كل مكان يُظهرون لهم المسيحيين الذين كانوا يعيشون معهم. ومن هنا وفى غضون بضعة أيام من التمرد تم اغتيال ليس فقط رجال الكنيسة وإنما أيضًا المسيحيين القدامى إذ أنهم لم يتوقعوا الخطر القادم إليهم، وكانت هذه الاغتيالات تتم بعد عمليات تعذيب وتنكيل فظيعة . وفى حالات الصداقة الشخصية التى كانت قائمة بين الموريسكيين والمسيحيين والتى كانت تقوم على أساس تجاوز الأهواء الدينية أو العرقية، وجد بعض الموريسكيين أنفسهم ملزمين بإخراج أصدقائهم المسيحيين من ديارهم والذين كانوا يأوونهم ويخفونهم لديهم. ولم تكن عمليات القتل للمسيحيين الأصوليين أقل وحشية من تلك التى تمت مع رجال الكنيسة . وقد اهتم لصوص الموريسكيين بتعقيد الأحداث بالنسبة للموريسكيين عامة فى كل مكان حيث أجبروهم على القيام بعمليات الرشق بالسهام والطعن بالسكين وحرق المسيحيين الذين كانوا يعيشون معهم. وكان حرق المعابد والمبانى المقدسة يعنى للموريسكيين التحرير الملموس من دين وجدوا أنفسهم ملزمين باعتناقه والاعتقاد به، هو بمثابة الخروج من مقبرة فظيعة والعودة إلى الممارسات الحرة والعامة لديانتهم الإسلامية.

وبوغت المسيحيون عندما رأوا كيف أن أغلبية الموريسكيين كانوا يعرفون صلوات وعبادات الدين الإسلامى وبالتالى مدى عقم وجه الإلزام للقوانين الكنسية ومطاردات محاكم التفتيش.

وتم إظهار الملابس الموريسكية المحظورة وإخراجها من الصناديق والخزائن بعد نفض الغبار من عليها ، وكذلك ظهر أولئك الذين كانوا يعزفون الصافرة ويدقون الطبول، وعادت الرقصات التقليدية والشعبية إلى الشوارع والساحات العامة، وسادت حالة الانتعاش لكل مسلم من أجل رفع الرعب والمعاناة من جراء الجرائم المدبرة ضد المسيحيين(١١).

وظلت المناطق والمواقع التى كان يغلب عليها العنصر المسيحى مخلصة للملك مثل المرية Almeria وفيرا Vera وموخاكار Mojacar وكذلك مناطق أخرى كثيرة ، التى باعتبارها أماكن خاصة للسيادة مثل الحاميات العسكرية كانت كافية محاطة بأسوار وحسب وإنما أيضًا

كانوا يعيشون فى الضواحى وفى أطراف الأرباض Arabal ولاس هويرتاس (البساتين) Las Huertas[١٢].

وعندما تفجر التمرد وحدثت أعمال الثورة فى الأماكن القريبة من نهر المرية Rio de Almeria ، لجأ هؤلاء إلى داخل المنطقة المسورة وحملوا معهم كل ما كان فى استطاعتهم وخاصة ما يتعلق بالحبوب والغلال والماشية والأنعام . وقد لجأ أيضًا إلى المدينة العديد من المسيحيين القادمين من ولاية مارتشينا Marchena وطه دى البولودوى Taha de Alboloduy ، ومن ثم ساءت حالة المواد الغذائية وأصبحت شحيحة خاصة وأن المرية كانت تعتمد دائمًا على المنطقة للإمداد بالمؤن والسلع الأساسية . وخلال الأيام الأولى من عملية التمرد كان البحر هائجًا الأمر الذى حال دون الاتصال بمناطق عدره Adra مما قطع حبال الأمل فى الإنقاذ والنجدة.

وعلى الرغم من أن المرية كانت لديها حامية عسكرية تضم فرقتين من رجال الحرب، إحداهما كانت فرقة للمشاة والأخرى فرقة للفرسان ، كان قد أرسلهما القائد جارثيا دى فياروئيل Garcia de Villaroel، ونظراً لقصر البصيرة وعدم تدبر العواقب بشكل لايصدق فوجئت المدينة بنقص شديد فى العتاد الحربى. وأمام الخطر الجسيم الذى كان يحيط بالجميع وخاصة المجمع الكنسى لمجلس البلدية والقائد فياروئيل Villaroel نفسه، فقد تم إرسال خطابات مأساوية اللهجة إلى الملك وإلى ماركيز موندیخار Marques de Mondeja وإلى ماركيز بلش Marques de Velez وإلى مرسيه Murcia وإلى مناطق وأماكن أخرى. وكان للحظر ولقلة الاتصالات مع الخارج أن ازدادت حفيظة المسيحيين فى المرية ضد الموريسكيين على الرغم من أن هؤلاء الموريسكيين قد ظلوا أوفياء دائمًا للتاج الملكى La Corona؛ وأقام المسيحيون فى المدينة Almedina ، وهو حى متاخم للقصبة Alcazaba التى كانت تعتبر القلعة الحصينة والتى كان يمكن اللجوء إليها فى حالة الطوارئ.

وقد رحب ماركيز بلش Marques Velez وأعوانه ومواطنى مرسيه Murcia المجاورين لمملكة غرناطة بالرسائل التى تم إرسالها من المرية حيث أيقظت فيهم الرغبات القديمة المكبوتة وذكرتهم بالغزوات المفيدة والمثمرة والعادات الذهبية. وقبل أن يصل مرسوم الملك جمع ماركيز بلش Marques de Velez بتاريخ ٢ يناير ١٥٦٩ فى بلش بلانكو Velez Blanco ٢٥٠٠ من رجال المشاه و٣٠٠ من الفرسان. وكانت هناك مشاة وفرسان من مناطق لوركا Lorca وكاراباكا Caravaca وهيين Helin ومولا Mula وثيخين Cehegin لديهم الرغبة الشديدة

فى المشاركة - وقام هؤلاء الرجال تحت قيادة ماركيز بلش بعبور وادى المنصورة Valle de Almanzora عن طريق أولوله Olula واجتازوا أسوار فيلابريس Folabres على الرغم من هطول الأمطار والرياح العاتية والبرد القارس الذى عانى منه الرجال والفرسان حتى تم الوصول إلى قرية تابرناس Tabernas ، التابعة لقضاء المرية آنذاك، والتى كانوا قد وصلوا إليها دون انتظار المرسوم الملكى؛ وهنالك مكث ماركيز بلش بهذه القوات عدة أيام بحجة أن القوات كانت فى حاجة إلى الراحة، ولكنه فى الواقع ما كان ينتظره هو الإذن الملكى الذى وصل فى النهاية بتاريخ ١١ يناير . وبجيش قوامه ٥٠٠٠ رجل مشاه و٣٠٠ من الفرسان غادر أراضى السُهب (السهول) التابعة لقرية تابرناس Tabernas فى اتجاه هويشيخا Huecija فى وادى اندراكس Valle de Andarax السعيد. وقام الجورّى El Gorri ، رئيس المنطقة المتمردة ، بمواجهته وإن كانت هذه المواجهة هى بمثابة خدعة أو حيلة بسيطة حتى يفسح مجالاً من الوقت لمعظم القوات الموريسكية باللجوء إلى سلسلة جبال جودور Sierra de Godor . وهنالك توجه ماركيز بلش Marques de los Velez بعد أن مكث أربعة أيام فى هويشيخا Huecija.

وهنا لن أقص كافة التفاصيل التى يرويها لنا المؤلفون الذين أشرت إليهم سلفًا . وهؤلاء الكتاب يوضحون لنا إلى أى درجة يمكن أن تؤدى الحرب إلى حالة من الهمجية والبربرية والبؤس المطلق. وأن الإبادة شبه الكاملة للشعب الموريسكى المقيم فى إنيث Eniz وفيلكس Felix والتى قامت بها قوات ماركيز بلش يوم ١٩ يناير ١٥٦٩ هى واحدة من تلك الأحداث الشديدة القسوة فى كل تاريخ إسبانيا العسكرى. يقص علينا بيريث دى هيتا Perez de Hita بدقائق التفاصيل التى تبين فيض هذه الأحداث من المجازر والسلب والنهب والسرقة والخراب والدمار فى مقابل إطلاق سراح الجنود المسيحيين المسلحين الذين ثملوا من رائحة الدم، وأن ذكر هذه الأحداث يسبب الغثيان والضيق للقارئ البارد اللامبال.

ويوجد عدد قليل من الذين نجوا بحياتهم من هذا العمل الجنونى الصادر من أولئك الذين يكرهون الأجانب فى معركة فيلكس Felix ، ولكن بعض الكتابات بالعدل بسجل المرية لم تثبت هذا الحادث المؤلم والفظيع . وتشير كل الوثائق تقريبًا إلى بيع وإنقاذ النساء والأطفال المحصورين فى نير العبودية والأسر والذين تم توزيعهم على الجنود من جانب ماركيز بلش.

وبالطبع فإن أصحاب الحظ فى توزيع هذه الغنائم كانوا أقارب وأتباع المنتصر؛ خينيس دى لاباستيدا Gines de la Bastida ، ناظر الماركيز ، الذى تسلم أسيرة تُسمى لوثيا Lucia ، تبلغ من العمر ٢٠ عامًا والتى كان قد تم بيعها ب ٦٠ مسكوكة فى ١١ أكتوبر ١٥٦٩[١٣]. وفى اليوم السادس من نفس الشهر أصدر خيل مالدونادور Gil Maldonado ، خادم ماركيز

http://al-maktabeh.com

بلش ووالى مرسيه، فى القلعة الحرة، La Calahorra تفويضًا خاصًا لشقيقه أنطون كانو An-ton Cano لكى يتمكن من البيع باسمه أربعة من الأسرى هم برناردينو Bernardino ولوكاس ucas: وليونور Leonor وثيليا Celia وأن الماركيز كان قد منحه ذلك فى فيلكس Felix وأهوانيس Ohanes وتيركى Terque[١٤].

كما تم تعويض المقيمين فى قرية بلش بلانكو Velez Blanco والذين رافقوا سيدهم فى الحملات العسكرية بمملكة غرناطة من جانب الماركيز ، وأن الذين لم يتمكنوا من المشاركة بسبب حداثة عمرهم أو لظروفهم تم تعويضهم بوسائل أخرى بأن يتحصلوا على أسيرة مسلمة جميلة ؛ الونسو بالومار Alonso Palomar ، حاكم ومقيم فى بلش بلانكو سلّم الونسو جوتيل دى توديلا Alonso Gutiel de Tudela ، المقيم فى لوركا Lorca ، أسيراً أسوداً يبلغ من العمر ١٨ عامًا يُدعى فرانسيسكو Francisco فى مقابل أسيرة تبلغ من العمر ١٣ عاما من المقيمات فى فيلكس Felix وتُدعى ثيثيليا Cecilia [١٥].

وهناك إثنان من المقيمين فى ماثارون Mazarron هما أنطون ببريث Anton Perez وبدرو جارثيا Pedro Garcia كان من نصيبهما فى سجل حصص الغزاة من الأراضى المفتوحة فى فيلكس Felix أسيرة تُدعى بياتريث Beatriz ومعها ابنتاها ماريا Maria البالغة من العمر ١٢ عامًا وليونور Leonor البالغة من العمر ١٣ عامًا ، وأنه تم بيع الثلاث بـ ٣٢ مسكوكة إلى أحد المواطنين من المرية يُدعى توماس لوبيث Tomas Lopez [١٦].

فى ١٣ إبريل ١٥٦٩ م قام فرانسيسكو مارتينيث Francisco Martinez ، خياط من المرية، بشراء غلام عمره عشر سنوات بمبلغ ٢٤ مسكوكة يُدعى دييجو دى لا كانال Diego de la Canal ، المولود فى فيلكس Felix ، ملك دييجو دى ميرلوس Diego de Merlos ، المقيم فى جيان Jaen ويعمل بوظيفة رقيب فى شركة القبطان ربناردينو دى كيسادا Bernar-dino de Quesada [١٧].

ويجب أن تجدر الإشارة إلى أن أهل المرية ليسوا بمشترين لعبيد وأسرى فيلكس Felix فقط وإنما أيضا بائعين حيث أن العديد منهم اشترك فى المعركة. ويقص علينا مارمول Marmol أن قائد المرية السيد جارثيا دى بياروئيل Garcia de Villaroel قد نمى إلى علمه أن ماركيز بلش كان يستعد للهجوم على فيلكس Felix وأنه أراد أن يتقدم وصعد إلى سلسلة جبال جادور Sierra de Gador ومعه ستين جنديًا مسلحًا مترجلين وخمسة وعشرين على الأحصنة وتمركزوا بهذه الفرقة أمام موقع فيلكس لاعتقادهم أن الموريسكيين «سيدركون أنهم هم طليعة الميدان وأنهم قد يفرون ، ويكون فى الإمكان (سرقتهم) قبل أن يصل الماركيز»[١٨].

ولم يخشَ الموريسكيون الموقف وقاموا بتشكيل جبهة وأن هذا التصرف سمح بوقت كافٍ حتى يصل الماركيز وأن هذا الأخير لم يسمح بأن «يسرق» الموريسكيين أحد قبله، حيث أمر بيـــاروئيـل Villaroel بأن يعود تلك الليلة إلى المرية ، ولكنه احتفظ بخمسين جنديًا بهذه المدينة. وقد منح كل من دومينجو مارتينيث Domingo Martinez وبدرو دى بيدانيـا Pedro de Bidania واستيبان دى جوربالان Esteban de Gorbalan تفويضًا بتاريخ ٢٧ يناير ١٥٦٩ أمام كاتب العدل كوسمى دى كيبيدو Cosme de Quevedo، مطالبًا ماركيز بلش بنصيبه الذى كان يختصه «من العبيد والأسرى والغنائم» من جراء الهجوم على فيلكس Felix[١٩].

وكان السيد الونسو تامايو Don Alonso Tamayo، نائب مطران الكاتدرائيـة ، أحد أهالى المرية الأوفر حظًا حيث تلقى من توزيع الغنائم فى فيلكس Felix أسيرة تبلغ من العمر ١٦ عـامًـا تُدعى مـاريا Maria والتى قام ببيعها بخمسين مسكوكة إلى فرانسيسكو دى سالباتيرا Francisco de Slavatierra النائب فى مجلس البلدية[٢٠].

وكانت الوثائق الخاصة بكتابات العدل تشير إلى أسرى فيلكس Felix بعد المعركة بعدة شهور، ففى الثانى من نوفمبر ١٥٧٠، حصل انطونيو استيلوسى Antonio Estelosi ، ربان سفينة السيد لويس بيكى Don Kuis Pique، على أسيـر يُدعى «على» Ali عـمـره ست سنوات من أهالى فيلكس[٢١] بمبلغ عشر مسكوكات، وفى الثامن من نوفمبر من نفس العام كان قد باع مـاتيـاس دى لاكروث Matias de la Cruz ، كـاتب حسـابات مـراكب نابولى وفرنسـا، إلى ديبجو آتنثيـا دى كيـسـادا Diego Atencia de Quesada أسـيـرة عـمـرها خمسون عامًا تُدعى ايزابيل Isabel والتى تم الحصول عليها أيضًا فى غزوة فيلكس [٢٢]. ويمكن القول إن أغلب الأهالى الموريسكيين بمناطق بيكار Vicar وإنيكس Enix وفيلكس Felix ماتوا فى المعركة أو تم توزيعهم كغنائم فى المدن المختلفة الأخرى.

وحسب قول مارمول Marmol أن أكثر من سبعمائة موريسكى ماتوا فى معركة فيلكس Felix، ولكن فى أوهانيس Ohanes كانت عمليات القتل والوفيات أكثر بكثير، حيث تم تجميع جانب كبير من الأهالى الموريسكيين بمنطقة طه دى لوتشار Taha de Luchar، أو بمعنى أوضح فى الجانب الشرقى للبشارات Alpujarras بإقليم المرية، وذلك من بين ألفى رجل فى المعركة الذين كانوا يشكلون فرق القائد طحالى Tahali حيث لقى أكـثـر من ألف موريسكى حتفهم فى المعركة فى الأول من فبراير ، وذلك إذا صدقنا رواية مارمول Marmol،

وتم أسر ألف وسبعمائة شخص من بينهم نساء وأطفال وتم الاستيلاء على كميات كبيرة من الملابس والجواهر والماشية والأنعام [٢٣].

وقد أثارت الغنائم التى تم التحصل عليها فى فيلكس Felix جشع وطمع المغامرين بكل عموم المنطقة لدرجة أنه فى معركة أوهانيس Hoanes لم يظهر أتباع ورعايا ماركيز بلش وإنما ظهر أيضًا أهل المرية Almeria وبيرا Vera، وذلك حسبما أثبتت السجلات الخاصة بالكتابات بالعدل . وقد باع اثنان من أهالى هذه المدينة الأخيرة- بيرا Vera- همـا فرانسيسكو كويادو البييخو Francisco Collado El Viejo وفرانسيسكو مارين Francis-co Marin بتاريخ ٢١ فبراير ١٥٦٩ أسيرة عمرها ثلاثون عامًا تُدعى ماريا Maria ومعها طفلها البالغ من العمر عامًا واحداً والقادمة من أهانيس Ahanes[٢٤]، كما حصل بدرو دى جيفارا Pedro de Guevara المقيم فى بيرا Vera من نفس توزيع الغنائم على أسيرة من مدينة أنداراكس Andarax بالبشارات Alpujarras، والتى تم بيعها بأربعين مسكوكة [٢٥]. كما حصل الونسو مارتينيث Alonson Martinez ، من أهل كاراباكا Caravaca ، وخوان دى أوليدو Juan de Olmedo ، من ضاحية ماريا Maria، وخينيس فرانكو Gines Fran-co ، من أهل بلش بلانكو Velez Blanco ، على طفلة تبلغ من العمر تسع سنوات «كانت مصابة بالصرع ودميمة الشكل ومصابة بأمراض معدية أخرى» وذلك كمكافأة على تعاونهم[٢٦].

«صفقة» إنوكس Inox :

كان الموقف فى المرية فى شهر يناير ١٥٦٩ مأساويًا ، حيث كانت العاصمة مكتظة بالموريسكيين والمقيمين من بعض المدن المجاورة وغيرهم من اللاجئين القادمين من القرى القريبة. كان الموريسكيون مسالمين ولكن المسيحيين القدامى كانوا يرتابون ويشتبهون فيهم وكانوا يعتبرونهم جواسيس أو متآمرين. وتفاقمت المشكلة عندما انخرط عدد لابأس به من المسيحيين المغامرين فى جيش ماركيز بلش Marques de los Velez، الذى استطاع الحصول على غنائم كثيرة فى فيلكس Felix وأهانيس Ahanes وطه دى مارتشينا Taha de Mar-chena . وكان لوصول السيد فرانسيسكو دى كوردوبا إلى المرية على رأس قوات مجهزة بعتاد حربى جيد الأثر الطيب والارتياح للقطاع المسيحى بالمدينة، ولكن على الرغم من ذلك، استمرت عملية الدفاع وأصبح كل الناس فى حالة طوارئ ومتيقظة لحركات الموريسكيين المتمردين فى الإقليم، كما أن أخبار هذه الحركات كان يتم معرفتها من أولئك اللاجئين من

خلف أسوار المدينة وعن طريق الجواسيس الذين كان يرسلهم لسيد القائد كريستوبال دى بياروئيل والذى كان قائداً مدنيًا وعسكريًا للمرية حتى وصول السيد القائد فرانسيسكو دى كوردوبا. وكان لدى ماركيز بلش أوامر صريحة بالامداد برجال الحرب للمدينة، ولكن عملياته العسكرية لم تؤد إلا إلى إزالة حاميته وقوته للدفاع عن المرية . وأمام الخطر الجسيم الذى كان مفترضًا للقطاع المسيحى، أرسل السيد فرانسيسكو دى كوردوبا بتاريخ ٢٨ يناير خطابات إلى بدرو أرياس دى أبيلا Pedro Arias de Avila ، حاكم إقليم جواديكس Guadix وإلى شخص الملك نفسه يعرض عليهما فيها الخطر الذى سوف تواجهه المدينة فى حالة الهجوم عليها من جانب الأتراك والبربر.

ولحسن الحظ، فى اليوم التالى وصل إلى سواحل المدينة أسطول خيل دى أندرادا Gil de Andrada، الذى يضم تسع سفن شراعية ومواد غذائية وعتاداً حربيا. وكان هذا يعنى للمرية تحولاً فى الاتجاه ، إذ إن السيد فرانسيسكو دى كوردوبا أراد أن يأخذ جانبًا فعالاً ونشطًا فى الحرب حيث اقترح على خيل دى اندرادا ما أطلق عليه مارمول Marmol بلغة جافة كلمة «صفقة» إنوكس Inox وهي أن الهجوم على الموريسكيين لم يكن بالنسبة للقائد المحلى حربًا صليبية وعملاً وطنيًا واضحًا للعيان وإنما احتلالاً مربحًا يسفر عن غنائم ومكاسب ، وأن هذا الهجوم هو طريقة لزيادة الحصيلة والعائد ، حيث أن القائد العسكرى للمرية كان يتسلم ، حسب العرف القديم المتبع ، خُمس ما تم الحصول عليه من العدو . ووافق خيل دى أندرادا على الصفقة بعد مناقشات مطولة ، ولكن كانت الغنائم توزع دائما بأنصبة متساوية؛ نصيب للمشاة وآخر للبحرية ، وذلك عندما يتم استخراج نصيب الحصة الملكية والجزية. ويعلق مارمول كارباخال على ذلك بجملة رائعة بقوله «من أجل خطايانا ، فى هذا العصر ، كان يسود الجشع أكثر من انسياب العظمة من الانتصارات»(٢٧).

كانت إنوكس InoX قرية، إندثرت الآن، تقع غرب نيخار Nijar، بجوار ربوة حصينة. وعُرف فى المرية أن الجبل القريب من موقع إنوكس كان قد تم تحصينه من جانب الموريسكيين بالإقليم، تحت قيادة فرانسيسكو لوبيث Francisco Lopez ، حاكم تابرناس Tabernas، وبتعاون الأتراك والبربر الذين كانوا من المغامرين والذين كانوا قد وصلوا فى قوارب للاستكشاف لمساعدتهم . وفى الجبل تمركز الموريسكيون القادمون من تابرناس Tabernas وأوبيرو Huebro ولوكاينيا Lucainena ونيخار Nijar وتورياس Turrillas ومن أماكن أخرى من النهر مثل جادور Gador وبياتور Viator وبتشينا Pechina وريوخا Roja وبيناهادوكس Benahadux ، وكذلك من أرباض المدينة ومن أماكن الحضرة Alharda

والقيان Alquian . وكل هذه العائلات كانت قد حملت معها أنعامها وماشيتها ومدخراتها وحاجياتها، إذ أن الموريسكيين لم يكن فى زعمهم الهجوم على المسيحيين، مما قد يجعل الأمر بمثابة الطعن من الخلف والقيام بعملية انتحارية ولكن الأمر لهم هو الهجرة إلى ساحل المغرب بكل ما فى استطاعتهم حيث كانوا قد وعدوهم لهذا الأمر باثنتى عشرة سفينة.

ولم تكن «الصفقة» سوى عملية إغواء لمسيحيى المرية، الذين اتفقوا ، حيث قاموا بمسيرة تجاه ربوة إنوكس يوم ٢٩ يناير ووصلوا فى مواجهة العدو الساعة التاسعة من صباح يوم الأحد ٣٠ يناير. وكانت الرغبة فى الاستفادة من الغنائم والربح أن انضم عدد من الرجال الذين كان فى استطاعتهم الحصول على الأسلحة. ولقد أثبتت السجلات الخاصة بالكتابات بالعدل بعد المعركة أسماء وألقاب وأحيانًا وظائف ومهام أهل المرية الذين كان يتألف منهم الجيش، ومن كل الطبقات الاجتماعية كان الجميع يذهب بحماس للهجوم على جبهة إنوكس؛ ومنهم النواب فى مجلس البلدية : رويث دياث دى خيباخى Ruiz Diaz de Gibaje وخيرونيمو دى لورنثانا Geronimo de Lorenzana وخوان دى فيجيروا Juan de Figueroa ؛ والوكيل خيرونيمو دى موراتا Geronimo de Morata ، والأطباء مولينا Molina وخوان باوتيستا دى لاس ايراس Juan Bautista de las Heras والمحامى فرانسيسكو روانو Francisco Ruano . وكان كل هؤلاء يحاربون بجوار الحرفيين والمهنيين البسطاء والمغامرين ، ومنهم صُناع الجوارب: دييجو جوتيريث Diego Gutierrez وبدرو دى بانتيكوسا Pedro de Panticosa؛ وصُناع الغلايات : جومى بالومو Gome Palomo وخوان دى بونيا Juan de Bonilla؛ والخياط جاسبار دى الكالا Geronimo de Herrada ؛ وبائع التوابل خوان جونثاليث اسبينوسا Juan Gonzalez Espinosa؛ وبائع الملح مارتين روبيو Martin Rubio ؛ والحداد بدرو راموس Pedro Ramos؛ وبائع الصابون انطون رامون Anton Ramon ... ولقد ترك الجميع ورشهم ومحلاتهم فى سكونها بهدف الإنخراط فى صفوف الجيش غير المنتظر ، فضلاً عن إنضمام رجال الدين كالقساوسة مارتين دى سوتو Martin de Soto وايرناندو دى مونثون Hernando de Monzon وخوان دى سولير Juan de Soler الذين اشتركوا فى «الصفقة» . وبهذا أصبحت مدينة المرية بدون حماية أو قوة بخروج مجمل الرجال الذين يكون فى مقدرتهم حمل السلاح ، وأن هذا الأمر كان فى إمكانه أن يثير تمرد وثورة الموريسكيين الذين كانوا يعيشون بالقرب منها؛ وأعتقد أنهم لم يقوموا بهذا العمل لاقتناعهم الثابت بأن يظلوا أوفياء للتاج الملكى، إذ أنه خلال غياب الجيش المسيحى كانت مراقبة المدينة والإشراف عليها فى أيدى رجال غير أكفاء مثل لقب نائب مجلس البلدية بدرو مارتير دى خيباخى Pedro Martir

de Gibaje الذى كان قد طلب بتاريخ ٢١ يونيه ١٥٦٩ من السلطات العسكرية أن تدفع له الحصة التى كانت تخصه من غزوة إنوكس «لكونى فى نفس الوقت وآنذاك فى مدينة المرية والسهر عليها وإننى فعلت كل ما فى وسعى مثل الآخرين فى حراسة هذه المدينة فى الوقت الذى كان فى الناس فى موقع إينوكس المذكور ». ومن الواضح أن خيباخى Gibaje كان رجلاً متقدمًا فى العمر حيث طلب فى نفس هذا اليوم من الملك أن يعفيه من وظيفته كنائب مجلس البلدية من أجل صالح فرانسيسكو الكوثير Francisco Alcocer من مواطنى المرية[٢٨].

ويغزو ربوة إنوكس Inox ، انصرف أيضًا جنود قصبة المرية Alcazaba de Almeria؛ وتُحدثنا السجلات عن خوان كانوا البيخو Juan Cano El Viejo وخوان الكوثير Juan Al-cocer، وكذلك عن قائد القلعة البارو دى سوسا Alvaro de Sosa[٢٩].

وأمام هذه الدهشة المتوقعة من جانب الموريسكيين بالمدينة ، فقد سلك جنود سفن اسطول خيل دى اندرادا Gil de Andrada نفس طريق إنوكس Inox ، حيث ظلوا بلا حماية فى الميناء، وكذلك غادر العديد من الغرباء الذين كانوا فى المرية بالمصادفة والذين كانت لديهم الرغبة فى إمكانية اقتسام الغنائم . ولقد ذكر كتبة العدل العموميين بالمدينة أسماء أنطون بومارديس Anton Pomades من مواطنى التشى Elche ، ورودريجيث Hernan Rodrige-na وانطون بيكا Anton Pica ، صانع الأربطة والقياطين، من أهالى قرطاجنة Cartagena، والونسو دى بنيالوسا Alonson de Penalosa من أهالى الكاوديتى Alcaudete ، وبدرو دى ثيسبيديس Pedro de Cespedes من أهالى ميدين Medellin، والذى يؤكد فى سجل الكتابة بالعدل أنه وُجد فى اشتباك إنوكس Inox [٣٠].

وبينما كانت تتم الاستعدادات للقيام بالهجوم عقب عرض السلام الذى قدمه السيد فرانسيسكو دى كوردوبا Don Francisco de Cordoba والذى لم يكن بذى جدوى، بدأت المعركة فى اليوم الأول من فبراير . وكان لتهيئة المكان جانبًا إيجابيًا للمسيحيين حيث أن موقعهم أسفل صخرتين هائلتين بالربوة لم يكون فى متناول الموريسكيين أن يلاحقوهم بإلقاء الحجارة عليهم ولا بالسهام التى كانوا يقذفونها ، وإنما على العكس كان الثائرون بمثابة الهدف المؤكد لأسلحتهم وبنادقهم . ونظراً لعاصفة الرياح الشديدة التى اجتاحت الموقع أن قرر القادة التخلى عن الصراع لليوم التالى لعيد تطهير العذراء Fiesta de la Candelaria. وأثناء الليل وبرفقة فرقة الاستطلاع احتل السيد فرانسيسكو دى كورودبا الجبل القريب من الربوة التى كان يشرف عليها من جهة الشمال والسيد كريستوبال دى بياروئيل بفرقة المؤخرة بدأ

الهجوم قبل الشروق. وعندما بدأ الفجر يشق النهار كانت كلتا فرقتى المعركة تحيط بجبل إنوكس Inox . وكتب مارمول Marmol يقول «هناك اشتبك الأعداء كرجال عازمين على التضحية بحياتهم من أجل حرية نسائهم وأبنائهم الذين كانوا رفاقًا لهم فى محفل الخطر»(٣١).

وكان لبسالة وشجاعة الموريسكيين إمكانية تغيير دفة المعركة، حيث بدأ العديد من المسيحيين فى الفرار وأن كل شئ كان على وشك الضياع إلا أن بعض القادة لم يفاجئوا المتمردين بفرقة المؤخرة بل صعدوا أعلى بعض الصخور التى كانت على يسارهم من الجبل. وهذا هو الذى حقق النصر المسيحى، وحسب قول المؤرخين أن أكثر من أربعمائة موريسكى قتلوا فى الاشتباك وتم أسر أكثر من ألفين وسبعمائة رجل من بينهم نساء وأطفال والاستيلاء على كميات كبيرة من الملابس والجواهر والذهب والفضة والأنعام، الخ ... تقدر بأكثر من خمسمائة ألف مسكوكة (٣٢). وعلى الرغم من من أن المؤرخين قد بالغوا إلى حد ما ، فإن الأرقام كانت مرتفعة بالشكل الذى يعتبر انتصار المسيحيين فى إنوكس Inox بمثابة «صفقة» حقيقية.

ووفقًا لما تمت الإشارة إليه سلفًا فقد تم الانتهاء من توزيع مئات من الأسرى الموريسكيين والنساء والأطفال الذين تم نسبهم إلى القادة والفوارس وأصحاب السفن الحربية وحملة السلاح وأعضاء الحرس لمكافحة التلصص والجنود البسطاء . وسرعان ما تم بيع أو اطلاق سراح العديد من هؤلاء الأسرى بعد سداد فديتهم من خلال محاضر وكتابات العدل لدى كتبة العدل بالمرية.

وقد تم إيداع خمس الرسوم العينية لقيمة الأسرى لدى جاسبار دى آفيندانو Gaspar de Avendano، المسؤول العام لخزانة الأمانات والإيداعات ونائب مجلس بلدية المدينة (٣٣)، وهذه الرسوم ستؤول إلى السيد فرانسيسكو دى كوردوبا Don Francisco de Cordoba الذى تولى القيادة العامة لهذه المؤسسة، ولكنه تنازل عن جزء إلى السيد جارثيا دى بياروئيل Garcia de Viaalroel لتجنب الانقسامات تحسبًا لما سيقال بعد ذلك.

وتم إجراء التوزيع العام أمام كاتب العدل العمومى والمعين بالمرية فرانسيسكو لوبيث كورنياس Francisco Lopez Correas (٣٤)، حيث استلم كل واحد وفقًا للدور الذى قام به فى المعركة حصته. الونسو دى روا Alonso de Roa، فرانسيسكو دى سانتا كروث Fran-cisco de Santa Cruz وخوان جيرويرو Juan Guerrero ، وهم مجرد جنود عاديين كان

عليهم الاتفاق على استلام أسيرة تبلغ من العمر ستون عامًا تُدعى ليونور Leonor، من مواطنات أويبرو Huebro[٣٥]. كما تم منح ثلاثة جنود هم بدرو دياث Pedro Diaz وجاسبار جاييجو Gaspar Gallego وخوانيس دى ريوكسانو Juanes de Rioxano، مواطنة موريسكية من ريوخا Rioja تُدعى ماريا دى بارجاس Maria de Vargas[٣٦]. وعلى العكس، فإن حامل السلاح خوان دى إسكاميث Juan de Escamez ، من أهل المرية قد تسلم لنفسه فقط أسيرة موريسكية تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا ومعها طفلة عمرها ثلاث سنوات ، تُدعى بياتريث Beatriz وطفلاً يُدعى فيليبى Felipe؛ وقد ورد فى الوثيقة تأكيد على أن ما يخصه هو ثلاثة أسرى باعتباره «رجلا فارسًا» [٣٧]. وإلى حاملى سلاح آخر من المرية اسمه جابرييل دى نافاريتى Gabriel de Navarrete تم تسليمه أسيرة معها ابنتها الطفلة البالغة من العمرة عشرة سنوات [٣٨].

ويظهر قادة الجيش المسيحى، الذين ذكرهم المؤرخ مارمول دى كارباخال Marmol de Carvajal فى وثائق الكتابات بالعدل فى صورة بيع أو إنقاذ الأسرى الذين تم إهداؤهم لهم مكافاة على تعاونهم . وقد ورد اسم الفارس خوان دى لاس ايراس Juan de las Heras فى محضر كتابة بالعدل بتاريخ ٢٧ فبراير ١٥٧٠بأن أصدر خطابًا بإطلاق سراح أسيرة ، كانت من نصيبه فى تركة توزيع أسرى غزوة إنوكس، تدعى بياتريث Beatriz، من مواطنات إنوكس، ودفعوا مقابلها ستين مسكوكة [٣٩]. ويقص المؤرخ كيف ألقى الفارس بجسده فى أتون المعركة لدرجة أن مسلمًا جرح الفارس خوان دى لاس ايراس Juan de las Heras بطعنة خنجر[٤٠].

ولقد حصل السيد جارثيا دى بياروئيل Garcia de Villaroel ، قائد فرقة المشاة والفروسية بالمدينة، على نصيب كبير من الغنائم ؛ إذ أنه فى يوم ٢٨ مارس ١٥٦٩ باع بأربعين مسكوكة أسيرة عمرها ١٢ أو ١٣ سنة وهى من مواطنات تابرناس Tabernas والتى كانت من نصيبه فى توزيع غنائم غزوة إنوكس [٤١]؛ كما حصل خوليان دى بيريدا Julian de Pereda فارس بفرقة المشاة التابعة لحملة بياروئيل، على الأقل ، على أسيرتين ، واحدة عمرها ١٨ سنة تُدعى فرانسيسكا آلاراكس Francisca Alarax وأختها ماريا Maria عمرها ١٦ سنة من مواطنات ريوخا Rioja[٤٢].

كما يؤكد مارمول Marmol فى عدة مناسبات أن السيد خوان بونثى دى ليون Juan Ponce de Leon بصفته أحد قادة فرقة الجيش كان له حظ الاستفادة من الغنائم بأن أخذ

موريسكية تُدعى برياندا الماراكس Brianda Almarax ، من مواطنات بيناهادوكس Bena-hadux ، والتى باعها فى ٢٩ أبريل ١٥٦٩ بمبلغ وقدره ستون مسكوكة(٤٣).

أما الغنيمة الكبرى، المؤلفة من ألفى أسير، فقد وصلت إلى العاصمة يوم الخامس ، ولم يكن من السهل نقل العديد من الجرحى والمرضى والأطفال والنساء، من بينهن نساء حوامل على وشك الولادة فى منازل سادتهم . ولقد تم إيداع الأسرى فى المخازن الملكية والتى كان يقيم فيها أيضًا الأسرى الموريسكيون وذلك عقب معركة فيلكس Felix . وفى الأيام التالية حدثت نقاشات كثيرة وخطيرة بين السيد فرانسيسكو دى كوردوبا والسيد جارثيا دى بياروئيل بشأن توزيع الغنائم، وأن هذه المناقشات قسمت الرأى العام إلى فريقين ؛ ولكن قبل يوم ١٥ من الشهر كان عديد من المشاركين فى معركة إنوكس قد تلقوا مكافآتهم الخاصة بهم حيث سجل الكاتب بالعدل العمومى لهذه المدينة دييجو دى جاييجوس Diego de Gallegos فى ذلك اليوم ثلاث عمليات بيع الأسرى، اثنتان منهما من النساء الأسيرات فى إنوكس من مواطنات ريوخا لوكائينينا Maria de Lucainena تم بيعها بالتقسيط إلى لوبى دى جارثياLope de Garcia (٤٤).

وعقب ذلك بأيام استشرت عمليات بيع الأسرى الوافدين من إنوكس. وكان أغلب المشاركين فى هذه العمليات من أولئك الحرفيين البسطاء أو الذين ليس لديهم أى وظيفة ولم يكن فى إمكانهم إعاشة أسير ما وأن هدفهم كان احتياجهم للمال بسرعة. وهناك آخرون كان لديهم رغبة فى بيع الأسرى حيث كان عليهم مغادرة المدينة، مثل حالة السيد فرانسيسكو دى كوردوبا الذى فضل الانصراف من المرية تجنبًا للمواجهات والاشتباكات . كما قام فرانسيسكو دى روخاس Francisco de Rojas ، من مواطنى هونتيبيروس Hontiveros بأبرشية آبيلا Obispado وخادم السيد فرانسيسكو دى كوردوبا ، يوم ١٩ فبراير ١٥٦٩ ببيع أسيرة أسمها إيزابيل، المقيمة فى تابرناس والتى كانت من نصيبه عقب الهجوم والانتصار فى معركة إنوكس، وذلك إلى مواطن يقيم فى المرية يُدعى فرانسيسكو دى المانسا Francisco de Al-mansa (٤٥).

وعلى الرغم من أن عدد الأسرى لم يكن مرتفعًا كما أكد المؤرخون (٤٦)؛ وأنه تم اختيار عدد لا بأس به من الأسرى الذكور للعمل تحت السخرة على السفن، ومع ذلك فقد حصل كل المشاركين فى المعركة على نصيبهم من هؤلاء الأسرى؛ بما فى ذلك جاسبار آبيدانيو Gaspar Aveando، المسؤول العام عن خزانة الإيداعات والأمانات ، والذى لم ينبغى عليه المشاركة

فى المعركة فقد تحصل على أسيرة عمرها ٢٨ سنة والتى كانت سببًا فى زيادة رأس مال سيدها عندما وضعت طفلة فى شهر يونيه [٤٧]؛ كما كان هناك أسرى آخرون للهدايا حيث منح السيد فرانسيسكو دى كوردوبا مستشفى ماجدالينا الملكى بالمرية Hospital Real de la Magdal-ena de Almeria أسيرة تُدعى إلينا Elena ، من منطقة أويركال Huercal، ومعها طفلها البالغ من العمر خمس سنوات ويُدعى دييجو ثوكوليكى Diego Zocolique [٤٨].

أما القائمون على عمل السفن فقد أدوا دوراً هامًا فى معركة إنوكس عندما حاربوا فى المقدمة مع العريف خوان دى ثانوجيرا Juan de Zanoguera ، حيث تلقوا نصيبًا وافراً مع السيد فرانسيسكو دى كوردوبا . ولقد تحصل قبطان الأسطول القائد فراى خيل دى أندرادا Fray Gil de Andrada ، على أسيرة تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا تُدعى إيزابيل Isa-bel والتى كانت إبنة لويس الونسو دى بينابيدس Luis Alonson de Benavides، من قرية نيخار Nijar ،والتى تم إنقاذها من جانب أقاربها فى المرية مقابل فدية مقدارها ١٥٠ مسكوكة[٤٩]، كما تم إطلاق سراح إثنتين من الموريسكيات فى المرية هما ماريا Maria وبرياندا Brianda ، ابنتا فرانسيسكو البوى Francisco El Poy ، المقيم فى جادور Ga-dor، واللتان كان قد تم بيعهما إلى لويس دى اكوستا Luis de Acosta، قبطان مركب «بارتونو ريال» Patrono Real التابعة لصاحب السعادة السيد خوان دى أوستريا Excelen-tisimo Senor don Juan de Austria [٥٠]، كما تم فى ١٦ يونيه ١٥٦٩ بمدينة المرية إفتداء أسيرة تُدعى لويسا خيبيت Kuisa Xibit، زوجة أندريس نابارو الفبيرى Andres Navarro El Febeire ، المقيم فى توريباس Turrillas ، والتى اشتراها الدكتور دييجو مارتين Diego Martin، مدير مدرسة كاتدرائية المرية، من العاملين على السفن رغبة منهم فى الحصول على المال بأسرع وقت ممكن[٥١].

وعقب مغادرة سفن خيل دى أندرادا Gil de Andrada ميناء المرية، كان عليها أن ترسو فى قرطاجنة Cartagena، حيث واصل البحارة بيع أسرى إنوكس. وفى يوم ٢٦ مايو ١٥٦٩ وصل إلى المرية مواطن من قرطاجنه يُدعى رودريجو دى بالكويندى Rodrigo de Bal-cuende وكانت معه أسيرة من أهل ريوخا Rioja ، زوجة دييجو ثويرى Diego Zuiri، تم شراؤها من ربابنة السفن الملكية بهدف أن يدفع أقاربها فديتها؛ وفى قرطاجنة كان هناك إثنان من أبناء هذه الأسيرة هما الونسو Alonso وماريا Maria كان قد تم أسرهما أيضا فى إنوكس وكان من المنتظر ارسالهما إلى المرية إذا تم التوصل إلى اتفاق على السعر كفدية للثلاثة: الزوجة وإبنيها [٥٢].

http://al-maktabeh.com

ولكن كان هناك العديد من الأسرى الذين لم يعودوا لرؤية ديارهم الأصلية مرة أخرى. ولنا أن نتذكر الأبيات الشعرية التى نظمها بيريث دى هيتا Perez de Hita ، والتى تشير إلى غزوة إنوكس حيث يقول:

السفن ترفع الأشرعة
تجاه الشرق راحلة
بمسلمين ومسلمات حاملة
فى أى مكان لهم بائعة[٥٣]

الحمائم والصقور :

كما سبق أن رأينا أن ماركيز بلش marques de los Velez فى كل من فيلكس Felix وأوهانيس Ohanes والقادة العسكريون لإقليم المرية كانوا ينتمون إلى المجموعة التى تؤيد بأن تكون الحرب بالدم والنار أو كما يقول المؤرخ مارمول Marmol «بقوة السيف»، وأن هذه المجموعة استطاعت أن تخرج بأكبر فائدة ممكنة من المجازر التى وقعت للقساوسة وحرق الكنائس التى قام بها الموريسكيون فى البشارات Alpujarras وأن هدف هذه المجموعة هو رفع أعلام الصليب ونعت كل موريسكى بأنه «عدو العقيدة الكاثوليكية المقدسة» وأن هذه العبارة كان يتم ترديدها وتكرارها بإصرار فى كل سجلات التوثيق تقريبًا والتى كانت تسجل عمليات بيع الأسرى الموريسكيين. وأن هذه المجموعة التى تأسست تحت مُسمى صقور الإيمان كان كل همها تأصيل مفهوم «القديس قاتل المسلمين» Santo Matamoros حيث سمحت هذه المجموعة لنفسها أن ترفع شعار المعنويات الحربية، ويكفى أن نقول إن مؤرخى العصر ووثائق الكتابات بالعدل سجلت تعبيرات تجعلنا نصطدم بها لشدة تعصبها [٥٤].

ومن بين العديد من وثائق الكتابات بالعدل يمكننى أن أذكر هنا وثيقة واحدة حيث يُشهر فيها خادم كنيسة أنتاس Antas، فرانسيسكو مورجا Francisco de Murga ، بالمسيحيين القدامى الذين وفدوا من لوركا Lorca ومن جهات أخرى، بكونهم لصوصًا لممتلكات الموريسكيين، ففى يوم ١٨ ديسمبر ١٥٦٩ أراد أسقف المرية أن يحرمه من هذه الممتلكات لأنه لم يدفع ما كان ملزمًا به بصفته مشتريًا لهذه الممتلكات المسروقة بأراضى بيرا Vera؛ وقد دافع هذا الأخير زاعمًا بأنه لم يتمكن من تحصيل الإيجارات بسبب تمرد الموريسكيين ؛ «بسبب هذه الانتفاضة تمت سرقة ونهب ثمار الفاكهة التى هجرها سكان هذه المناطق وأن المسيحيين

القدامى بمدينة لوركا Lorca وجهات أخرى لم يحصلوا على هذه الثمار واننى لست ملزمًا بشخصى ومن معي ، الذين أثق فيهم ، بسداد هذه الإيجارات»(٥٥).

ولكن ليس كل المسيحيين بمملكة غرناطة كانوا يفكرون بنفس الطريقة فى مواجهة المشكلة الموريسكية ، حيث كانت توجد مجموعة هامة، برئاسة ماركيزدى موندیخار Marquees de Mondejar، حاولت تهدئة البلاد بالرغبة فى أن تجعلها تعيش فى حالة سلمية بصفة أساسية وأن تصل بوسائل إقناع للعدول عن هذه الحرب المؤسفة. وكانت النغمة السائدة بين المؤرخين استخدام كلمة «تقليص» الحرب كأسلوب دبلوماسى لتهدئة الموقف بين قادة التمرد ورُسل ماركيز موندیخار ومن ثم يتخلى الموريسكيون عن أسلحتهم ويعلنون أنهم مستعدون لتلقى الجزاء الذى يستحقونه حسب الخطايا التى ارتكبت وأن ماركيز موندیخار كان قد وعد بالتدخل أمام فيليب الثانى Felipe II وأن جميع من «يقلصون الحرب» سيكون هو لهم بمثابة الإنقاذ حتى لايسبب لهم رجال الحرب أى ضرر أو أى أذى.

وبهذه السياسة القائمة على التفاهم والتسامح التى سادت قبل شهر مارس تم تهدئة جانب كبير من منطقة البشارات Alpujarras وكل السلسلة الجبلية لمنطقة فيلابريس Sierra de los Filabres، وذلك بفضل الجهد الذى قام به توريخوس Torrijos وكل السلسلة الجبلية لمنطقة فيلابريس Sierra da los Filabres، وذلك بفضل الجهد الذى قام به توريخوس Torijos، مبعوث ماركيز دى موندیخار، إنطلاقًا من أورخيبا Orgiva بصحبة ٣٠٠ جندى بهدف «تقليص الحرب»(٥٦).

ولكن هذا السلام لم يُنظر إليه بعين التفاؤل من جانب أولئك الذين رأوا أن الحرب هى أفضل صفقة لهم، وأن الجانب الأكبر من المواطنين الذين ذهبوا إلى معركة مملكة غرناطة لم يكن لديهم أدنى علاقة بالروح العسكرية ولم يوجد لديهم أى مفهوم عن الشرف أو العظمة أو الدين وأن شاغلهم الأول كان الغنائم والأنعام والأشياء الثمينة والعبيد والأسرى ...

ويكتب بيريث دى هيتا Perez de Hita ، شاهد عيان للأحداث ، مشيراً إلى جيش ماركيز دى موندیخار أن من بين العشرين ألف رجل أو أكثر الذين كانوا معه فى معسكره كان نصفهم «من كبار اللصوص فى العالم ومن المغتصبين لأموال الناس ومن الخطافين للحقوق، وأنهم لم يكونوا أصحاب أفكار سوى كيف كان عليهم أن يسرقوا وينهبوا ويحتالوا على مواطنى الموريسكيين الذين كان يغلب عليهم طابع الهدوء والسكينة(٥٧).

وتوجد تأكيدات مماثلة يقدمها دييجو دى ميندوثا Diego de Mendoza بالإشارة إلى

ألف وخمسمائة شخص من قطالونيا جاءوا مع السيد سانشو دى ليبا Don Sancho de Leiva ، حيث تم تجنيدهم بين حياة الصعلكة والإجرام بتلك البلاد ، «وأنه بالعفو عنهم جاء لكى يخدم فى هذه الحرب»[٥٨].

ولكن لم يكن هؤلاء الجنود الغرباء هم الذين كانوا ينهبون ويسلبون وحسب وإنما أيضًا كان يشاركهم فى هذا السلوك كتبة العدل أنفسهم حيث تكشف لنا بعض الوصايا التى تثير الفضول والتى يتضح فيها أن إمرأة كانت على فراش الموت تحتضر وأعلنت بكل صدق عن مصدر ثروتها ، تُدعى فرانسيسكا دى آثانيا Francisca de Hazana ، من مواطنات كويباس Cuevas ، فى وصيتها تقول: «كل الممتلكات وقطع الأثاث والجواهر والثياب التى أمتلكها ، كان مصدرها المذكور إبنى جاسبار دى آثانيا Gaspar de Hazana حيث أحضر كل هذا من مملكة غرناطة وأن كل هذا يخصه ... وأشياء كثيرة أعطيتها للمذكورة ابنتى ملتشورا Melchora بمناسبة زواجها كانت من الجواهر التى جلبها المذكور ابنى جاسبار دى آثانيا من الحرب ...»[٥٩].

وعن طريق وصية مُنحت أمام كاتب العدل العمومى لمنطقة بيرا Vera ، دييجو دى أورتيث Diego de Ortiz ، يمكننا أن نرى كيف شاركت كل الطبقات الاجتماعية مجتمعة فى عملية السلب والنهب والسرقة. «كذلك أقر بأننى وجدت نفسى استولى على أنعام ومسلمين وثياب فيما يخص منطقة البوكس Albox وبمشاركة خوان دى تيرويل Juan de Tiruel، النائب فى مجلس البلدية ، وآخرين تم بيع ملابس وبعض المسلمين وأننى مدين فى جزء من ثمن أغطية إلى لويس دى كارديناس Luis de Cardenas، وإلى أخى وإلى بيليحرين Pelegrin، حامل السلاح...»[٦٠].

وعندما كان ينتشر الخبر بوقوع تمرد موريسكى كان المسيحيون القريبون من هذا المكان ينقضون عليه ويستولون على الأدوات والآلات الزراعية والماشية وعلى الأشخاص أنفسهم، ومن بينهم النساء والأطفال العُزل وإخضاعهم تحت نير العبودية والأسر. وكان يسيطر على جميع المسيحيين الجشع والطمع فى ممتلكات الموريسكيين.

كما أن رعاة منطقة الهضبة La Meseta الذين وفدوا بنعاجهم وتيوسهم من أراضى ثامورا Zamora وبرغش Burgos وقونيقه Cuenca ونابره Navarra أو إشبيلية Sebilla كانت لديهم الرغبة أيضًا فى المشاركة فى هذه الغنائم الموريسكية، وأنه فى يوم ٢٤ يناير ١٥٦٩ أعطوا خوان جارثيا دى توريس Juan Garcia de Torres ، المواطن من المرية، لكى يتحصل

بإسمهم على الأنصبة التى كانت تخصهم والتى زادت عن ٢٢٠ رأس من الماشية (بقرات) من ممتلكات الموريسكيين المتمردين فى منطقة أندراكس Andarax ومن مناطق أخرى بالبشارات Alpujarras وأنهم كانوا قد استولوا عليها فى حقول دالياس Dalias وأن هذه الماشية تم جردها وتسجيلها أمام كاتب العدل العمومى خوان دى لا ترينيداد Juan de la Trinidad[٦١].

وبمرور عدة أيام، فى ٦ فبراير ، باع مواطن من مرسية Murcia يُدعى آلونسو دى آراندا Alons de Aranda إلى خوان أورتيث Juan Ortiz وكريستوبال ساليرون Cristobal Salmeron ، من مواطنى بيرا Vera ، ١٣٣ رأسًا من الماشية الضأن والماعز (المنتجة للأصواف) حيث يقول : «أنه أخذها من المسلمين الذين انتفضوا فى الحرب ضد صاحب الجلالة فى مناطق إنوكس Inox وتورييباس Turrillas »[٦٢].

ولقد تفرقت ثروات الموريسكيين، التى جمعوها بجهد جهيد، فى كل الأنحاء؛ ففى ١١ فبراير ١٥٦٩ منح بعض الفرسان بمنطقة بيرا Vera تفويضًا إلى بدرو سيمون Pedro Simon، واستيبان لوبيث Esteban Lopez وخينيس نونييث Gines Nunez حتى يتمكنوا من بيع ٣٠ رأسًا من الماشية (أبقار) وثلاثة خيول فى لوركا Lorca وجهات أخرى، والتى كانوا قد استولوا عليها من الموريسكيين المتمردين فى منطقة سلسلة جبال أويبرو Sierra de Huebro[٦٣].

وفى يوم ٨ مارس من نفس العام تحصل خوان دى سيجورا Juan de Segura ، النائب فى مجلس بلدية المرية، على ٢٦٤ رأسًا من الماعز والخراف المنتجة للأصواف مقابل أدنى قيمة بمبلغ ٥٢٨ ريال آنذاك (الريال اسم مسكوكة قديمة كانت تعادل ربع البيزيته- العملة الرسبانية)، حيث تم الاستيلاء عليها من الموريسكيين فى منطقة برخا Berja خلال الغزوة التى نظمها السيد القائد فرانسيسكو دى كوردوبا Capitan Don Francisco de Cordoba[٦٤].

وهذه الوثائق الخاصة بالكتابات بالعدل تمثل أهمية كبرى لأنها توضح لنا ممتلكات الموريسكيين وبيان مدى طمع وجشع وشراهة المسيحيين تجاه هذه الممتلكات . فى يوم ٦ مايو ١٥٦٩، منح لويس كاخولى Luis Cajuli، من المقيمين فى قرية كابريرا Cabrera ، تفويضا لرودريجو دى بيرينا Rodrigo de Llerena، وكيل قضايا ، بشأن المطالبة باسمه «بكل محصول الشعير الذى فى حوزة بعض المواطنين بهذه المدينة (مدينة بيرا Vera) حيث أحضروا العُشر من قرية تيريسا Teresa والذى لم أتحصل عليه العام الماضى ، من بعض صوامع

الغلال التى كانت قريبة من موقع تيريسا Teresa المذكور، مع بعض المسكوكات فى ذلك التاريخ» (٦٥). ويمكن ملاحظة أن غزاة بيرا Vera ، الذين كانوا يستندون دائما إلى أن الموريسكيين كانوا «أعداء العقيدة الكاثوليكية المقدسة» لم يراعوا ولم يحترموا أنفسهم ولاحتى الصليب الذى يهدف إلى أن عُشر الممتلكات كان يخص الكنيسة.

ونظراً لما تتسم به وثائق الكتابات بالعدل بالدقة المتناهية نجد أنها تُعرفنا بأى قطاع من المواطنين المسيحيين كان يستفيد من الممتلكات المصادرة من الموريسكيين . فى اليوم الأول من مايو ١٥٦٩ تم بيع فى مزاد علنى ١٠٠٩ رأس من قطيع الماعز ملك المواطنين بقرية تيريسا Teresa والذين فرّوا وهرعوا إلى ساحل المغرب، وقد رسى مزاد هذا القطيع على نائب مجلس البلدية أنطونيو فاخاردو Antonio Fajardo، ولكن هذا الأخير أصدر تفويضًا أمام كاتب العدل بدرو جاثكيث Pedro Gazquez بشأن كتابات بالعدل إلزامية توضح لنا كيف أن قطيع الماعز تم إعادة توزيعه بين نائب مجلس البلدية بدرو مارتينيث دى سالاس Pedro Martinez de Salas ولجنة التحكيم المكونة من مارتين دى سالاس ثيسبيديس Martin de Salas Cespedes وبارتولوميه بلاثكيث Bartolome Blazques وخينيس جارثيا Gines Carcia ، الذي يشغل أيضًا نائبًا فى مجلس البلدية، وباوتيستا دى سوتو Bautista de Soto والونسو ميبادو Alonso Meallado وبدرو ميبادو Pedro Mellado وديبيجو دى كامبوس Diego de Campos والذين ينتمون إلى طبقة البرجوازية بمدينة بيرا Vera(٦٦).

ولكننا لا نلقى باللوم على البورجوازية التى تقوم بأعمال العنف ضد الموريسكيين وحسب. وإنما نشير إلى كل حثالة المجتمع الإسبانى لأنه فيما يبدو أن الجميع كان قد اتفقوا على اللقاء فى إقليم المرية.

ويمكن القول إن منطقة السهول التى كانت تمتد بين لوبرين Lubrin وأوليلا دل كامبو Uleila del Campo وتابرناس Tabernas وسورباس Sorbas ، خلال عصر الموريسكيين ، كانت غنية برؤوس الماشية ؛ ففى أوائل شهر يونيه ١٥٦٩ فُوجئ أصحاب مزارع الماشية المسالمين بحملة غازية من المسيحيين المسلحين «حيث استولوا على ١٥٠٠ رأس من قطيع الماعز ملك ديبجو أجودو Diego Agudo، المقيم فى لوبرين Lubrin، و٤٠٠ رأس ماشية ملك ديبجو خاكارا Diego Xacara، المقيم فى سورباس Sorbas ، وكلاهما من الموريسكيين. وكان من رجال هذه الإغارة أنطونيو دى كابايوس Antonio de Caballos ، مواطن من الومبريس دى ماثارون Alumbres de Mazarron ، وفابيان دى سيجورا Fabi-

an de Segura ، مواطن من أوبيدا Ubeda، وخورخى فورجيرا Jorge Forguera وبدرو استيبان Pedro Estevan وخايمى سيميرا Jaime Simera، وكان يطلق على الأسماء الأربعة الأخيرة «رجال البحر»(٦٧).

وفى الأيام الأولى من شهر يونيه ١٥٦٩ أيضًا وقعت عمليات هجوم واعتداء على المناطق الموريسكية التى تأوى مزارع لتربية الماشية فى رامبلا دى خيرجال Rambla de Gergal، وكان من بين الذين قاموا بالإغارة على المرية Almeria دومينجو هيرناندیث Domingo Hernandez والونسو دى لارا Alonson de Lara والونسو موران Alonso Moran. وكان من نتائج هذه الإغارة أن تمت مصادرة ١٧١ رأس من قطيع الأبقار والتى تم بيعها بواسطة فرانسيسكو رويث دل بانو Francisco Ruiz del Pano (٦٨).

وأمام هذا الجشع المتزايد وحالة عدم الإنضباط التى لا رابط لها صفوف الجيش المسيحى، أصبحت الصعوبات التى يواجهها ماركيز دى موندیخار Marques de Mondejar والموالون له بشأن العملية السلمية خطيرة للغاية. ويؤكد المؤرخ مارمول كارباخال Marmol Carvajal أن الجنود «كانوا غاضبين من رؤية السلام»(٦٩) وأنهم كانوا يعصون الأوامر ويعتدون على الأماكن التى كانت تحت ضمانة موندیخار وكانوا يأسرون أى موريسكى أو موريسكية يجدونه أو يجدونها على الرغم من وجود «إذن بالمرور» لذاك أو هذه .

وفى وثيقة لكتابة بالعدل، تثير الفضول، موقعة فى الأول من أبريل ١٥٦٩ قام فرانسيسكو لوبيث ابن زله Francisco Lopez Abenzalama عن نفسه وعن المواطنين المقيمين فى منطقة الكوليا Alcolea وفى مناطق أخرى بالبشارات Alpujarras، بمنح تفويض إلى خوان سانشيث Juan Sanchez ، المقيم فى المرية ، بهدف المثول أمام دار قضاء الملك وأن يطالب بأن يمنح الحرية لكل أسير أو أسيرة ، نساء وأطفالاً ، الذين أسرهم الجنود بالمرية عندما قاموا بالإغارات على البشارات ، على الرغم من أن سكان هذه المناطق كان لديهم تصاريح بالمرور والحركة ومؤن خاصة من ماركيز موندیخار Marques de Mondejar (٧٠).

وكان من بين المشروعات الكبيرة للمتمردين الاستيلاء على مدينة المرية ، إذ أن تملك هذا الميناء الحيوى المهم كان يتيح لهم إقامة علاقات مباشرة مع الجزائر والحصول على المساعدات من الأتراك والبربر . وقد تم اختيار قرية هوثيخا Huecija من جانب الموريسكيين مركزاً لتجميع القوات المجندة فى مواقع نهر اندراكس Rio de Andarax ودوائر وأقاليم لوتشار والبولودوى Tahas de Luchar Alboloduy . وهذه المنطقة كانت أول مكان يحارب فيه

مركيز بلش Marques de los velez عندما كان بجيشه فى تابرناس Tabernas، حيث تلقى فى ١١ يناير أوامر الملك بأن يتوجه لنجدة المرية ويرفقته خمسة آلاف رجل من المشاة والجنود المسلحين وثلاثمائة من رجال الفرسان والهجوم على قرية هويرثيخا Huercija والتى كان تم تحصينها بأعداد كبيرة من المتمردين تحت رئاسة الجورى El Gorri؛ وفى مواجهة أمر الهجوم لقوات الماركيز هرب عدد كبير من الموريسكيين إلى سلسلة جبال إيار Sierra de Illar وجادور Gador ، الأمر الذى جعل إقليم مارتشينا Taha de Marchena تحت رحمة الجنود المسيحيين الذين سرقوا ونهبوا كما يحلو لهم .

ولكن بعد ذلك بعدة شهور، وعلى الرغم من معركة إنوكس Inox عاود الموريسكيون إعادة بناء قواتهم وتوحيدها فى هويشيخا Huecija. وأمام هذا الخطر الجديد، نظم السيد القائد جارثيا دى بياروئيل Capitan Don Garcia de Villaroel حملة إغارة فى ٢٥ يوليه ١٥٦٩ يوم الاحتفال بأعياد القديس الرسولى سانتياجو Santiago Apostol حيث توجد أخبار تثير الفضول وحب الاستطلاع وصلت إلينا عن طريق محاضر الكتابات بالعدل . وتذكر لنا هذه الوثائق خوان جارثيا دى توريس Juan Garcia de Torres والونسو دى مونتويا Al-onson de Montoya وخوان دى أريانو Juan de Arellano والتاجر اللص الونسو دى كوردويا Alonson de Cordoba ، والمحاسب بدرو دى سانتيستيبان Pedro de Santiste-ban، وجميعهم من أهل المرية المقيمين الذين تلقوا أو اشتروا أسرى موريسكيين تم استقدامهم خلال هذه الإغارة[٧١] . ويقص علينا المؤرخ مارمول كارباخال بتفاصيل كثيرة عن الحيل والخدع التى تدبرها القائد بياروئيل Villarol لمفاجأة القوات المجتمعة فى هويشيخا Huecija بأن أوصى وأشاع أنه كان متوجهًا إلى الشرق حتى لايتمكن جواسيس وعيون الموريسكيين بالمرية من إبلاغ ابن أميه Aben Humeya ، وقام بالهجوم على المكان الذى استطاع أن يقتل فيه العديد من الموريسكيين المتمردين وقام بأسر مائة وثلاثين أسيرة والاستيلاء على العديد من الأمتعة والمؤن [٧٢].

وفيما يبدو أن سكان مدينة بيرا Vera لم يأخذوا موضوع تمرد الموريسكيين بنظرة تشاؤمية زائدة ، إذ أنه بدلاً من التركيز على القيام بتحصينات للأسوار الضعيفة حول المدينة انخرط جانب كبير من الشباب فى صفوف جيش ماركيز بلش والمشاركة فى العمليات العسكرية التى أسفرت عن نتائج إيجابية فى فيلكس Felix وأوهانيس Ohanes ودائرة مارتشينا Marche-na . وتكشف لنا محاضر الكتابات بالعدل، التى حررها كاتب عدل بيرا Vera الونسو دى

لاكاردينا Alonso de la Cardena ، عن دور رؤساء الفرق والحراسة لهذه المدينة والذين تمت مكافأتهم على تعاونهم ومشاركتهم فى الحملة ضد الموريسكيين والتى أنجزها والى مرسيه Murcia، حيث تلقىّ فرانسيسكو كويادو Francisco Collado والونسو جودوى Alonso Godoy والونسو دى كاباروس Alonso de Caparros وبدرو إى الباريث دى جيفارا Pedro y Alvarez de Guevara ، العديد من الإماء والأسيرات الموريسكيات «لأننا أستولينا عليهن وكنا أصحاب شأن فى الحرب الجيدة وفى توزيع غنائم الإغارة والتى قام بها صاحب السعادة ماركيز بلش فى أوهانيس Ohanes بمملكة غرناطة هذه» [٧٣]. ولم يتحدث المؤرخ مارمول عن المليشيات المتطوعة بالمدينة والوافدة من بيرا Vera لأنهم لم يكونوا سوى جنود متطوعين فى مليشيات لوركا Lorca ومرسيه Murcia وثيجرين Cehegrin .. الخ، وأنهم كانوا يعودون أدراجهم حيث مسقط رؤوسهم ويهجرون الجيش ويقومون ببيع الأسرى الذين أخذوهم فى بيرا Vera فى شهر فبراير بمجرد أن يتسلموا مكافآتهم.

وتوجد وثيقة لكتابة بالعدل مؤرخة فى فبراير ١٥٦٩ تكشف لنا عن واحدة من تلك المآسى العائلية العديدة التى نتجت من جراء تلك الحرب الأهلية المفزعة . وهذه الوثيقة هى واحدة من الوثائق التى تجعل الباحث يفكر بأن تمرد الموريسكيين تم استخدامه كحجة ، فى كثير من الحالات ، لسرقة العائلات العُزل الفقيرة والتى لم يكن لها حول ولاقوة حيث كانت تعيش بالكاد على نتاج عملها الكادح والمضنى فى عزلتها بمنطقة السلاسل الجبلية بإقليم المرية، وأن هذه العائلات لم تكن تفهم أوتدرك ماهية السياسة ولا التمرد ولا الهجوم على العقيدة الكاثوليكية المقدسة. وتلك حالة مواطن موريسكى يُدعى لورنثو فلوريس Lorenzo Flores الذى كان يعيش مع زوجته إيزابيل Isabel وأولادهما السبعة : هيرناندو Hernando، خوليانا Juliana، لويس Luis ، دييجو Diego، ميكائيلا Micaela، ماريا Maria وطفل حديث الولادة. كان الجميع يعيشون فى مكان شديد الإنحدار بسلسلة جبال أويبرو Huebro ، وسرعان ما شعروا بمحاصرتهم من جانب بعض المسيحيين الذين لم يكونوا على معرفة بهم بالكامل ، وأنهم من المقيمين فى مدينة بيرا Vera. وقد وردت فى هذه الوثيقة أسماء هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق الحقيقيين . ولقد قامت هذه المجموعة بأسر الموريسكيين وحيواناتهم وتم حملهم إلى بيرا Vera؛ «بالأمس جاء خبر إلى هذه المدينة، وتم احضار ايزابيل فلوريس Isabel Flores وأولادها السبعة إلى المدينة، وأنها من مجموعة المتمردين حسبما ثبت باعتراف لورنثو فلوريس Lorenzo Flores ، زوجها ووالد السابق ذكرهم». وما لم تذكره الوثيقة هو ما يتعلق بالاجراء المستخدم لانتزاع ذلك الاعتراف. والأمر يدور حول قطيع من

الأغنام ، وأن العائلة تم توزيعها بين اللصوص وقطّاع الطرق : «أعطى طفل يدعى دييجو Diego وطفلة تُدعى ميكائلا Micaela إلى المذكور لويس دى تييو Luis de Tello ، والمذكور فرانسيسكو دى هارو Francisco de Haro تسلم خوليانا Juliana ولويس Luis وبغل بشعر داكن اللون، والمذكورون بدرو مارتينيث دى سالاس Pedro Martinez de Salas وبدرو رويث Pedro Ruiz وخوان لوبيث Juan Lopez تسلموا إيزابيل فلوريس Isabel Flores ومعها الطفلة حديثة الولادة وهيرناندو وفلوريس Gernando Flores ، أكبر الذكور، وتسلم نيكولاس جوميث Nicolas Gomez طفلة عمرها ثلاث سنوات تُدعى ماريا فلوريس Maria Flores ، وتسلم خوان لاسو Juan Laso خوان ليو Juan Lillo اثنتا عشرة مسكوكة نقداً ...»[٧٤].

وفى اليوم الخامس من نفس الشهر، باع فرانسيسكو دى هارو Francisco de Haro إلى أجوستين ميندث برادو Agustin Mendez Prado الأخوين خوانا Juana ولويس Luis ، وتثبت الوثيقة أنهما كانا من مواطنى أويبرو Huebro وأنهما كانا تحت مظلة العبودية والأسر لفاجأتهما بالقرب من موقع تيريسا Teresa عندما كانا يحاولان المرور إلى ساحل المغرب . والوثيقة لاتشرح لنا كيف تم ذلك، حيث أن أويبرو Huebro تقع فى مواجهة البحر، وأنه تم احتجازهما فى سلسلة جبال كابريرا Sierra de Cabrera بدلاً من توجهما نحو الشاطئ[٧٥]. ونظراً لأن الموريسكيين كانوا يعرفون المنطقة جيداً ، فإن كل هذا يجعلنا نشك فى أن الأمر كان مجرد حجة أو ذريعة لجعل كل العائلة تخضع تحت نير العبودية والأسر.

ولكن كل هذه الأعمال التعسفية لم تتوج بالنجاح، إذ أن السلطات العسكرية لم تكن تسمح للإغارات أن تتم دون إذن منها ، وأن هذه الإغارات التى حدثت كانت تقوم بها مجموعات لم تكن خاضعة لإشراف ومراقبة المسيحيين القدامى الذين كانوا يسرقون ويأسرون الموريسكيين الذين كانوا قد استسلموا بطول أناة، فضلاً عن أنهم لم يتمردوا على الإطلاق . وهكذا فى يوم ١٧ مارس ١٥٦٩ منح كل من الونسو الباداليخو Alonso Albadalejo وبدرو دى فيرجارا Pedro de Vergara وخوان جانثا Juan Ganaza وبارتولوميه دى يثينجود Bartolome de Becengud وبدرو دى بورجوس Pedro de Burgos ، من المقيمين فى مدينة قرطاجنة Cartagena ، تفويضا إلى خينيس دى الباراثين Gines de Al-barracin ، المقيم فى بيرا Vera حتى يمكنه حال حل النزاع تحصيل مبلغ الغنائم المكون من سبع من الأسيرات وأسير واحد تم الفوز بهم واقتناصهم فى سلسلة جبال بيرخا Sierra de Berja والتى كان قد حال دونها السيد جارثيا دى بياروئيل Don Garcia de Villaroel ، قائد مدينة المرية[٧٦].

وبمرور بضعة أيام ، صدرت رسالة بيع بتاريخ ٢٧ أبريل ١٥٦٩ أمام كاتب العدل الونسو دى لا كادينا Alonso de la Cadena ، تكشف لنا كيف كانت الإغارات التى ترأسها نائب مجلس البلدية بارتولوميه بلاسكيث Bartolome Blasquez ، المقيم فى بيرا Vera ، والتى تمت فى النهاية بموقع سلسلة جبال بيرخا Sierra de Berja والكوليا Alcolea، وأنه تم منع هذه الإغارة بأمر من ماركيز بلش Marques de los Velez حيث أودع فى المنزل الذى كان يمتلكه فى تركى Terque الموريسكيات والجواهر من الذهب والفضة وقطيع الأبقار والخراف والماعز اللاتى تم الاستيلاء عليهن دون وجه حق(٧٧).

وعلى الرغم من الاهتمام الذى كانت توليه السلطات بشأن حظر هذه العمليات المفلوتة فى أراضى الموريسكيين ، فإن هناك أسبابًا أخرى أخرى أدت إلى ذلك هو أنه لم تكن تُحصل نسبة الضريبة الملكية والجزية ومن ثم كانت تتم عمليات الإغارة والاستيلاء على الغنائم وأن بعضها تم الكشف عنها فى الوثائق الخاصة؛ ففى الوثيقة المؤرخة فى ١٦ أكتوبر ١٥٦٩ يمكننا أن نقرأ فى أحد شروط وصية خوان مونيوث Juan Munoz ، الصادرة فى بيرا Vera، : « أقر أن خوان دى أجيلار Juan de Aguilar ، الفارس الأكبر ، وكذلك أولئك الذين سوف يُعلن عنهم ، مدين لى بخمس مسكوكات وأربعة ريالات من حصيلة غنائم المسلمات اللاتى أحضرن من سلسلة جبال توروياس Sierra de Turrillas »(٧٨).

ولكن أهل منطقة بيرا Vera لم يقوموا بالإغارات والغزوات على الأماكن المجاورة وحسب، وإنما كانوا أحيانًا يغامرون فى إرساليات لها حجمها وثقلها مثل تلك التى قام بها حملة السلاح التابعون للقائد السيد لويس دى لاكوبا Capitan Don Luis de la Cuva فى منطقة البشارات Alpujarras قبل نهاية عام ١٥٦٩ والتى شارك فيها خينيس بيريتون Gines Pereton وديبجو دى سالاس Anton de Galez آخرون (٧٩)؛ ومن ثم يتضح أن ابن حميه Aben Humeya كان يرغب فى استسلام مدينة بيرا Vera بالهجوم عليها بالمدفعية فى يوم ٤ سبتمبر ١٥٦٩، وأنه لم يتوقف عن إصراره إلا بالإنذار الذى ورد إليه بأن المليشيات العسكرية بمدينة لوركا Lorca المجاورة سوف تتجه بكل عجالتها لمساعدة مدينة بيرا Vera (٨٠).

وفى عام ١٥٧٠ لم يكن هناك سبيل إلى تهدئة الحرب بين الموريسكيين والمسيحيين القدامى، وإن كانت قد حدثت تغيرات عميقة على امتداد العام. ففى شهر يناير ظهر على مسرح العمليات الحربية السيد خوان دى أوستريا Juan de Austria ، مبعوث فيليب

http://al-maktabeh.com

الثـانى Felipe II، بهدف سرعة إنهاء حالة الحرب التى أصبحت كابوسًا ثقيلاً لكل البلاد والتى تزيد من تعقيد سياسة إسبانيا الخارجية بسبب عمليات التورط التى يمكن أن تحرك تركيا وحلفاءها بشمال أفريقيا.

وجاء خوان دى أوستريا بجيش غير متناسب على كافة الأصعدة : أكثر من اثنى عشر ألف رجل لمواجهة عصابات وفرق الموريسكيين . ولقد اعتنى الملك بأن يرسل كميات كبيرة من المال إلى المدن حتى لاتوجد مشكلة تتعلق بالمعيشة والإمدادات للقوات. وكان سلاح الفروسية، فى حقيقة الأمر ، متألقًا وقد برز فيه أفضل فرسان الأندلس الأكفاء ، الذين قدموا من دوقية مدينة سيدونيا Ducado de Medina Sidonia ومن قضاء خيريث دى لافرونتيرا Jerez de la Frontera ومن ولاية ثغور كاثورلا Adelantamiento de Caszorla [٨١]...

وفى سلاح المشاه برز جنود على مستوى عالٍ من المهارة والكفاءة ، من بينهم القائد بدرو دى باديـا Capitan don Pedro de Padilla ، خبير الميدان، المولود فى طلبيره دى لاريينا Talavera de la Reina والذى كان له نشاطًا ومساهمة ملحوظة على مدار عام ١٥٧٠ فى أراضى المرية. ولقد انضمت إليهم وحدات المليشيات المدنية من ثيخين Cehegin وقـرطاجنة Cartagena ولوركـا Lorca ومن المدن التابعة لمرسيه Murcia التى ظلت فى إطار مملكة غرناطة بعد مغادرة ماركيز بلش فى يناير ١٥٧٠ .

أما المدفعية فقد منحت جيش السيد خوا دى أوستريا إمكانات وإمدادات لم تكن ذات أهمية بالنسبة لنوع الحرب التى كانت دائرة وأن المدفعية لم تكن ذات فاعلية نظراً لطبيعة البلاد ، حيث أن بناء الممرات والمعابر وقواعد البطاريات لم تلبى سرعة العمليات العسكرية واحتياجاتها بالقدر المطلوب . ولقد أحضر قائد قشتاله Comendador de Castilla كميات لابأس بها من قطع المدفعية إلى قرطاجنة Cartagena وكذلك الأسلحة والبارود والاحتياجات الخاصة بامداد الجيش ؛ وأنه كان لزامًا نقل هذا العتاد الحربى من قرطاجنة إلى باثا Baza عبر طرق وعرة ومسالك برية سيئة ، ومن هنالك إلى جاليرا Galera وأن مسارح الحرب الأخرى كانت تمر عبر مسالك وطرق رديئة وأن المجهود الذى بذل كان شاقا . ولقد تركت لنا وثائق كتابات العدل أسماء السائقين المعذبين لعربات النقل والإمدادات التى كانت تجرها البغال التى خدمت فى جيش السيد خوان دى اوستريا، من هؤلاء السائقين من مواطنى سوكويانوس So-cuellanos يرد ذكر جونثالو دى اريبالو Gonzalo de Arevalo وهيـرناندو دى لاثا Her-nando de Laza اللذان منحا تفـويضًا ، بتـاريخ ٨ مـايو ١٥٧٠ ، أمـام كـاتب عـدل بيـرا

Vera . ألونسو كادينا Alonso Cadena إلى ميجيل لوبيث Miguel Lopez ، المقيم فى سوكويانوس Socuellanos ، حتى يتمكن من التحصيل من صراف صاحب الجلالة مسكوكات المرابطى Maravedi (عملة إسبانية قديمة) التى كانت لهم مقابل خدمتهم بعرباتهم وبغالهم فى جيش السيد خوان دى أوستريا ، ونفس الشئ كان يطالب به خوان دى أرويو Juan de Arroyo وفرانسيسكو مانثيبو Francisco Mancebo والونسو مارتينيث Alonso Martinez وبدرو دى كاستيير Pedro de Castillo الذين وفدوا من البسيط Albacete بعرباتهم وبغالهم . ومن منطقة البيسو El Viso وردت أسماء السائقين خوان دى بالبوينا Juan de Babuena وفرانسيسكو دى ورا Francisc de Mra ، ومن منطقة دايميل Dai-miel التابعة لقضاء قلعة رباح Castillo de Calatarava وردت أسماء ديبجو بيليث Die-go Velez والونسو جونثاليث Alonso Gonzalez . وفى ولاية أمير ثغر بيينا Marque-sado de Villena كان هناك العديد من الفلاحين المظلومين بسبب الأزمات الزراعية الذين تركوا آلات الزراعة وانضموا للعمل كحمالين وحوذية فى الجيش الملكى ، وكذلك العديد من أهل قلعة جارثيا مونيوث Castilo de Garcia Munoz كانوا قد تقدموا بشكوى فى ٢٤ إبريل ١٥٧٠ بأنهم لم يتحصلوا على مكافآتهم على الخدمات التى قاموا بها كسائقين للعربات بكونهم كانوا فى مدينة بيرا Vera آنذاك.

ومن قرية بلينتشين Belinchin كان ديبجو دى بابيا Diego de Balla وجريجوريو سيدونيو Gregorio Sedeno قد طلبا من نائب بيرا Vera ، أندريس دى فريسنيدا Andres de Fresneda ، بأن يدفع لهما أجورهما التى كانت تخصهما مقابل حمل مؤن لجيش السيد خوان دى أوستريا طيلة واحد وثلاثين يومًا . ونفس الشئ تعلل به السائقان كريستوبال إى بدرو دى ميديانو Cristobal y Pedro Mediano وخوان لوبيث Juan Lopez ، من قرية بييا نويبا دى لاخارا Villanueva de la Jara ، وكذلك سباستيان مارتينيث Sebastian Martinez وبدرو دى أوليباريس Pedro de Olivares وهيرنان لوبيث Hernan Lopez والونسو دى لاأوردن Alonson de la Orden من قرية بيرونييراس Pedroneras [٨٢].

وهؤلاء الرجال، الذين صمتت عنهم كتب التاريخ، كانوا بمجهودهم غير المعلن ممن جعلوا انتصارات جاليرا Galera وسيرون Seron وتيخولا Tijola ممكنة، على الرغم من النظر إلى هذه الانتصارات بأنها انتصارات وهمية، حيث استنفدت عمليات حصار هذه القرى الثلاث أعداداً كبيرة من البشر والعتاد والمال والوقت. ففى جاليرا Galera كان من الضرورى

الربط بين المدفعية وزارعات الألغام ، وكذلك استخدام إثنى عشر ألف رجل لإجبار قرية قوامها ثلاثة آلاف موريسكى أدى إلى القيام بأعمال شاقة وخسائر عالية . ويقص المؤرخ مارمول كارباخال تفاصيل العمليات العسكرية ويرفق قائمة بوفيات الكثير من الفرسان المسحيين الذين قُتلوا فى الحصار، بالإضافة إلى الجرحى، وأن كل ذلك انتهى فى مجزرة فظيعة للرجال والنساء والأطفال الموريسكيين، لايمكن أن تقوم به دولة متحضرة ، ولكن هذا يكشف عن مدى عجز وعدم كفاءة السيد خوان دى أوستريا لهزيمة عدد من الرجال الذين لم يكن فى مقدرتهم الوقوف فى وجه الأسلحة الحديثة والمتقدمة آنذاك إلا بالحجارة والسهام والأقواس والبنادق. ولقد ظهرت حالة الإحباط التى عانى منها ابن كارلوس الخامس Carlos V عندما أمر هذا الأخير بعزل كل منازل جاليرا Galera ونثر الملح عليها.

وانتقل جيش السيد خوان دى أوستريا من جاليرا Galera إلى باثا Bazaعبر طرق غير صالحة للمرور حيث كانت مغمورة بمياه الأمطار ومغطاة بالثلوج . وطُرحت فكرة فرض حصار على قرية سيرون Seron ولكن الأكمنة التى نصبها الموريسكيون بوادى المنصورة Valle de Almanzora حالت دون العمليات العسكرية التمهيدية للجيش الملكى وكذلك استحالة القيام بعمليات الاستطلاع السابقة على الهجوم .

وبهدف الوصول إلى دراسة وتحليل مسرح العمليات العسكرية ، كان من الضرورى تقدم ألفين من حملة السلاح المختارين ومائتى جندى من سلاح الفرسان وعلى رأسهم السيد خوان دى أوستريا بنفسه وبرفقة قائد قشتالة Comendador de Castilla السيد لويس دى كيخادا Don Luis de Qujada مؤدب الأمير، والعديد من الفرسان وعلية القوم. وكان الموريسكيون من خلال الهضاب والربى يراقبون تحركات القوات دون الإقدام على المعركة، بينما كانوا يبلغون جيرانهم فى تيخولا Tijola وبورتشينا Purchena والقرى الأخرى بوادى المنصورة Valle de Almanzora بإشارات الدخان . ومثلما كان يحدث تقريبًا فى كل المواجهات فى حرب غرناطة كان الشغل الشاغل للجنود هو الحصول على الغنائم والفوز بها وليس وضع الجيش واعتباره ونفوذه . وبينما كان الجانب الأكبر من القوات يُقدم على عمليات نهب وسلب المنازل فى سيرون Seron وأسر النساء والأطفال تمت مداهمة ومفاجأة هذه القوات من جانب الموريسكيين عاقدين العزم بالتضحية والموت قبل أن يتركوا هذه القوات تخطف وتسلب عائلاتهم . لقد كان المتمردون يهاجمون بكل شجاعة وجسارة لدرجة أن جانبًا كبيراً من جيش السيد خوان دى أوستريا سارع بالفرار مذعوراً مخلفًا وراءه على تراب الموريسكيين أكثر

من سبعمائة رجل ، من بينهم السيد لويس دى كيخادا Don Luis de Qujada. وتم أسر آخرين فى سيرون Seron الذين كان عليهم أن يستسلموا ؛ حيث يؤكد المؤرخ مارمول كارباخال بقوله : «فقدنا تحت شعار الصيت والسمعة أكثر من ألف رجل من حملة السلاح والسيوف » . لقد هرب الجيش الملكى خجلاً ولجأ إلى كانيليس Caniles حيث وجد السيد خوان دى اوستريا نفسه ملزمًا بذلك، خانعًا وراكعًا بسبب الهزيمة التى مُنى بها وحزينًا لمقتل مؤدبه .

كان قوام الجيش الملكى فى حصار جاليرا Galera اثنى عشر ألف رجل ولم يبق منهم أكثر من ثمانية آلاف وخمسمائة . وبهذا العدد المتبقى استأنف السيد خوان دى أوستريا الهجوم على سيرون Seron بعد أن تزود بالمؤن والمدفعية والعتاد الحربى فى كانيليس Caniles. ووقعت المواجهة بالقرب من سيرون Seron ، ولكن عندما رأى الموريسكيون التفوق العددى للمسيحيين ولّوا أدبارهم باللجوء إلى الجبال واضطرمت القرية بالنيران وتهدمت ، الأمر الذى جعل الجيش الملكى يتمركز فى بعض مزارع العنب بجوار النهر، بعد أن دفن جثث وأشلاء ضحاياه من القتلى المسيحيين فى الأيام السابقة.

وفى ١١ مارس ١٥٧٠ استعد السيد خوان دى اوستريا لحصار قرية تيخحولا Tijola، الواقعة على مسافة نصف فرسخ من سيرون Seron حيث بدأ فى نفس اليوم بعمليات التنظيم والاستعداد للحصار. ولم يكن بالقرية أكثر من ألف موريسكى ولكن الاستعدادات التى جهزها السيد خوان دى اوستريا تشير إلى أنه كان يزمع إخضاع مدينة كبيرة . وفى أعقاب احتلاله الجبال القريبة لمنع وصول التعزيزات من بورتشينا Purchena أو من مناطق أخرى مجاورة ، قام رجال المدفعية بنصب بطارياتهم، لدرجة يمكن القول إن هذه العملية كانت تعنى جهداً جباراً حيث استمرت يوم الحادى والعشرين من شهر مارس . وكان عليه أن يرفع ، من خلال الصوارى والأعمدة والأمراس، قطع من البرونز تزن كل واحدة منها ثمانية عشر قنطاراً وإقامة خُدع على عجل ومساند خشبية مكلفة للغاية وكذلك القيام بأعمال بناء المنصات العسكرية . وأخيراً فى يوم ٢٢ مارس الموافق الأربعاء المقدس Miercoles Santo بدأ فى دك القرية ومحاربتها من ست جهات، حيث استمر الهجوم منذ الصباح وحتى المساء، ومع ذلك لم يتمكن من هدم القلعة أو إخضاع المحاصرين للاستسلام . وبحلول الليل، لم يقرر السيد خوان دى اوستريا دخول القرية؛ الأمر الذى جعل الجانب الكبير من الموريسكيين يستفيدون من الظلام الدامس بالفرار إلى الجبال، وبما أن العديد منهم كان يتحدث اللغة

القشتالية لم يلحظ حُراس الجيش الملكى أن الذين كانوا يردون على إشاراتهم وكلمة السر كانوا من المتمردين . وعندما احتل الجيش الملكى تيخولا Tijola لم يستطع أن يأسر أكثر من أربعمائة موريسكى تقريبًا [٨٣]. ويمكن القول إن السيد خوان دى اوستريا، مثلما حدث فى معركة ليبانتو Lepanto، كان عازمًا بشكل صارم للوصول إلى انتصارات دون التوصل إلى نتائج.

وبعد أن أصبحت قرية تيخولا Tijola مهدمة ومدمرة ، أقام السيد خوان دى أوستريا يوم ٢٥ مارس مخيمات الجيش بجوار مدينة بورتشينا Purchena ، عاصمة وادى المنصورة Valle de Almanzora ، والتى تقع فى مكان محكم الدفاع نظراً لطبيعة المنطقة والمهارة العسكرية. ولكن السيد خوان دى أوستريا لم يجد فى هذه المدينة سوى النساء والرجال المرضى وكبار السن الذين لم يتمكنوا من الهروب؛ وقد نفذ الموريسكيون نفس الأسلوب القائم على تفريغ المكان فى كانتوريا Cantoria مما جعل الجيش الملكى بدون فاعلية كاملة تقريبًا ، بالإضافة إلى استنزاف مبالغ طائلة ومؤن وعتاد حربى.

وقام السيد خوان دى اوستريا بتقديم بعض الموريسكيين الذين سقطوا فى حصار بورتشينا Purchena كهبات إلى رجال مدفعية الجيش الملكى. وخلال أيام ٥ و ٦ أبريل تم بيع عدد من هؤلاء الأسرى فى مدينة بيرا Vera ، مثل مارتين دى مولينا Martin de Molina ، من كوبار Cullar، ومتوسط أعمارهم يبلغ أربعين عامًا وأن باثعيهم هم رجال المدفعية : العريف جارثيا باراهونا Garcia Barahona ، من روخاس Rojas وبدرو دل بال Pedro del Val والونسو دى رويدا Alonso de Rueda وبدرو دى لاسا Pedro de Lasa وجميعهم من المقيمين فى برغش Burgos ؛ ورودريجو دى روساليس Rodrigo de Rosales، من مدينة دى بومار Medina de Pomar؛ وبدرو دى لوس سانتوس Pedro de los Santos وأندريس أنطون Andres Anton ، من المقيمين فى مالقه Malaga وغيرهم [٨٤].

وأمام حالة عدم الفاعلية لحملة الجيش الملكى ، وربما للنصيحة التي تقدم بها رجال الثقة من حاشيته ؛ كان على السيد خوان دى أوستريا أن يراجع نفسه حول ضرورة تغيير عملية تنظيم وتخطيط الحرب. وعقب عدم فاعلية حصار بورتشينا Purchena قرر تقسيم الجيش الضخم الذى أصيب بصفيقات الجلد بأن تم توزيعه على حاميات عسكرية تتفاوت أهميتها وعهد بها إلى أحد العسكريين من ذوى الشهرة وظلت هذه الحاميات قابعة فى القلاع بالمنطقة والقيلهيريات فى المواقع التى يتم تحديدها لها. ونتج عن ذلك ما يُسمى «الحاميات

والمعاقل» حيث أسفرت عن فعاليات ليس فقط لإنهاء الحرب وإنما كمراكز إعادة تعمير وإسكان وتنشيط اقتصادى عقب هذه الحرب [٨٥]. وبالنسبة لقلعة كانتوريا Cantoria عين القائد برناردينو دى كيسادا Capitan Bernardino de Quesada مع فرقتين، إحداهما لسلاح الفرسان والثانية لسلاح المشاة؛ وفى ثورخينا Zurgena عَيّن السيد لويس بونشى دى ليون Don Luis Ponce de Leon لنفس الغرض. وفى سورباس Sorbas، القرية التى وصل إليها يوم ٦ أبريل ١٥٧٠ ، ترك القائد ساليدو دى مولينا Capitan Salido de Molina ؛ وفى تاهال Tahal عَيّن خوان جاريدون دى سالشيدو Juan Garrido de Salcedo برفقة فرقتين إحداهما خاصة بسلاح الفرسان والأخرى بسلاح المشاة. أما قلعة تابرناس Tabernas فقد أصبحت على عاتق القائد خوان دى بنياروخا Capitan Juan de Penarroja[٨٦] .

وتشير العديد من وثائق الكتابات بالعدل إلى السيد دييجو دى ليبا Don Diego de Leiva ، رئيس رهبانية سنتياجو Comendador de la Orden de Santiago الذى عينه السيد خوان دى اوستريا Don Juan de Austria «قائداً عامًا ومشرفًا على نهر المنصورة Rio de Almanzora ومدن بيرا Vera وموخاكار Mojacar وحامياتها »[٨٧]، وأن تكون كل الحاميات العسكرية الموجودة بدءاً من بورتشينا Purchena وحتى البحر تابعة له ، على الرغم من أن مدينة موخاكار Mojacar كانت بها فرقة مشاه تحت قيادة خوان دل بايبى Juan del Valle الذى أصبح تحت القيادة المباشرة للسيد دييجو دى ليبا Don Diego de Leiva [٨٨].

وأصبح سكان مدينة بيرا Vera ملزمين ، بأمر وقرار السيد خوان دى اوستريا ، بأن يساعدوا بأرواحهم وماشيتهم ومتاعهم فى عمليات إمداد رجال الحرب المتواجدين فى حاميات سورباس Sorbas وتابرناس Tabernas وغيرها، إذ أنه فى يوم ٢١ يونيه ١٥٧٠ منح صاحب السعادة السيد أجوستين ميندیث باردو Agustin Mendez Pardo، القائد الأعلى والمأمور القضائى لمدينة بيرا Vera، تفويضًا إلى الونسو مونيوث Alonson Munoz بأن يضغط بعصا العدالة على سكان المدينة بشأن تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم [٨٩]. وبعد عدة أيام، فى ٢٧ يونيو ، أرسل القائد الأعلى ونواب مجلس بلدية بيرا Vera، مبعوثًا إلى السيد خوان دى أوستريا للتوسل أمامه بأن يوقف الأمر والقرار الصادرين بحجة أن المدينة كانت فى حالة عوز وفاقة وفى وضع خطير وأن تحصل المدينة على امتيازات ملكية بأن تكون حرة وألا تُفرض عليها خدمات [٩٠].

وكان السيد دييجو دى ليبا Don Diego de Leiva، بصفته القائد العام والمشرف على حاميات المنصورة Almanzora وبيرا Vera وموخاكار Mojacar ، ملمًا بكل الموضوعات القضائية والقانونية المتعلقة بالقوات وبتنظيم الغزوات والإغارات وباستطاعته إتخاذ القرار بشأن الذين تم أسرهم : هل يعتبرهم فى عداد الأسرى والعبيد، أو هل يمكن إطلاق سراحهم ، أو هل يجب محاكمتهم لكى يكونوا عبرة لبقية المتمردين ؟ ولهذه الأهداف عيّن السيد دييجو دى ليبا Don Diego de Leiva بتاريخ ٢١ إبريل ١٥٧٠ خوان دى سولير Juan de Soler النائب فى مجلس بلدية بيرا Vera ، قاضيًا ومستشاراً قانونيًا لرجال الحرب بالحاميات العسكرية بالمنطقة الشمالية الشرقية التابعة لمحافظة المرية، وفى نفس اليوم أصدر حُجة أمام كاتب عدل المدينة الفونسو دى لا كادينا Alonso de la Cadena يعلن فيها الدكتور أويرتا Huerta، القائد الأعلى لمدينة لوركيا Lorca ، بأن الأسباب المتعلقة بالأسرى المسلمين فى الحرب يجب أن يعرفها القائد العام والذى كان من اختصاصه الاستماع وإصدار الأحكام فى القضايا المتعلقة بالإغارات والغزوات (٩١).

ورغبة من الملك فى إنهاء الحرب التى لم تكن ذات جدوى سوى استنزاف المال والحصول على الشهرة فُوض السيد خوان دى أوستريا بأن يصدر منشوراً عامًا بموجبه يتم العفو عن كل الموريسكيين الذين يأتون فى غضون عشرين يومًا لتسليم أسلحتهم. وقد فعل السيد خوان ذلك فى ١٧ أبريل ١٥٧٠ عندما كان مقيمًا فى سانتافى دى موندیخار Santa Fe de Mondejar.

وفى نفس اليوم ونظراً لتغير جانب كبير من مجريات الأحداث وأداء العمل بإخلاص ، أصدر منشوراً رسميًا ثانيًا بموجبه يتم وقف كل أنواع وعمليات الإغارات والمغامرات من جانب المسيحيين حتى يتمكن الموريسكيون من الاستسلام بدون خوف عند أسرهم فى الطرقات ، ولكن حالة الجشع التى كانت سائدة لم تُغطى على نشوة الانتصار وحسب. كما قال المؤرخ مارمول كاربخال، وإنما جعلت السلام مستحيلاً ، حيث كان يرى هؤلاء الطماعون والجشعون أن الحرب التى ليس لها ضابط ولا رابط تكون أكثر فائدة لهم. وعلى سبيل القول فى يوم ١٣ مايو تواصلت المفاوضات الخاصة بتقليص العمليات العسكرية حيث اجتمع فى فوندون Fon-don زعماء الموريسكيين مع المبعوثين من طرف السيد خوان دى اوستريا ، وكان أولئك يشكون بأن هؤلاء لم يوفوا بما وعدوا حيث قالوا صراحة أن أحداث بالور Valor ولارولیس Laroles والقلعة الحرة La Calahorra أدت إلى قيام المسيحيين بأسر النساء اللاتى كن فى طريقهن للاستسلام(٩٢).

وتوجد أربع وثائق صدرت بتاريخ ٣ سبتمبر ١٥٧٠ أمام كاتب عدل المرية دييجو دى جاييجوس Diego de Gallegos توضح لنا حالات أخرى عديدة بشأن عدم الإلتزام بما جاء بالمنشورات الرسمية الصادرة من جانب المسيحيين وفى المحاضر الخاصة بكتابات العدل الموريسكية بشرق المرية تم منح تفويض إلى جاسبار دى اسكالونا Gaspar de Escalona لكى يمثل أمام صاحب السمو ويلتمس إطلاق سراح نساء وأبناء الموريسكيين، ما يقرب من خمسين شخصًا ، كان قد تم أسرهم فى بنتيجالا Bentigala من جانب قائد وجنود حرب بيرا Vera وموخاركار Mojacar وسوبراس Sobras عندما كان هؤلاء الأسرى فى طريقهم «لتسجيلهم بمدينة المرية، وفقا لما جاء فى اتفاقيات السلام المبرمة مع السيد خوان دى أوستريا، وقد تم تسليم هذه الوثائق بواسطة جارثيا أموروكوى Garcia Amorrocoy ورفائيل موراليث Rafael Morales ، من أهل بنى زالون Benizalon، والبارودى مونتيبا الشوفاراد Alvaro de Montilla El Zufarad ولويس دى هارو Luis de Haro وجابريل البورياكسى Gabriel el Boryaxi ، من أهل سورباس Sorbas، ولويس ديريجريالى Luis Dirigriali وديبجو خيرون Diego Xeironi، وجميعهم من أويرتاس دى المرية Huertas de Almeria . وقد تمت عملية أسر هؤلاء النساء والأطفال بطريقة غير مشروعة يوم الأول من يونيه ١٥٧٠، وتوضح الوثيقة مدى سلامة الطوية للسيد خوان دى اوستريا فى مواجهة جشع وطمع هؤلاء الغزاة والمغامرين(٩٣).

كذلك لم يبال المسيحيون القدماء من أهل المرية بالشرط الوارد فى المرسوم عن السيد خوان دى اوستريا فى ١٧ إبريل ١٥٧٠، حيث أن كل موريسكى يلقى بسلاحه تطوعًا ستتم مكافأته بإطلاق سراح إثنين من أقاربه المقربين، الأب أو الأم ، الأبناء، الزوجة أو الأخوة من الذين وقعوا فى الأسر (٩٤)؛ ففى يوم ٨ أكتوبر ١٥٧٠ أمام كاتب عدل المرية دييجو دى جاييجوس Diego de Gallegos حضر مارتين ماكسمودى Martin Maxmudi ، المقيم فى ريوخا Rioja، بصفته زوجًا لخيرونيما ذو ....Geronima Zu، وجارثيا الباكار Garcia Al-bacar، المقيم فى بياتور Viator، بصفته والد اندريس دى الباكار Andres de Albacar ، ألونسو المورايثى Alonso El Morayzi بصفته والد دييجو المورايثى Diego El Moray-zi، وأندريس تشيكييو Andres Chiquillo بصفته والد ايزابيل تشيكييو Isabel Chi-quillo وغيرهم من الموريسكيين ، وكذلك منح تفويض إلى لويس بوتشا Luis Pocha بالمثول أمام السيد خوان دى اوستريا للمطالبة بإطلاق سراح زوجته وأولاده الذين كانوا فى حوزة سادتهم أو فى السجن ، على الرغم من المنشورات الصادرة بهذا الشأن(٩٥). ويجب الأخذ فى

الحسبان أن ذلك الشرط، الذى لم يتم الالتزام به مرات عديدة ، كان له أثر كبير لاستسلام المتمردين طواعية واختياراً؛ ويمكننا أن نتذكر الكلمات الجميلة التى قالها المؤرخ مارمول كاربخال: «كان البعض يخشىّ الموت وكان لديه الأمل فى الصفح عنه ، والبعض الآخر جاء طواعية حبًا لنسائهم وأبنائهم الذين كانوا أسرى ، والتفكير فى إنقاذهم ، كان الجميع لديه الرغبة فى أن يحيا فى هدوء وسلام وسكينة بعد المعاناة والتعب من العمل الكثير والمغامرات»(٩٦).

كما لم يتم العمل بقرار السيد خوان دى أوستريا الذى بموجبه كان يحظر على المليشيات المدنية والحامية القيام بعمليات الإغارات على أراضى الموريسكيين بغية أن يستسلم الموريسكيون طواعية، بناء على حسن نوايا الملك . وقد كشفت بعض الكتابات بالعدل القيام بعدة إغارات غير مشروعة، مثل تلك الإغارة التى قام بها خيل جوتييريث Gil Gutierrez فى ريف المرية حيث أسر فرانسيسكو ألانيس Francisco Alannes، وكلاهما موريسكيان من داليـاس Dalias وكذلك مارتين دى مينـدوثا Martin de Mendoza ، المقيم فى أنداراكس Andarax. كما يمكن الإشارة إلى إغارة أخرى غير قانونية قام بها خوان دى بنيـارويا Juan de Penarroya ، قائد وحاكم قلعة تابرناس Castillo de Tarbayaci، وماريا نابارو Maria Navarro؛ وكذلك إغارة أخرى غير مشروعة قام بها على نهر المرية Rio de Almeria الفارس خوان دى بيريدا Alferez Juan de Pereda حيث استولى على عدة أسرى . ولحسن الحظ كانت العدالة الملكية هذه المرة ذات فعالية وقام القاضى ناباس دى بوبيلا Navas de Puebla بإلزام هؤلاء المغيرين بإطلاق سراح الأسرى الذين كان قد استولى عليهم بمعارضة المنشورات الرسمية التى أصدرها السيد خوان دى أوستريا(٩٧) .

ويمكن القول إن الوضع الخطير فى المدينة استمر على امتداد عام ١٥٧٠، فقد تأثرت التجارة والصناعات اليدوية وكل الأنشطة الاقتصادية بالمرية تأثراً مباشراً من عمليات التمرد، وأن حجم السجلات والوثائق قد واجهت قصوراً شديداً : «لم تكن هناك تسجيلات أو إجراءات توثيق فى كل شهر بسبب تمرد الموريسكيين بمملكة غرناطة نظراً لعدم وجود أنشطة تجارية وإنما كانت الحرب هى السائدة »... «لقد سببت الانتفاضة والحرب فى هذه المملكة خسائر فى الأعمال التجارية. الله هو المنقذ »، وهذه الإشارات كانت تكتب على عناوين المجلدات الكبيرة(٩٨).

وأصبحت المدينة مكتظة بالمغامرين القادمين من مختلف مناطق المملكة، الأمر الذى دعا

القائد الحاكم بياروئيل Gobernador Villaroel إلى اللجوء إلى كل الوسائل التى فى متناول يده لتجنب عمليات التمرد والهروب . وقد أصدر الونسو دى باريخا Alonso de Pareja بتاريخ ٣٠ إبريل ١٥٧٠ تفويضا إلى دييجو دى بارينتوس Diego de Barrientos حتى يتمكن من الحصول من المورد الأكبر لصاحب الجلالة على قيمة ٢٠ رأس من قطيع الخنازير والتى كان قد حظرها عنه بياروئيل Villaroel من أجل تموين وإمداد جنود مايورقه Mallorca الذين كانوا يقيمون فى المرية[٩٩].

وفى يوم ١٩ يونيه أصدر السيد دييجو لوبيث دى أجيليرا Don Diego Lopez de Aguilera إلى خوان دى أوليا Juan de Olea تفويضًا لتحصيل مبلغ ٤٥٠ مكيال (المكيال يعادل ١١,٥ كجم) قيمة أسماك التونة و٢٤٠ مكيال (المكيال يعادل ٥١٦ لتر) نبيذ كان قد صادرها بياروئيل [١٠٠].

وفى يوم ٢١ من نفس الشهر تم نقل مائة مكيال من سمك التونة وأربعين مكيالاً من النبيذ إلى مخازن ومستودعات الجيش لإمداد القوات المسلحة[١٠١].

وكان خوان جارثيا دى تورى Juan Garcia de Torre، المكلف بمستودعات الجيش ، قد صرح فى ١٨ أغسطس ١٥٧٠ بأنه تلقى من المواطن البلنسى هونوفرى فورنارى Honofre Fornari ٩٥ مكيالاً و٤٣ برميلاً بها أسماك التونة من جراء مصادرة بياروئيل لإحدى السفن[١٠٢].

وأمام هذه الإجراءات أصبحت التجارة البحرية هى التجارة الوحيدة التى واجهت إنحساراً حيث ازداد الوضع سوءاً . وفى شهر نوفمبر ١٥٧٠ التحق دييجو ايرناندیث Diego Hernandez ، المقيم فى مالقه Malaga وقبطان السفينة سان بونفتورا San Buenventura ، بسجن المرية بناء على أمر القائد بدرو برادو دى بيامارين Comendador Pedro Prado de Villamarin لكونه رفض إنزال ٦٣ كيس كان قد تم حظرها باسم صاحب الجلالة [١٠٣].

وهناك سبب آخر أثر بشكل قوى فى الأزمة الاقتصادية يتمثل فى التأخير الشديد لوصول خزائن المال الملكية المخصصة لتمويل الحرب. وإلى جانب الصعوبات المالية التى واجهها التاج الملكى أصبحت المرية فى شبه عزلة بسبب الانتفاضة المستمرة فى منطقة البشارات وأن المبالغ التى أمكن التصرف فيها فى القيادة العامة لغرناطة انتقلت إلى مالقة أو موتريل Motril ومن هناك انتقلت إلى المرية عن طريق البحر.

وبتاريخ ٢٢ فبراير ١٥٧٠ أصدر بياروئيل Villaroel بنفسه وبمعاونة محاسبه بدرو دى

سانتيستيبان Pedro de Santisteban ، وفارسه بدرو دى لاس هيراس Pedro de las Heras وعديد من قادة الفصائل وحملة السلاح تفويضًا بشأن حضور ألونسو دى لاس هويراس أمام حضرة صاحب الجلالة أو أمام السيد خوان دى أوستريا أو أمام القائد العام لمملكة غرناطة للمطالبة بسداد المستحقات عن ثلاث سنوات ونصف السنة التى كانت حقا لهم .

وكان لشح المواد الغذائية وعمليات الحظر والتأخير فى سداد المستحقات وتكدس المواطنين فى المدينة والحالات الصحية البائسة التى أدت إلى سلوكيات أخلاقية تعيسة ؛ والكراهية المتزايدة بين المسيحيين القدامى والموريسكيين، والنفور المتفاقم من جراء الفضائح السياسية ؛ الحجة الناجعة للاستيلاء على الممتلكات والانتقام بسبب الأحقاد والضغائن.

وكان أكثر الموريسكيين أهمية بالمدينة هم الذين ظلوا أوفياء للتاج الملكى، وربما يرجع ذلك لأنه لم يكن لديهم آمال كبيرة فى نجاح التمرد، وأنه تم اتهامهم بالمؤامرة فى جبال سان كريستوبال Penas de San Cristobalوارسال خطابات إلى مليك المتمردين بالإشارة عليه أن يأتى حتى نهر المرية Rio de Almeria وأنهم سوف يسلمونه مفاتيح المدينة. وقد تم حبس فرانسيسكو اليكسينى Francisco Alexini وديبجو روبينا Diego Rubina ومارتين لوريولى Martin Lorioli ولويس الجواديكسى Luis El Guadixi ومارتين الدورای Martin El Doray ولورنثو البراخينى Lorenzo Albaragini وخوان عبادينى Juan Abadeni وغيرهم من الموريسكيين بالمدينة وذلك فى السجن العمومى بالمرية. وفى يوم ٣ ربريل ١٥٧٠ حرّر كاتب العدل العمومى الونسو دى ميدرانو Alonson de Medrano، من أصل موريسكى فيما يبدو ، وثيقة تبعث على القشعريرة ؛ حيث أصدر المتهمون تفويضًا إلى حامل السلاح خوان بيريث Juan Perez لكى يمتثل أمام الملك أو أمام السيد خوان دى اوستريا وأن يعرض عليه كيف أن القائد بياروثيل قام بتعذيبهم ، خروجًا عن النظام القضائى والقانونى ، لينتزع منهم اعترافات حيث هشم سواعدهم وأرجلهم حتى تركهم فى عداد الموتى ؛ وفى وثيقة أخرى تتعلق ب «لويس الجواديسكى» Luis El Guadixi يتأكد «من التعذيب المشار إليه أنه لم يتمكن من تحريك يديه ، وأنه كان على وشك الموت ومن ثم لن يكون فى استطاعته الهروب بسبب عملية التعذيب المذكورة»(١٠٥).

وواصل السيد جارثيا بياروثيل بسط نشاطه الذى لايكل طوال عام ١٥٧٠، ليس فقط فى الجانب الشرطى حيث غرس نبتة التعذيب البغيضة ، مثلما رأينا منذ قليل، وإنما أيضًا فى الجانب العسكرى على نحو صارم . ففى الأول من شهر يونيه نظم عملية إغارة على كابو دى

جـاتا Cabo de Gata ، وهى منطقة غير مأهولة بالسكان ومن ثم كانت ذات أهمية جاذبة لكل من كانوا يرغبون بالنزوح والهجرة إلى شمال أفريقيا، حيث أسر الأتراك والبربر والموريسكيين الذين كانوا يبحثون عن إمكانية وجود أى مركب صغير عبر المخارج الهادئة لكى تقلهم إلى ما وراء البحار»[١٠٦].

وفى اليوم الأول من أغسطس ١٥٧٠ قام القائد بياروئيل بإغارة أخرى على منطقة دالياس Dalias التى تمردت مرة ثانية حيث أسر ١٩ موريسكيًا أغلبهم من النساء والأطفال الصغار[١٠٧].

وقبل نهاية العام ، بتاريخ ٢ ديسمبر ، نظم إغارة أخرى على دائرة مارتشينا Marchena حيث حصل على كميات كبيرة من المسكوكات مقابل بيع عدد من الأسرى الذين سقطوا فى يديه فى هوثيخ Huecija وأماكن أخرى بالمنطقة[١٠٨].

ولكن النشاط والتصعيد العسكرى الذى تم علي تراب المرية لم يقتصر فقط علي «المعنيين بشؤون الحرب» الذين كانوا يشكلون الحامية العسكرية التى أرسلها بياروئيل والسيد كريستوبال دى بينابيدس Don Cristobal de Benavides وإنما أيضًا على تلك المجموعات من الجنود التى كانت تنظم إغارات على المواقع الموريسكية المتمردة حيث أن جمع الغنائم المتمثلة فى المجوهرات والملابس والأسرى كانت، بكل تأكيد ، تمثل الطريقة الخالية من العوائق لمواجهة المشكلة الأزلية وهى تأخر سداد المستحقات والرواتب .واعتباراً من شهر سبتمبر ٧ كانت هناك مجموعة من الجنود تابعة لوحدة مشاة نابولى Tercio de Napoles تحت رئاسة قائد المعسكر السيد بدرو دى باديبا Don Pedro de Padilla ، الذى كان قد انتقل من جيش خوان دى اوستريا ، للعمل فى قضاء المرية. وحسب رواية المؤرخ مارمول كارباخال والتى أثبتتها سجلات كتبة العدل أن المشادات والاحتكاكات بين السيد جاريا بياروئيل والسيد بدرو دى باديبا ظهرت عندما طلب هذا الأخير أن تكون من نصيبه مجموعة الأسرى الموريسكيين الوافدين من إنيكس Enix وفيلكس Felix وبيكار Vicar حيث كانت هذه المجموعة فى طريقها للاستسلام إلى مدينة المرية؛ إلا أن بياروئيل منعها «بقوله أن هؤلاء الأسرى كانوا أحراراً وفقًا للمنشور الرسمى الصادر عن صاحب الجلالة، ومن ثم كان يجب أن يتم تقليصهم وأن يحصل على عمولة مقابل السماح لهم، وحول هذا الأمر كانت هناك بعض المطالبات والإجابات ، أسفرت عن قيام حملة السلاح بأفعال غير لائقة والأمر بالقاء القبض عليهم. وقد اشتكى تييو جونثاليث دى اجيلار Tello Gonzalez de Aguilar أمام السيد خوان دى

اوستريا ، بسبب هذه التصرفات ، وأرسل قاضيا لتقرير هذه المصفقة، حيث أطلق سراح حملة السلاح وأرسى عليهم كل أولئك المسلمين ليكونوا أسرى»[١٠٩].

وتعكس كلمات المؤرخ كارباخال بشكل رائع تناقضات الحرب والاختلافات بين ما جاء فى المنشورات الرسمية والواقع الفظ والشرس والنزاعات بين التشريعات والسلطات ودوائر الاختصاص . وفى الوثيقة الصادرة فى المرية بتاريخ ٣ سبتمبر ١٧٠ يرد عرض تفصيلى حول بيع إمرأة عمرها عشرين عامًا وشقيقها الطفل البالغ من العمر عشر سنوات، حيث تقول الوثيقة صراحة أنهما ينتميان إلى الإرسالية التى قام بها السيد بدرو دى باديبا إلى موقع إنيكس Enix، وأنه كان قد تم بيعهما بالعملة المحلية «فى حضور السيد الدكتور لويس هيرناندیث دى كوردوبا Luis Hernandez de Cordoba ، قاضى اللجنة فى الإغارة التى قام بها السيد خوان دى أوستريا » [١١٠]. وفى محضر توثيق آخر تدور الإشارة أيضًا إلى الأسرى الذين تم أسرهم بواسطة باديبا Padilla، قائد مشاة الجيش والذين أصبحوا فى حوزته بموافقة ناباس دى بوبيلا Navas de Puebla ، المستشار القانونى العام للأسطول [١١١].

وفى أكتوبر ١٧٠ كانت هناك إرسالية ردع وعقاب فى سلسلة جبال إنوكس Inox حيث أمدت فرقة مشاة نابولى بعدد من الأسرى الذين رسوا عليهم بقرار قاضى اللجنة الدكتور هيرناندیث دى كوردوبا [١١٢].

ولم يبق جنود مايورقه Mallorca مكتوفى الأيدى فى المدينة؛ ففى يوم فبراير ١٧٠ قام ملتشور بالأجير Melchor Balaguer وجريجوريو نوجيرا Gregorio Noguera، من مايورقة Mallorca، بالبيع معًا إلى جانب الونسو ريكينا Alonso Requena وخوان نونييث Juan Nunez ، المقيمان فى المرية، أسير موريسكى يبلغ من العمر ٣٤ سنة حيث سقط فى الأسر فى سلسلة جبال إنوكس Inox [١١٣]؛ وكذلك فى هذه الإغارة تم بيع اثنين من الموريسكيين كأسرى عمرهما ٢٨ ,٣٥ سنة بواسطة ملتشور بالأجير Melchor Balaguer نفسه والذى كان يعمل شاويشًا فى كتيبة القائد بوتشى Puche ، المقيم فى مايورقه [١١].

كما أن مدينة بيرا Vera أصبحت خلال عام ١٥٧٠ منطقة غليان للنزاعات حيث اكتظت باللاجئين القادمين من المناطق العزلاء المتاخمة وباللاجئين الموريسكيين الوافدين من الأطراف المجاورة، وأنهم يفضلون استمرار ولائهم للملك. وكانت هذه المدينة مكتظة أيضًا ، بصفة خاصة ، بقوات الجيش الملكى وبالمليشيات المدنية من قرى باثا Baza وثيخين Cehegin ولوركا Lorca ... كما كان يجوبها الأشراف الذين لايملكون من المال شيئًا ، وكذلك النبلاء

المفلسون الذين يأملون فى تحسن أوضاعهم، والمغامرون الذين لايحملون إلا الغنائم والمسيحيون المقهورون الذين لايشتركون إلا فى إغارة واحدة جديدة وضرورية بالنسبة لهم. ويلاحظ أن الجميع يسعون ويخططون للقيام بالإغارات ويجادلون فى أسعار الأسرى والعبيد ويرفعون القضايا التى لايكل منها كتبة العدل أو دور القضاء والمحاكم .

ويمكن للقائد العام السيد لويس دى لاكويبا Capitan General Don Luis de la Cueva ، المقيم فى بيرا Vera ، أن يواجه ألف مشكلة بفضل تعاون القائد لورنثو دى ليبا Lorenzo de Leiva. والموضوع العاجل ، كما هى العادة، هو ضرورة الحصول على المال بهدف تصفية المتأخرات الخاصة بسداد النفقات والرواتب لدرجة أن الجنود بدأوا فى إظهار سلاطة اللسان والسرقة والاختلاس والهروب من الجيش والقيام بتنظيم عمليات «دخول» و«اقتحام» القرى الموريسكية التى كانت قاصرة على الملك فى ذلك الوقت .

وتعتبر ميلشيات ثيخين Cehegin هى النشطة بصفة خاصة حيث مكثت فى مملكة غرناطة عقب خروج ماركيز بلش Marques de los Velez ، وخلال شهر أبريل عام ١٥٧٠ فى مدينة بيرا Vera نظم كل من الونسو دى جونجورا Alonso de Gongora ، قائد المشاة لفرق ثيخين Chehegoin والفارس الونسو دى تالانكون Alferez Alonso de Talancon والشاويش جونثالو بينيرو Sargento Gonzalo Penero إغارة على موقع هوير كال Huercal (التابع للمنصورة Almanzora) ، إلى جانب بعض المقيمين بمدينة بيرا، ومنهم رويث دى البارثين Ruiz de Albarracin وبدرو ميلادو Pedro Mellado وغيرهم حيث حصلوا على غنائم كثيرة منها ستة من الموريسكيين واثنتان من الموريسكيات الذين تم بيعهم أسرى وعبيداً أمام كتبة عدل مدينة بيرا خلال شهرى أبريل ومايو. وقد تم أسر الزوجين مارتين فيردى Martin Ferdi، البالغ من العمر ٥٠ سنة ، وكاتالينا بيريث Catalina Perez ، البالغة من العمر ٤٠ سنة، حيث تم بيعهما إلى رودريجو دى سانتا كروث Rodrigo de Santa Cruz ، المقيم فى قرطبة Cordoba؛ وماريا Maria التى تم بيعها بمبلغ ٦٥ مسكوكة إلى هيرنان رودريجيث Hernan Rodriguez، من اشبيليه Sevilla؛ وبدرو Pedro، البالغ من العمر ١٤ سنة ، والونسو Alonso ، البالغ من العمر ١٠ سنوات أو ١٢ سنة ؛ ولويس Luis ، البالغ من العمر ٧ سنوات، والذين تم التحصل عليهم بواسطة أحد المقيمين فى سليس Siles؛ وطفل عمره ست سنوات، تم أسره فى نفس الإغارة على هويركال Huercal، حيث تم بيعه عن طريق القائد الونسو دى جونجورا Alonso de Gongora إلى مواطن من جبل طارق يُدعى

كريستوبال جوردو Cristobal Gordo؛ ورجل مسن يبلغ من العمر ٦٠ سنة يُدعى الونسو ثيتون Alonso Citun كان من جملة حصاد هذه الإغارة ، وكذلك ثيثيليا Cecilia ، البالغة من العمر ٥٠ سنة ، التى تم بيعها إلى نائب مجلس بلدية مدينة بيرا Vera، لوبى دى بياثان Lope de Villazan بمبلغ ٣٥ مسكوكة ؛ وماريا Maria، وهى إمرأة عمرها ٢٠ سنة ، تم بيعها بمبلغ ٤٠ مسكوكة يوم ٢٣ إبريل ١٥٧٠ حيث كان قد تم أسرها فى هويركال Huercal وهى تعانى من المرض بسبب «حادث وحُمى»؛ وخوان أدرياتو Juan Adriano، البالغ من العمر ٢٠ سنة هو أحد المشار إليهم بأسرهم خلال نفس هذه الإغارة . وفى الوثائق الخاصة بالكتابات بالعدل تظهر أسماء عدد من المقيمين فى ثيخين Cehegin الذين قاموا ببيع الموريسكيين الأسرى والعبيد الذين تم أسرهم أيضًا فى هويركال Huercal [١١٥]. ومن بين جنود القائد جونجورا Gongora يمكن ذكر أسماء رودريجو دى ماتا Rodrigo de Mata وهيروناندو دى هيتا Hernando de Hita وخوان دى هيتا Juan de Hita وخوان هيدالجو Juan Hidalgo وكريستوبال جوتيريث Cristobal Gutierrez وأندريس مونيوث Andres Munoz وغيرهم .

وفى شهر أبريل ١٥٧٠ وقعت إغارة أخرى على سلسلة جبال فيلابريس Filabres تم تنظيمها أيضًا من مدينة بيرا Vera ، وقد شارك فى هذه الإغارة عدد متنوع من المغامرين من جهات مختلفة ، مثل كريستوبال دى سوتومايور Cristobal de Sotomayor ، من مدريد وخادم القائد العام السيد دييجو دى ليبا Capitan General Don Diego de Leiva خوان سانشيث Juan Sanchez ودييجو مارتينيث Diego Martinez ، من المقيمين فى باثا Baza؛ وأندريس دل بيار دى موخاكار Andres del Villar de Mojacar ؛ وخوان لوبيث دى أيورا Juan Lopez de Ayora وبلتسار دى أوروثكو Baltasar de Orozco وغيرهم من المقيمين فى مدينة بيرا Vera . ولقد إنقض المغيرون المسيحيون مثل جراد البحر على قرى بنى زالان Benizalan وبنى مينا Binimina الفقيرة[١١٦] ، حيث أسروا ثلاثة وعشرين موريسكيًا فى أغلبهم نساء وأطفال، وقد تم بيعهم أمام كتبة عدل مدينة بيرا Vera بالعملة المحلية .

وكان اصطياد البعض للبعض الآخر مستمراً لكونه أمراً ذا عائد كبير بالنسبة للمسيحيين، ولكن حرب غرناطة كانت تثقل بشكل متزايد على سياسة فيليب الثانى الخارجية ؛ وأن القرار الذى اتخذه الملك فى مارس ١٥٧٠ والذى بموجبه أعلن الرغبة بطرد جميع الموريسكيين ،

المتمردين وغير المتمردين ، من مملكة غرناطة ، أصبح أمراً نهائياً لا رجعة فيه على امتداد صيف ذلك العام . وفى ٢٨ أكتوبر عندما كان فيليب الثانى فى مدريد، وجه خطاباً إلى السيد خوان دى اوستريا بالأمر بأن يُنهى فى أقصر وقت ممكن عملية ترحيل كل المسيحيين الجُدد .

ويمكن التفكير فى أن النزوح الكبير للموريسكيين وإخراجهم خلال شهر نوفمبر ١٥٧٠ كان سبباً فى تهدئة الوضع سلمياً فى مملكة غرناطة ولكن أحداث عام ١٥٧١م تثبت لنا أن الأمر لم يكن بهذه الصورة؛ فالمشكلة الموريسكية لم تنته بتسريح المليشيات المدنية فى ٦ نوفمبر ولا بذهاب السيد خوان دى اوستريا إلى قشتالة Castilla يوم ١٠ من نفس الشهر ولابخروج القائد الأعلى من غرناطة فى طريقه إلى البلاط الملكى يوم ٣٠ من نفس الشهر. وكان هناك آلاف من الموريسكيين ، ليس فقط الرجال الذين يفضلون التمرد على الاستسلام ، وإنما أيضاً النساء والأطفال الذين واصلوا تواجدهم فى المناطق التابعة للملكة النصرية القديمة Nazari. ويروى المؤرخ كارباخال أنهم مكثوا فى الجبال المنخفضة «وأبدوا عزمهم للموت والدفاع عن ترابهم وكان هناك أكثر من خمسة آلاف رجل تحت قيادة الميلتشى El Melchi»؛ بالإضافة إلى أربعمائة رجل وعديد من النساء الذين مكثوا فى البشارات Alpujarras تحت قيادة ابن آبو Abin Aboo[١١٧] ونفس الأمر تم فى سلسلة جبال فيلابريس Filabres وكذلك فى نهر المنصورة Rio de Almanzora ونهر المرية Rio de Almeria.

ومن مدينة بيرا Vera فى فبراير ١٥٧١ كان على السيد ميجيل دى مونكادا Don Miguel de Moncada بصفته قائداً عاماً خلفاً للسيد دييجو ليبا Don Diego de Leiva أن يقوم بتنظيم إغارة نُفذت تحت قيادة الفارس الأكبر خوان دى أجيلار Alferez Mayor Juan de Aguilar الذى جاب منطقة تابرناس Tabernas ، حيث تحصل على عدد من الأسرى: ليونورLeonor، البالغة من العمر ٣٤ سنة؛ والونسو موينى Alonso Muine ، البالغ من العمر ١٢ سنة، وجميعهم من تابرناس Tabernas ؛ وكذلك البارو بايباركى Alvaro Bayrque، البالغ من العمر ٧ سنوات ، وغيرهم تم بيعهم بصفة عبيد وأسرى بأمر القاضى سولير Soler[١١٨]؛ وكان هؤلاء الموريسكيون يجوبون تلك الحقول الموحشة شاردين وتائهين مثلهم مثل الأسيرات اللاتى سقطن فى الأسر فى شهر فبراير بالقرب من طريق هاندا كيكابيث Handaquecaviz[١١٩]، على أيدى جنود الفارس فرانسيسكو تشاكون Francisco Chacon[١٢٠].

وفى ٣ مارس ١٥٧١ قام القائد كريستوبال دى بينابيديس Cristobal de Benavides بعملية إغارة مع رجال المليشيات بالمرية على دائرة مارتشينا Marchena حيث أسر ست موريسكيات كلهن متزوجات وموريسكيان وقد تم بيع الأسرى الثمانى بمبلغ ١١ مسكوكة بواسط كاتب العدل المعين بالمدين لويس جاييجو Luis Gallego ، الذى كان محاسبًا وموزعًا لغنائم الإغارة (١٢١).

ويقتل المُليك إبن آبو Aben Aboo فى ١٣ مارس ١٥٧١ فى أحد الكهوف القريبة من بيرتشول Berchul ، يمكن القول أن الموريسكيين فقدوا الأمل بالكامل وأنه كان عليهم الاستسلام فى الأماكن التى يشار عليهم بها. ولكن الأمر لم يكن هكذا ، إذ بعد مرور شهر على تعليق رأس المحارب الذى لم يكل على باب الراسترو دى غرناطة Rastro de Granada كان من الضرورى تنظيم إغارة إنطلاقًا من المري على منطق فيلابريس Filabres لتقليص تحركات رجال الجبال الذين لايقهرون فى أولولا دى كاسترو Olula de Castro والذين كانوا يفضلون الموت على مغادر أراضيهم . ففى ١٢ إبريل نظم كل من كريستوبال دى أونيا Cristobal de Ona وروردريجو فاخاردو Rodrigo Fajardo والونسو دى كاستييو Alonso de Castillo وغيرهم من المغيرين من المرية إغارة بأمر القائد كريستوبال دى بينابيدس Cristobalde Benavides «التى أسروا فيها أربع وعشرون أسيرة ما بين صغيرة وكبيرة». ولكن من الأربعة والعشرين استطاعت إثنتان الهروب لشجاعتهما وحبًا فى الحرية وحبًا لترابهم وأرضهم التى ولدتا عليها ولم يتم إدراجهن فى عملية البيع العمومية (١٢٢).

ومن ثم توضح لنا وثائق الخارجي بالعدل بجلاء أن نهاية الحرب لم تكن سوى شكل رسمى بهدف الحل الظاهرى لمشكلات السياس الخارجي لفيليب الثانى وأن طرد الموريسكيين لم يكن بالعملية الكاملة فى تنظيمها وتنفيذ. وبعد سنوات عدة كان الموريسكيون، المختبئون فى الآراضى الوعرة ، يسببون قلاقل ومشكلات يجب الأخذ بها فى الحسبان.

الطـرد :

سبَبٌ قرار فيليب الثانى، الذى اتخذه فى مارس ١٥٧٠ ، بطرد جميع الموريسكيين من مملكة غرناطة حالة من الفزع الشديد فى عموم البلاد، وبصفة خاصة لدى الموريسكيين الذين ظلوا أوفياء للملك والمخاطرة بحياتهم والتعاون مع إخوانهم فى الدين على الرغم من كل أنواع الضغوط التى تعرضوا لها .

ففى ١٧ إبريل ١٥٧٠ كان يُعرف فى مدينة بيرا Vera ، أنطون جابرييل Anton Gabriel ولويس جابرييل Luis Gabriel والونسو دى تشينشيا مواخار Alonso de Chinchilla Moajar وخوان دى تشينشيا Juan de Chinchilla والونسو لاميرا ناتشى Alonso de la Miera Nache وغيرهم، تفويضًا إلى خوان دى آبيلا Juan de Avila لكى يحضر بالإنابة عنهم وعن زوجاتهم وأبنائهم أمام السيد خوان دى اوستريا وأن يلتمس لهم إذنًا بالإقامة فى مدين بيرا Vera حيث أنهم كانوا قد غادروا منطق أنتاس Antas عندما تمرد الموريسكيون الآخرون وأنه أثناء حرب مدينة بيرا Vera ظلوا يعملون فى الأسوار وفى كل ما هو ضرورى خدم للملك وأنهم ساعدوا المسيحيين القدامى خلال حصار المدين الذى كان يقوم به إبن أميه Aben Hymeya وأنهم لديهم من التقارير والشهادات التى منحتها لهم السلطات(١٢٣).

وفى ٣١ أكتوبر ١٥٧١ أصدر الموريسكى جارثيا موكسو كوروكس Garcia Moxocorox، المقيم فى بتشينا Pechina تفويضًا إلى الونسو دى بيتور Alonso de Bietor لكى يحضر بالإنابة عنه أمام الملك أو أمام السادة ممثلى مجلسه الأعلى لتقديم معلومات موثقة بأنه كان وفيًا للتاج الملكى خلال فترة الإنتفاضة وأن إدارات العدل بمدينة المرية يمكن أن تشهد بذلك(١٢٤).

ولانعرف عما إذا كان هؤلاء الموريسكيون قد تم استثناؤهم من القرارات الصادر بالطرد وإن كان يُخشى أن يكونوا قد واجهوا نفس المصير مثل إخوانهم المتمردين، حيث أن الإستثناءات كانت نادر للغاية.

ومن المعروف أن العائلات الموريسكية الثلاثمائة التى كانت تسكن فى المرية لم تتمرد على الإطلاق، ولم يكن ذلك بسبب عدم وجود الفرصة المناسبة أمامهم على الرغم من أن المسيحيين القدامى كانوا أكثر عدداً ، إلا أن المقيمين الذين كانوا قادرين على حمل السلاح تغيبوا فى الحملات الهجومية على فيلكس Felix وأوهانيس Hoanes إنوكس Inox ، الخ ... ضد المتمردين ، حيث أصبحت المدينة بدون أى حامية عسكرية فعلية. وهذا يفترض أن المسيحيين لم يرتابوا كثيراً فيهم، وإنما العكس أن ابن حميه Aben Humeya لم يكن يثق كثيراً فى الموريسكيين فى المرية حيث كان يعتبرهم أوفياء للملك لدرجة أنه فى عدة مناسبات وصل إلى حد قتل بعضهم لاقتناعه بأنهم كانوا جواسيس يعملون لصالح جارثيا دى بياروئيل Gercia de Villaroel(١٢٥).

ومع ذلك ، وعلى الرغم من إثباتات إخلاصهم فإن غالبية الموريسكيين تم طردهم فى نوفمبر ١٥٧٠ . وفى هذه المنطقة كان هناك مركزان رئيسيان لتجمع المسيحيين الجُدد لترحيلهم وطردهم: مدينة بيرا Vera حيث تم تجميع كل الموريسكيين بحوض نهر المنصورة Rio de Al-manzora وسلسلة جبال فيلابريس Sierra de Filabres ، وفى المرية حيث تم تجميع القادمين من المنطقة الشرقية بالبشارات Alpujarras ومن الدوائر التابعة للعاصمة . وقد تم تشتيت الموريسكيين من أهل مدينة بيرا Vera فى أراضى قشتالة Castilla فى سفن تابعة لسانشو دى ليبا Sancho d Leiva[١٢٦].

وفى المنشورات الصادرة عن السيد خوان دى أوستريا كانت توجه الدعوة إلى الموريسكيين من أهل المرية بأن يذهبوا طواعية واختياراً إلى السفن . وأن الذين لاينفذون هذه الأوامر فى المهلة المحددة سيتم اعتبارهم أسرى لكونهم خرقوا القرارات الصادرة ، ومنهم كاتالينا مكسيا أليخا Catalina Mexi Aleja ، من أهل المرية ، تم بيعها بصفته أسيرة بمبلغ ٢٠ مسكوكة إلى عضو لجنة المحلفين برناردو دى بوستوس Bernardo de Bustos يوم يوم ١١ نوفمبر ١٥٧٠ [١٢٧].

وأمام هذا الإجراء العاجل توجه الجانب الأكبر من الموريسكيين دون مقاومة إلى الأماكن المحددة والمخصصة لترحيلهم .

وفى المرية تم استثناء ١٠ أو ١٢ شخصًا من عملية الطرد ، بالإضافة إلى الأطفال أقل من عشر سنوات والكبار الذين يزيد عمرهم عن ستين عامًا [١٢٨]. ومن بين الأشخاص الذين حالفهم الحظ يمكن أن نذكر فرانسيسكو بانيجاس Francisco Vanegas، من عائلة موريسكية مشهورة ، كان نائبًا فى مجلس بلدية المرية وكان يتمتع بمكانة رفيعة بين المسيحيين الجُدد والقدامى [١٢٩]. ويؤكد المؤرخ ديجو دى مينوثا Diego de Mendoza أن الموريسكيين المتمردين بنهر المرية أرسلوا له خطابًا سريًا يوضحون له إثباتات ودلائل إخلاصهم للتاج الملكى، ولكنه قدم الخطاب مغلقًا إلى نواب مجلس البلدية حيث اجتمعوا فى مجمع الكاتدرائية ، وتمت قراءة الخطاب حيث وجدوا فيه أن المتمردين وعدوه بتعينه ملكًا إذا هو إنضم إلى التمرد ؛ إلا أنه ظل وفيًا ، كما هو دائما ، لخدمة فيليب الثانى وتم استثناؤه من الطرد [١٣٠]. كما يؤكد المؤرخ مارمول كارباخال أنه اشترك فى معركة بيناهدوكس Benha-dux التى وقعت بين الموريسكيين المتمردين وأهل المرية؛ وبين أشخاص من المرية الذين أبلوا بلاءً حسنا أمام الكاهن القانونى السيد ديجو مارين Don Diego Marin والسيد

فرانسيسكو دى بلفيس Don Francisco de Belvis [١٣١]، اللذان ينتميان إلى العائلات الموريسكية وإن كانا قد أصبحا «قشتاليين» تمامًا لدرجة أنه لم يجرؤ أو يحاول أحد طردهما لا فى عام ١٥٧٠ ولا فى أى عام تال بعد ذلك.

وانتهز مدرس الكاتدرائية السيد دييجو مارين وضعه فى الكاتدرائية والممتلكات التى فى حوزتها واستطاع إبعاد شبح الطر لإثنين من إخوانه هما خوان خيل Juan Xil ولويس مارين Luis Marin وأخت له تُدعى كاتالينا Catalina ، أرملة دييجو لوبيث هاثيرا Diego Lopez Hazera، الذى كان حاجبا لموندیخار Mondejar ، حيث تم استثناؤها من عملية الطرد [١٣٢]، كمكافأة من التاج الملكى لبعض العائلات المسلمة التى تعاونت وساعدت فى عملية استسلام مملكة غرناطة خلال فترة الملوك الكاثوليك Los Reyes Catolicos وفى عملية الارتداد إلى الديانة الكاثوليكية للمقيمين فى دائرتهم وقضائهم.

ولم تحظى عائلة بلفيس Belvis بنفس الاستثناء ، لأنه على الرغم من استثناء بعض أفراد العائلة مثل النائب بمجلس البلدية السيد فرانسيسكو Don Francisco، كان على البعض الآخر المعاناة من جراء الترحيل أو مشاهدة أملاكهم وهى تُصادر من جانب الملك، مثل درو دى بلفيس Pedro de Belvis، حيث طلبت ابنته بريانداً بينيجاس Brianda Benegas، فى سنوات تالية، أن تعاد إليها ممتلكاتها ، وقد تمت إعادتها إليها لكونها من العائلة الموريسكية الرفيعة المستوى ولكونها متزوجة من المسيحى القديم سانشو دى بياروئيل Sancho de Vil-laroel وبالفعل تسلمتها [١٣٣].

وفى إعادة تقسيم المرية عام ١٥٧٢ يرد ذكر أسماء عدد آخر من الموريسكيين الذين ظلوا فى المدينة واحتفظوا بممتلكاتهم مثل كاتالينا ميكسيا Catalina Mexia وبرياندا مالتشى Brianda Malche وبياتريث هوبايباثا Beatriz Hobaybaca ولويسا ثاجيرا Luisa Za-guera وماريا ناپارو Maria Navarro، التى كانت تمتلك بعض المنازل بجوار الكاتدرائية ، وماريا حكيمه Maria Haquema، أرملة، ومريسكى يُدعى التركى El Turqui. وسبب استثناء هؤلاء ما زال غير معروف وربما يكون الاستثناء لكونهم أشخاصًا تجاوزوا سن الستين عامًا أو ربما كانوا من المتعاونين أو ربما كانوا يتمتعون بالتأييد من أشخاص لهم نفوذ فى البلاط الملكى أو فى غرناطة.

وفى حقيقة الأمر هناك حالات تثير الفضول مثل حالة ميجيل دى مولينا Miguel de Molina وثامرديو الفرايلى Zamudio El Fraile حيث كان يُقال عنهما أنهما كانا

موريسكيين وكان يجب طردهما ، ولكنهما أكدا أنهما من المسيحيين القدامى وقد رفعا قضايا لدى المحكمة العليا بغرناطة لإثبات ذلك[١٣٤]. ويدور التساؤل هل كانا من الموريسكيين المنخلعين تماما أو من المسيحيين القدامى الذين كانوا قد عاشوا فى بيئة موريسكية؟

وكانت المعايير التى اتبعها التاج الملكى بعدم الاستثناء من المنشورات والمراسيم الصادر بشأن الطرد لبعض الأفراد أو العائلات متعددة ومتفاوتة.

فى المقام الأول، كما هو من الواضح، أنهم لم يشتركوا فى التمرد بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ويمكن إثبات ذلك دائما عندما يرغبون. وفى المقام الثانى إعطاء براهين وأدلة ثابتة الحجية بأنهم من المسيحيين المتأصلين ، وأنهم يظهرون ذلك بالتردد على الكنائس والمراكز الدينية والمشاركة فى الاحتفالات والجمعيات الدينية ودفن أقاربهم فى الأماكن المسيحية المقدسة التى يُدفن فيها المسيحيون القدامى ، الخ ..كما أنهم يتمسكون بالعادات الأصلية للقشتاليين، فى الملبس والمأكل والمشرب واللغة والاقتران بالمسيحيين القدامى. بالإضافة إلى التعاون بنشاط وحمية مع المسيحيين فى قمع الانتفاضة بتقديم أنفسهم ومواردهم الاقتصادية، وقد كان هذا واحداً من الإدعاءات والمزاعم الشائعة بين المستثنين من جانب الموريسكيين حتى لايتم ترحيلهم وإبعادهم .

وحسبما يمكن الاستنتاج من رسالة موجهة إلى أسقف غرناطة السيد بدرو دى كاستروای كينونيس Don Pedro de Castro y Quinones [١٣٥]، يبدو أن الموريسكيين الذين أصلهم من النبلاء، والذين كانوا يعتادون أن يكونوا من أشراف النسب، قد تم استثناؤهم من الطرد ، ولكننا نعرف حالة لم يتم تطبيق هذه القاعدة عليها . ففى ١٩ فبراير ١٥٧١ ، أصدر موريسكيان من أصل معروف ورفيع المستوى، دييجو دى جيفارا Diego de Guevara وزوجته إيزابيل دى ميندوثا Isabel de Mendoza ، من سكان كويباس دى المنصورة Gue-vas de Almanzora ، إلى السيد بدرو فاخاردو Don Pedro Fajardo، ابن السيد الونسو فاخاردو Alonso Fajardo، لكى يحضرا أمام إدارات العدل ويقدما كل المعلومات لضرورية لإثبات أنهما «لم يكونا ولن يكونا من أولئك الذين تمردوا ضد التاج الملكى وبما أنهما كانا مخلصين وكاثوليكيين ، ونظراً للمعاملات السيئة التى وجدوها من المسلمين المتمردين عندما توجه الطاغية المسلم إلى مدينة كويباس Cuevas، وأنهما يعملان كل ما هو ضرورى لكى يعودا إلى طبيعتهما وتحصيل ممتلكاتهما والتمتع بحرياتهما مثلما فعل صاحب الجلالة والسادة الملوك السالفين بأفضالهم مع سابقيهم»[١٣٦].

وهذا يثبت أن مشروع فيليب الثانى جعل كل مملكة غرناطة خالية من الموريسكيين تماماً ، لدرجة أنه فى الشهور الأولى من عام ١٥٧٠ صدرت نداءات تحظر التجارة فى الأسرى والعبيد الموريسكيين ليكونوا بداخل مملكة غرناطة . وفى وثائق كتابات العدل يمكن التحقق كيف أنه اعتباراً من مايو ١٥٧٠ وجب على القائمين على شراء الأسرى والعبيد الموريسكيين أن يعلنوا فى محاضر الشراء والاقتناء أنهم يقبلون الشرط المفروض فى النداءات بألا يحتفظوا بهم فى مملكة غرناطة أو مرسية، وإنما فى مناطق واقعة خارج هذه الأراضى [١٣٧].

ولم يمنع تملك الموريسكيين لمصادر الثروة التحرر من عملية الطرد ؛ ففي ١٩ فبراير ١٥٧١، أصدر موريسكي مقيم بجوار البسيط albacete تفويضًا إلى السيد بدرو فاخاردو Don Pedro Fajardo لكى يدير بالإنابة عنه كل ممتلكاته وعقاراته وديارة ومزارعه فى كويباس Cuevas وبرتيبياPortilla وضواحيها[١٣٨] . وبتاريخ ١٥ يونيه ١٥٧١ أصدرت مسيحية من المسيحيات الجُدد تُدعى مارى آلاكى Mari Alaque ، التى كان قد تم طردها من بلس بلانكو Velez Blanco وكانت تقيم فى هويتى Huete ، تفويضًا لخادمها خوان مونيوث مورينو Juan Munoz Moreno لكى يدير كل ممتلكاتها وعقاراتها ومنقولاتها التى تركتها فى بلس بلانكو Velez Blanco «عندما صدر أمر من جلالته باخراجها مع بقية المسيحيين الجُدد »[١٣٩].

وتوجد كتابة أخرى بالعدل صادرة بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٥٧١ تكشف لنا أسماء أولئك الذين استفادو من ممتلكات الموريسكيين المطرودين : خوان مونيوث مورينو Juan Munoz Moreno بالإنابة عن ماريا آلاكى Maria Alaque ، أرملة هيرناندو تاراثونى Hernando Tarazoni ، المقيمة فى هويتى Huete، باع إلى السيد خوان فاخاردو Don Juan Fajardo والسيد دييجو فاخاردو Don Diego Fajardo، الأخ والابن على التوالى لصاحب السعادة ماركيز بلش Marques de los Velez مائة وخمسون رأس من قطيع الماعز وكلبة حراسة بمبلغ ١٣٩٤ ريال (اسم لبعض المسكوكات القديمة منها ما يساوى ربع بيزيته ومنها غير ذلك)[١٤٠].

وليس من السهل معرفة عدد الموريسكيين المطرودين من هذه المنطقة [١٤١]؛ ولكن برؤية شمولية يمكن القول إن أعداداً كبيرة طُردت وهربت من هول العواقب الوخيمة التى هزت اقتصاد العاصمة والإقليم. وكنتيجة لمرسوم فيليب الثانى عرفت المنطقة أكبر مجزرة فى تاريخها، لأنه إذا كان الطاعون الأسود لعام ١٣٤٩ قد أخذ بثلثى السكان ، فإن طرد

الموريسكيين أدى إلى تفريغ أكثر من ٨٠٪ من سكان المنطقة ككل . لقد تحولت قرى بأكملها إلى تلال من الحُطام وأثر التصحر على مناطق كانت قبل ذلك مثمرة ومنتجة. وأصبح الشكل العام للإقليم منذ خروج الموريسكيين حتى وصول المعمرين الجُدد ، الذى اتخذ إيقاعًا بطيئًا وصعبًا، فى حالة مقفرة تمامًا .

وقد حلت اللعنة على هذه الآراضى التى أصبحت تحت رحمة قطاع الطرق اللاجئين فى الجبال، والقراصنة الذين كانوا يدخلون بحرية نظراً لأن الساحل أصبح مقفراً وخاليًا من السكان، والمتشردون والمغامرون الذين كانوا يتجولون ، بعد انتهاء الحرب، من قرية إلى أخرى بحثًا عن الغنائم والكنوز المخبأة أو أولئك الذين كان يروق لهم التجول بدون الخضوع لقانون.

ولقد عانت الزراعة وتربية الماشية بصورة مباشرة من هذه الظروف الصعبة نظراً لضرورة بذل المجهول المتواصل لرعايتها من جانب المهتمين بها . وكان للمصادر الملكية فى ٢٨ فبراير ١٥٧١ لأراضى الموريسكيين[١٤٢] أن أصبحت هذه الممتلكات الموريسكية بدون رعاية ومتابعة وأن من قاموا عليها بعد ذلك لم يكن لديهم الوازع والضمير للاهتمام بهذه الممتلكات وأنهم كانوا يفكرون فى أشياء أخرى غير الزراعة وتربية الماشية والرعى.

وعن الصناعات اليدوية يمكن القول إنها دخلت مرحلة انحطاط شديدة حيث رحل مع الموريسكيين عمال المخارط والنسيج والصباغة والقطيفة والأربطة... وكذلك انحسرت كل الأشياء التقليدية الخاصة بالحضارة الإسلامية. ولقد كسبت قشتالة فى ديمغرافيتها وفى صناعاتها[١٤٣] بالنزوح الإجبارى من الغرناطيين . ومن الناحية المنطقية ، كان لهذا صدى فى مداخيل بيت مال التاج الملكى؛ كما يؤكد كوليرو Colmeiro، أنه بمناسبة طرد الموريسكيين تم خصم ١٧٣١٠٤٤١ مرابطى (اسم لمسكوكة اسبانية قديمة) من مملكة غرناطة ، على أساس ٥٦٦مرابطى لكل ساكن، مما يمكن ترجمته ديمغرافيًا باستبعاد ونفى ١٣٧٥٢٧ شخص[١٤٤].

كما تأثرت العائدات الكنسية من جراء التمرد بشكل مباشر وفورى؛ ليس فقط بسبب الجزية التى لم تتمكن الكنيسة من تحصيلها دائمًا بسبب توقف الضرائب الشخصية التى كان يدفعها الموريسكيون عن الأراضى التى كانوا يستأجرونها من الكنيسة والتابعة للكتادرائية والأساقفة والمؤسسات الدينية ... الخ والتى أصبحت شاغرة.

وفى أبريل ١٥٦٩ أصبح وضع الأكليرس أكثر حرجًا من وضع أسقف المرية ، السيد أنطونيو كورويونيرو Antonio Corrionero، إلى جانب مجمع الكاتدائية ، حيث أصدروا تفويضًا إلى الكاهن القانونى سويرو ميندیث باردو Suero Mendez Pardo بشأن الطلب

لدى الملك أن يعفيهم من سداد الإعانة الكنسية ، نظراً لأن تمرد الموريسكيين أدى إلى عدم الوفاء بالإيجارات والجزية حيث «لايوجد من يزرع أو يراعى الأراضى المذكورة لأنها أصبحت مقفرة ، ومن ثم ليس لديهم ما يقتاتون به فى الكنيسة» [١٤٥]. وكان نائب المطران وأعضاء مجمع الكنائس، الذين كانوا يحصلون على عطايا طيبة نظراً لإنتاجية الموريسكيين يقولون إنه يجب تحمل هذا الوضع المأساوى . وبتاريخ ٦ يونيه ١٥٧٠ لم يحصل المسيحيون الجُدد على ثلاثة أتساع الدخل، كما لم يحصل المسيحيون القدامى على سبعة أتساع الدخل من وكلاء كنائس بيرا Vera وموخاكار Mojacar عن عام ١٥٦٩ [١٤٦]. وبتاريخ ٦ يونيه ١٥٧٠ أصدر مجمع الكاتدرائية تفويضًا لنائب المطران تامايو Tamayo لكى يحضر أمام صاحب الجلالة ويلتمس إليه أن يدفع أمناء المال عن دخل سوق الحرير (القيصرية Alcaiceria- جمرك للحرير فى غرناطة قديمًا) بمملكة غرناطة مبالغ المعاش الدائم الذى كانت قد منحته الملكة خوانا Reina Dona Juana امتيازاً لهم [١٤٧]. ولقد عانى النواب الكنسيون وباءت جهودهم بالفشل حيث رفعوا القضايا ضد المستأجرين الذين لم يلتزموا ولم يوفوا بعقودهم ؛ ففى ٢١ يونيه ١٥٧١ أعلن مارتين الونسو جوارنيو Martin Alonson Guareno ، الذى كان على عاتقه تعداد الضريبة الشخصية لأحباس (أوقاف) كابريرا وتيريسا Habices de Cabrera Y Teresa ، أنه كان من المستحيل الوفاء بالتزاماته «حيث أن تمرد الموريسكيين لم يمكنه من إصلاح الأرض لزراعة الحبوب ولم يمكنه من جنى المزارع هذا العام ولا العام الماضى» [١٤٨]. وفى ٢٦ يونيه ١٥٧٠ لم يتم تحصيل الجزية عن الزيت من منطقة نهر المرية لعام ١٥٦٩ [١٤٩]، وبتاريخ ٢٨ يونيه ١٥٧٠ لم يتم أيضا الوفاء بالجزية عن عام ١٥٦٩ من جانب وكلاء كنائس بورتشينا Purchena وسيرون Seron وتيخولا Tijola [١٥٠]. وأصبح الوضع الاقتصادى لمجلس ومجمع الكنائس عسيراً عقب طرد الموريسكيين حيث باءت كل المحاولات بالفشل الذريع وأن الأمل فى المستقبل القريب لايتسم إلا بالسواد نظراً لأن الذين كانوا يعمرون المزارع الكنسية كان أغلبهم من هؤلاء المسيحيين الجُدد. ويمكن القول ، بما أن الكنيسة لم تكن ترغب ولم يكن لديها الإمكانية فى أن تخلق مناخًا للتعايش بين القطاعات المسيحية القديمة والمسيحية الجديدة (المسيحية والموريسكي) من خلال التفاهم والتسامح ، فهى الآن تحصد الثمار المريرة. لقد رفض أمناء المال لسوق الحرير الوفاء بالمعاش الدائم للكنيسة ، الذى كانت قد منحته الملكة خوانا، مؤكدين على أن الملك كان قد أعفاهم من السداد «نظراً لأن هذا كان مشروطًا فى الوقت الذى كان الدخل من الحرير فى أيدى أمناء المال المذكورين» [١٥١].

ولكى يُعوض فيليب الثانى أعضاء مجلس ومجمع الكنائس بالمرية عن الخسائر الكبيرة

منحهم ألف مسكوكة «مراعاة منه بسبب التمرد والانتفاضة التى وقعت بهذه المملكة وأنه ليس لدينا مداخيل ولا محاصيل يمكننا بموجبها أن نواجه شظف العيش والحياة» ؛ ففى تاريخ ٢٥ نوفمبر ١٥٧٠ تم منح تفويض رلى دييجو مارين Diego Marin لمدرس بالكاتدرائية ، لكى يحضر أمام السيد بدرو دى ديثا Pedro de Deza، رئيس المحكمة الملكية العليا بغرناطة لكى يحصل على الألف مسكوكة[١٥٢].

وتفاقم الوضع الاقتصادى بدرجة شديدة لرجال الدين المسيحى فى الدرجات الدنيا ، إذ أنه ما أن تفجر تمرد الموريسكيين لجأ العديد من القساوسة والشمامسة إلى مدينة المرية هربًا من المطاردات والمذابح التى كانوا هدفًا لها فى أماكن التمرد. ولقد وصل الأمر ببعض القساوسة ، الذين لم يجدوا شيئًا ، أن يشاركوا فى الإغارات التى كانت تنظم فى المدينة جنبًا إلى جنب الجنود المكلفين ؛ وكان المغامرون هم أكثر الجمع المشوش غير المتجانس بمجتمع المرية الذى كان يضم النبلاء وأشراف النسب الذين لايملكون من المال شيئًا وحسبهم أسرى هاربين والتجار والانتهازيين والجواسيس المزدوجين . وفى وثيقة لكتابة بالعدل صادرة بتاريخ ٢٦ أكتوبر ١٥٦٩ ترد إشارة إلى أن المستفيدين من دمن وقرى هويركال Huercal وريوخا Rioja وسانتافى Santa De وبتشينا Pechina وبنى زالون Benizalon وتابرناس Tabernas وسنيكس Snix وسينيس Senes ولوكائينينا Lucainena أصدروا تفويضًا إلى بدرو نونييث Pedro Nunez ، المستفيد من أوراكال Urracal ، لكى يحضر أمام السيد خوان دى اوستريا أو أمام القائد العام لمملكة غرناطة وأن يطلب مساعدة لهم ولعائلاتهم «نظرا للحصار المفروض على هذه المدينة، فإننا نعانى من الإجهاد والتعب والحاجة والفاقة والجوع، وبما أنها أصبحت مجهدة ومتعبة لايمكننا أن ننفق على أنفسنا ونقيم أودنا»[١٥٣].

ومن ثم ، فقد أصبح من غير اليسير للتاج الملكى أن يتمكن من تلبية احتياجات أصحاب الإلتماسات ، حيث أصبح العديد من هؤلاء الخوارنة بدون رفقاء، والقساوسة المعزولين ورعاة الكنيسة بلا رعية ، وكان عليهم جميعًا أن يواصلوا نفس الطرق مثل قطعانهم: الهجرة. وإن كان هناك البعض، المؤهلون تأهيلاً جيداً ، الذين يعرفون اللغة العربية استطاعوا أن يُحسنوا من مستوى حياتهم . لقد عانت هذه المنطقة من الانحطاط الثقافى والحضارى بشكل متواز مع التدهور الديغرافى والاقتصادى. إن العبارة الشهيرة التى قالها عالم مسلم فى خلافة قرطبة : «شجرة الحرب الأهلية عقيمة» هى الحقيقة الدائمة بعينها .

الهوامش

١- بالإضافة إلى ما يراه المؤرخون الكلاسيكيون فى كتابات خوليو كارو باروخا : «الموريسكيون بمملكة غرناطة» مدريد ١٩٧٦ .

Julio Caro Baroja: " Los moriscos del Reino de Grananda", Madrid , Edicions Isimo, (1976).

٢- نيكولاس كابريانا : «وثائق كتابات العدل خاصة بالموريسكيين:يرد هذا المقال مطبوعًا على الآلة الكاتبة فى السجل التاريخى لإقليم المرية. وثيقة رقم ٥٠٤ Archivo Historico Provincial Al-meria Nicolas Cabrillana : " Documentos notariales a los moriscos".

٣- ل.مارمول كارياخال «تاريخ التمرد وعقاب الموريسكيين بمملكة غرناطة».

Marmol Carvajal , L: " Historia de la rebelion y castigo de los moriscos del Reino d ganada ' b. a., ., xx, madd , 1946 , .168 .

أنظر أيضًا :كاستو ماريا ريبيرو : «وسام الكاردينال اسبينوزا».

Casto Maria del Rivero : " La medalla del Cardenal Espinosa " Anuarin de Cuerp Facultativ de Archivers, Bibliotecarios y Arqueologos, Madrid , 1934 , vol . I .

٤- ك . جاراد : «محاكم التفتيش والموريسكيون الغرناطيون (١٥٢٦-١٥٨٠) .

Garrad , K.: " La Inquisicion y los morisco granadinos (1526-1580) " . Miscelanea de Estudios Arabes y Hebraicos , 9 (1960) .

٥- دييجو دى ميندوثا : «حرب غرناطة»

Mendoza , Diego de : " Guerra de Granada " B.A.E., T. XXI, Madrid, 1946, p. 71 .

٦- المصدر المذكور، ص١٨٠ .

٧- جاراد ، المصدر المذكور، ص٥٦ .

٨- مارمول، المصدر المذكور ، ص٢٨١ .

٩- مارمول، المصدر المذكور، ص١٧٥ .

١٠- إيفز لاكوست: مولد العالم الثالث: ابن خلدون».

Lacoste, Yves :" El nacimiento del Tercer mundo : Ibn Jaldun" , Ed . Peninsula , Madrid , 1971, p. 146 y ss.

أنظر أيضًا : كارو باروخا ، المصدر السابق، ص٧٤ وما يليها .

١١- مارمول، المصدر المذكور، ص٢٠٤ وما يليها.

١٢- السجل التاريخى لإقليم المرية (سجل حصص الغزاة من الأراضى المفتوحة فى المرية عام ١٥٧٢ .
Archivo Historico Provincial de Almeria, 1572 .

١٣- الوثيقة رقم ٤٣٦ .

١٤- الوثيقة رقم ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

١٥- الوثيقة رقم ٤٤٥ .

١٦- الوثيقة رقم ٢٦ .

١٧- الوثيقة رقم ٩٦ .

١٨- مارمول، المصدر المذكور، ص٢٣٦ .

١٩- الوثيقة رقم ١٨٥ .

٢٠- الوثيقة رقم ١٠٦ .

٢١- الوثيقة رقم ٣٠٨ .

٢٢- الوثيقة رقم ٣١٠ .

٢٣- مارمول ، المصدر المذكور، ص٢٤١ .

٢٤- الوثيقة رقم ٤٧٦ .

٢٥- الوثيقة رقم ٦٢٩ .

٢٦- الوثيقة رقم ٤٢٣، ٤٣٩ ، ٤٦٨ .

٢٧- مارمول، المصدر المذكور، ص٢٤٢ .

٢٨- الوثيقة رقم ١٤٤-١٤٥ .

٢٩- الوثيقة رقم ٤٢-٩٨ .

٣٠- الوثيقة رقم ١٠١ .

٣١- مارمول ، المصدر المذكور، ص٢٤٤ .

٣٢- مارمول ، المصدر المذكور، ص٢٤٤ .

٣٣- الوثيقة رقم ٨٨ ، ٢١٢ .

٣٤- الوثيقة رقم ٥٩ .

٣٥- الوثيقة رقم ١٣ .

٣٦- الوثيقة رقم ٥٤ .

٣٧- الوثيقة رقم ٨٠ .

٣٨- الوثيقة رقم ٨١ .

٣٩- الوثيقة رقم ٢٧٤ .

٤٠- مارمول، المصدر السابق ، ص٢٤٤ .

٤١- الوثيقة رقم ٢١٠ .

٤٢- الوثيقة رقم ٢٤٧ .

٤٣- الوثيقة رقم ٢٢٥ .

٤٤- الوثيقة رقم ١-٢ .

٤٥- الوثيقة رقم ١٨٩ .

٤٦- يقول «مارمول» : أنهم كانوا ٢٦٠٠، في حين أن «ميندوثا» يحدده تقريبًا بـ ٢٠٠٠، ص٨٩ .

٤٧- الوثيقة رقم ١٦٨ .

٤٨- الوثيقة رقم ٣٦ .

٤٩- الوثيقة رقم ٢٢٦ .

٥٠- الوثيقة رقم ٢٣٣ .

٥١- الوثيقة رقك ١٤١ .

٥٢- الوثيقة رقم ١٣٦ .

٥٣- بيريث دي هيتا : «حروب غرناطة الأهلية».

Perez de Hita: " "Guerras Civiles de Granada ", B.A.E., III, p. 106 .

٥٤- مارمول ، المصدر المذكور، ص٢٣٦ .

٥٥- السجل التاريخي لإقليم المرية، ص٢٥ ٢٠ ، مجموعة أوراق ٣٨٨ .

٥٦- مارمول ، المصدر المذكور ص٢٤٨ .

٥٧- بيريث دي هيتا، المصدر المذكور ، الجزء الثاني، ص٣٩ .

٥٨- دييجو دي ميندوثا ، حرب غرناطة ، الجزء ٢١ ، مدريد ١٩٤٦، ص٩٧ .

Diego de Mendoza : " Guerra de Granada", B.A.E.

٥٩- السجل التاريخى لإقليم المرية، ص٣٦١٦ ، مجموعة أوراق ٥٢٠ .

٦٠- السجل التاريخى لإقليم المرية، ص٢٠٣٢ ، مجموعة أوراق ٩٠ .

٦١- الوثيقة رقم ١٧٤ .

٦٢- الوثيقة رقم ٤٧٣ .

٦٣- الوثيقة رقم ٥١٠ .

٦٤- الوثيقة رقم ٢١ .

٦٥- الوثيقة رقم ٥٨٦ .

٦٦- الوثيقة رقم ٥٧٦ إلى ٥٨٢ .

٦٧- الوثيقة رقم ٦١٠ ، ٦٢١ .

٦٨- الوثيقة رقم ١٣٩ .

٦٩- مارمول، المصدر المذكور، ص٢٥٥ .

٧٠- الوثيقة رقم ٦٦ .

٧١- الوثيقة رقم ١٦٥، ١٦٧، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٣٣٤، ٢٧٨ ، ٣٧٠ .

٧٢- مارمول، المصدر المذكور، ص٢٨١-٢٨٢ .

٧٣- الوثائق ٤٧٦ ، ٥٠٠ ، ٥١٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ .

٧٤- الوثيقة رقم ٥٠٨ .

٧٥- الوثيقة رقم ٤٧٢ .

٧٦- الوثيقة رقم ٥٤٢ .

٧٧- الوثيقة رقم ٤٩٦ .

٧٨- الوثيقة رقم ٦٣٧ .

٧٩- الوثيقة رقم ٦٤٢ .

٨٠- مارمول، المصدر المذكور، ص٢٨٩-٢٩٠ .

٨١- مارمول، المصدر المذكور .

٨٢- الوثيقة رقم ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٦ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢، ٨١٩ ، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢ .

٨٣- مارمول ، المصدر المذكور، من ص٣١٠ إلى ص٣٢٧ .

٨٤- الوثيقة رقم ٦٦٥ ، ٧٧٩، ٧٨٥ .

٨٥- مُثلت هذه الحاميات العسكرية أهمية كبرى فى مدينة قُضباء Codbaa، البشارات بالمرية، والواقعة بالقرب من فوندون Fondon، وقد فقدت المدينة أسمها العربى القديم وأطلق عليها اسم بريسيديو Presidio (الحامية - المعقل) ؛ وفى القرن التاسع عشر فقد هذا الإسم معناه الذى كان مغزاه الدفاع والحماية والنجدة وهذه الصفات كانت تختص بالقلاع والحصون وأن كلمة «بريسيديو Presidio» كانت تطلق على أماكن خاصة بسجون الإصلاحيات وطلب سكان هذه الحامية بأن يطلق عليها اسم فوينتى فيكتوريا Fuente Victoria (فوارة النصر) وحصلوا على الموافقة بذلك .

٨٦- مارمول، المصدر المذكور، ص٣٣٠-٣٣١ .

٨٧- الوثيقة رقم ٨٠٧ .

٨٨- الوثيقة رقم ٨٣٩ .

٨٩- الوثيقة رقم ٨٧٤ .

٩٠- الوثيقة رقم ٨٧٧ .

٩١- الوثيقة رقم ٨٠٧-٨٠٨ .

٩٢- مارمول، المصدر المذكور، ص٣٣١-٣٤٠ .

٩٣- الوثيقة رقم ٢٨٧ إلى ٢٩٠ .

٩٤- مارمول، المصدر المذكور، ص٣٣١ .

٩٥- الوثيقة رقم ٢٩٩ .

٩٦- مارمول، المصدر المذكور ، ص٣٤٠ .

٩٧- الوثيقة رقم ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ .

٩٨- السجل التاريخى لإقليم المرية، ص٦٥ .

٩٩- الوثيقة رقم ٢٨٢ .

١٠٠- الوثيقة رقم ٣٣٠ .

١٠١- السجل التاريخى لإقليم المرية، ص٧٦ ،مجموعة أوراق رقم ٨١ .

١٠٢- السجل التاريخى لإقليم المرية، ص٧٦ ، مجموعة أوراق ٥٩ .

١٠٣- الوثيقة رقم ٣٤٦ .

١٠٤- السجل التاريخى لإقليم المرية، ص٧٥ ، مجموعة أوراق ١-٨ .

١٠٥- السجل التاريخى لإقليم المرية ، ص٧٦ ، مجموعة أوراق ٦ .

١٠٦- الوثيقة رقم ٣٣٦ .

١٠٧- الوثيقة رقم ٣٣٧ .

١٠٨- السجل التاريخى لإقليم المرية، ص٦٥ ، مجموعة أوراق ٥٤١ .

١٠٩- ارمول، المصدر المذكور، ص٣٥٩ .

١١٠- الوثيقة رقم ٣٦٣ .

١١١- السجل التاريخى لإقليم المرية ، ص٦٥ ، مجموعة الأوراق رقم ٥٢٩ .

١١٢- الوثيقة رقم ٣٦٨ .

١١٣- الوثيقة رقم ٢٧٠ .

١١٤- الوثيقة رقم ٢٧١ .

١١٥- الوثيقة رقم ٧٩٦ ، ٦٦٨ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٥ ، ٨٠٩ ، ٨١٨ .

١١٦- الوثيقة رقم ٦٦٦، ٦٦٩ ، ٦٧٥ ، ٧٩٠ ، ٧٥٠، ٧٩٥ ، ٧٩٨ .

١١٧- مارمول، المصدر السابق، ص٣٦٢ ، ٣٦٣ .

١١٨- الوثيقة رقم ٩٠٩ ، ٩١٢ ، ٩١٣ .

١١٩- كان أسقف كاتدرائية المرية يمتلك مزرعة زيتون فى بتشينا Pechina أمام بيناهادوكس Benaha-dux وكان يطلق عليها فى عام ١٥٥٥ هاندك أكابيث Handac Acabiz، بجوار وهدة التشليتشى El Chilichi (سجل الكاتدرائية، إدارة الجرد العام للخزانة، صفحة ١٠٨) Archivo Catedral , Inventario General de Hacienda, fol. 108 .

١٢٠- الوثيقة رقم ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ .

١٢١- الوثيقة رقم ٣٨٧ ، ٣٨٨، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٧ .

١٢٢- الوثيقة رقم ٤٠٣ ، ٤٠٥، ٤٠٦ .

١٢٣- الوثيقة رقم ٧٩٢ .

١٢٤- الوثيقة رقم ٣٠٧ .

١٢٥- مارمول ، المصدر المذكور، ص٢٨٢ .

١٢٦- ب. فانسنت : «طرد الموريسكيين من مملكة غرناطة وإعادة توزيعهم فى قشتالة (١٥٧٠-١٥٧١) .

Vincent, B." L'expulsion des morisques du Royaume de Granada et leur repartition en Castille (1570- 1571) Melanges de la " Casa de Velazquez" T. VI, 1970, p. 212-246 .

بالإضافة إلى خمس خرائط خارج النص.

١٢٧- الوثيقة رقم ٣٤٧ .

١٢٨- نيكولاس كابريانا : «المرية فى القرن السادس عشر: الموريسكيون الموصى بهم»، مجلة السجلات والمكتبات والمتاحف».

Cabrillana, Nicolas : " Almeria en el siglo XVI : Moriscos encomendados ", Revista de Atchivos , Bibliotecas y Museos , T. LXXVIII (1975).

١٢٩- فى حصر منازل المرية التى ظلت تحت إعادة التوزيع فى عام ١٥٧٢ نقرأ : «منزل آخر يخص البيداجى Bidagui الذى يعيش فيه السيد الونسو بانيجاس Alonson Vanegas»، السجل التاريخي لإقليم المرية، إعادة تقسيم المرية.

١٣٠- دييجو دى ميندوثا ، المصدر المذكورة، ص٧٨ .

١٣١- مارمول، المصدر المذكور، ص٢٢٣ .

١٣٢- السجل التاريخى لإقليم المرية، إعادة تقسيم المرية .

١٣٣- أ. دومينيجيث أورتيث : «بعض الوثائق حول الموريسكيين الغرناطيين» جامعة غرناطة ، ١٩٧٤ ، ص٢٤٩ .

A. Dominguez Ortiz : " Algunos documentos sobre moriscos granadinos ", Miscelanea de Estudios Dedicados al profesor Antonio Marin Ocete, Granada, Universidad, 1974 , p. 249 .

١٣٤- السجل التاريخى لإقليم المرية، إعادة تقسيم المرية، مجموعة أوراق ٣ وما يليها .

١٣٥- د. كابانيلاس : «رسائل الموريسكى الغرناطى ميجيل دى لونا».

D. Cabanelas : " Cartas del morisco granadino Miguel de Luna ", Misclanea de Estudios Arabes y Hebraicos , Granada, 1965-66, p. 33 .

١٣٦- الوثيقة رقم ٤٤٧ .

١٣٧- الوثيقة رقم ٧٢٩ ، ٨٣٣ ، ٨٣٥ .

١٣٨- الوثيقة رقم ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

١٣٩- الوثيقة رقم ٤٥٩ .

١٤٠- الوثيقة رقم ٤٦٣ .

١٤١- ف. رويث مارتين : «الحركات الديموغرافية والاقتصادية فى مملكة غرناطة خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر».

F. Ruiz Martin : " Movimientos demograficos y economicos en Reino de Granada Durante la segunda mitad del siglo XVI, Anuario de Historia Economica y Social , Im 1968 , p. 127 y ss.

١٤٢- نونييث دى برادو ، المصدر المذكور، ص٣١ .

١٤٣- أنظر بصفة خاصة تقرير باسترانا Pastranaبالمكتبة الوطنية بمدريد ، قسم المخطوطات، المعجم الجغرافي لتوماس لوبيث ،جزء وادى الحجارة، حيث يتحدث عن البيازين Albaiacin ، الحى الذى أسسه الموريسكيون المطرودون من غرناطة.

Diccionario Geografico de Tomas Lopez Tomo Guadalahara , Biblioteca Nacional de Madrid, Seccion Manuscritos .

١٤٤- م. كولميرو : تاريخ الاقتصاد السياسى، الجزء الثانى، مدريد ١٨٦٣ ن ص٦٣ .

M. Colmeiro : Historia de la Economia Politica, T.2, Madrid, 1863 , p. 63 .

١٤٥- السجل التاريخى لإقليم المرية، سجل رقم ٦٥ ، مجموعة أوراق ١٢٦ .

١٤٦- الوثيقة رقم ٣٢٦ .

١٤٧- الوثيقة رقم ٣٢٨ .

١٤٨- الوثيقة رقم ٧١٢ .

١٤٩- الوثيقة رقم ٣٣١ .

١٥٠- الوثيقة رقم ٢٩٥ .

١٥١- الوثيقة رقم ٣٧٥ .

١٥٢- الوثيقة رقم ٣٥٦، ٣٦٧ ، سجل ٦٥ ، مجموعة أوراق ٤٨١ .

١٥٣- السجل التاريخى لإقليم المرية، سجل ٧٦ ، مجموعة أوراق ١٥١ .

(٨)

الموريسكيون والعلوج*:

حالات من الارتداد فى المغرب فى بداية القرن السادس عشر

وفقًا لما جاء فى نصوص الحروب الدينية فى المغرب، فإن عدد حالات الارتداد التى وردت فى الوثائق قد تثير الدهشة. فالإسلام والمسيحية بعيدان كل البعد عن أن تفصل بينهما الحواجز والموانع . وبالرغم من صعوبة التقدير حتى ولو بشكل تقديرى ، فإن عدد المرتدين من المسلمين المغاربة إلى المسيحية ، يمكن أن يقدر خلال هذه الفترة بعشرات الآلاف . وكانت المجاعة الشديدة التى عمت فى عامى ١٥٢١- ١٥٢٢ هى أساس هذه الحركات الجماعية ، إلا أن الضرورة لاتبرر وحدها تلك الظاهرة التى كان استمرارها حقيقة مؤثرة . ففى جميع الأماكن البرتغالية فى المغرب منذ عام ١٥٠٠ وحتى جلائهم فى عام ١٥٤١ أو ١٥٥٠، كان الأمر يتعلق بمرتدين من الموريسكيين ، كما كانت هناك حالات أخرى من الارتداد. ولو تحدثنا من ناحية الكم ، فإن تيار التحول من المسيحية إلى الإسلام كان أقل بكثير ، إلا أنه كان منتشراً ومستمراً . أما من ناحية الكيف فإنه مختلف تمامًا حيث أن المنشقين عادة ما يحملون معهم المعارف والتقنيات التى يجيدونها، كما يلعبون دوراً محدداً مبالغًا فيه، إلا أنه كان له الأثر الكبير فى محيط السلطة الضيق للدولة.

ومع الأخذ فى الاعتبار الضيق والعسر وتحديث الوثائق من جهة واحدة [١] فسوف نبحث أولاً موقف السلطات من الجهتين، وسنحاول - بناءً على حالات معروفة- أن نتبين أسباب

---

* الموريسكيون Morisco اسم أطلق على المسلمين الذين تنصروا ، العلوج Elches اسم أطلق قديما على النصرانيين الذين أسلموا

الارتداد المحتملة وبنفس الطريقة تقييم ثباتها وصلابتها وتماسكها. وختامًا، ولعدم قدرتنا على معرفة مشاعر المرتدين، فسوف نبحث فى سلوكهم وردود الأفعال تجاههم .

ولما كان الهدف المعلن من الغزو البرتغالى هو زيادة عدد المؤمنين بالسيد المسيح، فلقد كان من المتوقع أن يتم التبشير عن طريق الكنيسة بمساعدة الملكية الحاكمة. إلا أنه وفقًا لما جاء فى الوثائق فإن ذلك لم يكن واضحًا إلا على مستوى الرغبات والنيات، أو فى المسعى الغريب لراهب فرنسيسكانى متحمس جاء وكله أمل فى تحويل مسلمى فاس من الديانة الإسلامية بدءًا بأمرائهم.

ولاندرى ماذا تم بشأن الرغبة فى تنصير المسلمين التى أعلنت بالقرار البابوى الصادر فى ٢١ أغسطس ١٤٧٢ والذى أعطى السلطة لرهبان فرنسيسكان برتغاليين بالإقامة فى دير الملك ألفونسو الخامس قد منحهم إياه فى طنجة.

وحلم تنصير المسلمين القوى لدى بعض الرهبان الفرنسيسكان ، لم يكن - فيما يبدو- تحقيقه- . وقد ورد استشهاد الراهب أندريه دو سبوليت Andres de Soplete فى يناير ١٥٣٢م بمدينة فاس فى كتاب برناردو رودريجوس Bernardo Rodrigues[٢] وفى نص يتعلق بسير القديسين فى أبريل ١٥٣٢ [٣]. فهذا الرجل المتحمس خرج بحثًا عن التضحية . ولدى وصوله إلى فاس فى ١٥٣٠، لم يكتف بممارسة الوعظ على الأسرى المسيحيين، بل - تبعًا لكتب سيرة القديسين- أخذ ينشر الوعظ فى الشوارع، مما أدى به إلى المثول بين يدى الملك ووزيره مولاى ابراهيم. وإننا لنجد صعوبة فى الاعتقاد بأنه إذا كان بالفعل يتحدث على الملأ أمام الناس ، لم يكن لتقف الجماهير أمامه وتهاجمه. وقد أورد رودريجيس- الذى كان فى فاس آنذاك- رواية أقل بطولة وأكثر دقة . فالراهب لدى وصوله برسالة توصية إلى الوزير، روى له عن رحلته وأبلغه بنواياه . وحاول الوزير إقناعه وتهدئته. وأكد له أنه ستحسن معاملته حتى يعود من حيث أتى، لأن المسلمين لن يقبلوا تبشيره كما أن السلطان لايريد إثارة الشغب الذى قد يؤدى إلى ضرره أو قتله . ولما انتشر الخبر بأنه قد جاء طرف مولاى ابراهيم راهب يريد تنصيره ، جاء بعض المرابطين والمثقفين من اليهود كانت لهم معه مناظرات بارعة . وإزاء تسلطهم وعنادهم ، اقترح الراهب محاكمة بالتعذيب . رذ ارتدى وزرة (تنورة) وأمسك بإحدى يديه كتاب الصلوات، وبالأخرى راية صغيرة من الرق كتب عليها بعض آيات الإنجيل باللغة العربية، وأكد أنه سيلقى به هكذا فى التار وسيخرج منها سليمًا . وختم حديثه مع الوزير وعلية القوم بأن وجه اللعنات للنبى محمد. فأخذ فى الحال وألقى به فى محرقة وأشعلت

فيها النيران. ورآه الحاضرون وهو يصلى ساجداً على ركبتيه فى وسط النيران، ثم وهو يحاول الخروج منها . فزج به مرة أخرى فى جمر النار. أما بقاياه فقد جمعت بعد أن أطفئت النيران وعرضت على جمهور الحاضرين «للتأكيد على أنه مات ولم يخرج حيًا من النار». وقد استطاع المسيحيون من الأسرى والأحرار أن يجمعوا رفاته وأن يرسلوها إلى البرتغال.

وكان المسيحيون - من العلمانيين ورجال الدين- قد حاولوا بالإجماع أن يثنوا هذا الراهب المتعطش للشهادة عن عزمه ، ولم يشاركوه ثقته الساذجة فى الحجة البرهانية لتصرفه . وكانوا على ثقة تامة من عدم جدوى مثل تلك الأفعال بل، وأى مظهر من مظاهر إثارة الإيمان والعقيدة . وكانت السلطة المسلمة قد تذرعت طويلاً بالصبر إزاء الراهب أندريه . فالمعروف عن السلطان ووزيره عدم كراهيتهم للمسيحيين . ويصفهما مصدر إسبانى بقوله : «كلاهما كان من المسلمين البارعين».

ومولاى إبراهيم يتحدث إلى رجل الدين هذا بالأسلوب الذى يخاطب به المجانين والمتخلفين عقليًا أو الأطفال المتقبلين . فتشدد هذا الرجل كان غريبًا عنه وغير مفهوم والمصادر البرتغالية ترسم له صورة السيد الحاكم المتشكك .

وقد أورد نص قداسى اتفاقًا تم بين السلطان الوطاسى Wattaside وملك البرتغال واستبعد أى ضغط وأى عنف يرتكب ضد مسيحى. ولهذا السبب كان على الوزير- قبل أن يدفع بالراهب إلى المحرقة- أن يلزم بعض البرتغاليين من ذوى الأصل الشريف ، الأسرى بفاس - أن يوقعوا على إقرار لإعفائه من آية مسؤولية فى هذا الشأن . هل كان يخشى أى مشاكل دبلوماسية أو عسكرية ؟ هل كان يخشى أن يقع ضحية إثارة يتذرع بها يوحنا الثالث Joao III؟ ومع ذلك فنحن لانعرف إن كان هذ الاتفاق المزعوم حقيقيًا أم لا ، ولانعرف أيضًا - إن كان بالفعل حقيقة فتحت أى شروط تم توقيعه . ألا يمكن أن يكون بنداً من اتفاق السلام المبرم فى عام ١٤٧١ والذى احتفظ به فى الذاكرة [٤] ؟ ومنطقيًا ، إذا كان السلطان قد التزم بمثل هذا الاتفاق ، ألا يكون قد فرض ذلك المسلمون الذين كانوا معرضين للتنصير- حتى يتم احترام ديانتهم وعقيدتهم؟ لقد كان تصرف السلطات البرتغالية مثيراً للدهشة بالفعل .

ولما كانت تلك حالة فريدة فى أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر وسلوكا استثنائيًا فى تاريخ المسيحية فى المغرب[٥] فإن تضحية الراهب الفرنسيسكانى لم يكن لها فى الغالب أي نتيجة واضحة على الساحه التى كان يهدف العمل عليها.

وإذا كان التبشير العلنى محظوراً ولايمكن ممارسته ، والدعوة إلى المسيحية غير مجدية،

فإن المسلمين لايحتاجون لذلك التحول إلى المسيحية . ويبدو على عكس الرأى السائد- أنه تحت شروط معينة يكون المسعى الحر لتحول المسلم مقبولاً من الناحية القانونية. وتوضح لنا رسالة أحمد الأعرج Ahmad A´rag إلى الملك يوحنا الثالث فى ٢٥ نوفمبر ١٥٢٩ بشأن حالة أحد المسلمين الذى يدعى ابن بسطا بن فارس Ibn Busta b. Faris الذى تحول إلى المسيحية وأقام فى البرتغال ، توضح الأسس التى بموجبها يمكن تغيير الديانة:

« إن القانون الذى يطبق فى ديننا لمن كان فى مثل هذه الحالة هو أن يرحل من بلادكم ومن تحت شريعتكم ، مع تصريح بالأمان من جانبنا ، وأن يقضى بصحبة الوالى الذى هو تابع له عشر أو خمس عشرة ليلة : ومهما كانت الديانة التى سيختارها خلال هذه الفترة ، فسوف يعود إليها . ذلك هو القانون ».

إن إمكانية اعتناق المسيحية لايستبعدها مبدئيًا الشريف وهو بطل من أبطال الجهاد ، إلا أنه يطالب حديث التنصر بأن ينسحب لفترة من الزمن حتى يصبح اختياره - فى نهاية هذه الفترة - نهائيًا . وإذا فرضنا أن ابن بسطه بن فارس قد التزم بالأسس التى حددها أحمد الأعرج واستمر مسيحيًا ، فإنه يصبح من المستحيل أن تستمر حياته بين المسلمين فى المغرب. والعكس صحيح فالمسيحى الذى يتحول إلى الإسلام لايستطيع الحياة بهذا الدين الجديد على أرض مسيحية .

والمتحولون إلى ديانة جديدة هم فى غالب الأمر أناس تركوا مجتمعهم بكامل رغبتهم أو أرغموا على ذلك قبل تغيير الديانة، بحيث يبدو التحول إلى الديانة الأخرى كما لو كان الوسيلة للولوج إلى الوسط الجديد.

ونادراً ما تشير المصادر إلى سبب أو أسباب التحول، إلا أننا نستطيع أحيانًا أن نستنتجها بشئ من الوضوح نتيجة لظروف هذا التحول.

والبيان الوحيد الواضح هو المجاعة التى كانت - هى فقط- أساس حركات وتغيرات كثيرة. فالسنوات ١٥٢١ و ١٥٢٢ الشديدة دفعت بالتأكيد آلافًا كثيرة من المسلمين- قد يصلوا إلى عشرات الآلاف - إلى أن يطلبوا تعميدهم أو يطلبوا أن يباعوا مثل العبيد وبالتالى يتم تعميدهم . وقد كانت توجد أعداد كبيرة من المسلمين - تدفعهم الحاجة أكثر من الدين - قد طلبوا تعميدهم وخضعوا برغبتهم لطاعة المسيحيين .

وقد ذكر ذلك بإيجاز فرناندو دى مينثيش Fernando de menezes مؤرخ طنجه ، بينما يذكر دمياو دى جويس Demiao de Gois بشكل أكثر وضوحًا :

«طلب عدد كبير من المسلمين من أنصار آسفى Safi وازمور Azemmour من الملك دون مـانويل Don Manuel السماح لهم بالتوجه إلى البرتغال ليتحولوا إلى المسيحية ويكسبوا قوتهم هناك . وهو ما لم يستطيعوا أن يفعلوه حينئذ في بلادهم بسبب القحط الشديد الذى كان يعمها . وتوجهوا إلى هناك بأعداد كبيرة حتى أن مدينة لشبونة والمناطق المحيطة بها قد امتلأت بهم».

ويورد برناردو رودريجيس البؤس الذى كان يعانى منه الفلاحون فى المناطق القريبة من أصـيـلا Arzila بحثًا عن نباتات تؤكل فى الأراضى الزراعية . وكان يبدو عليهم الهزال الشديد لدرجة أنه كان من السهل جداً احتجازهم ، حتى أن القائد Le Capitian كانت تلاحقه بكثرة طلبات التصريح بالخروج . فضلاً عن ذلك كان آخرون يأتون بكامل رغبتهم يعلنون ارتدادهم إلى المسيحية لأنه كان معروفًا عن المسيحيين أنهم يجدون قوت يومهم.

ولكن بسبب الأخبار التى انتشرت عن تفشى مرض الطاعون بين المسلمين، تم فى الحال إلغاء أى طلب للخروج ، وأصبح محظوراً دخول أى شخص أجنبى إلى المدينة .

ولهذا فقد أصبح عدد المرتدين من الباحثين عن الطعام محدوداً جداً . ويذكر المؤرخ كيف توسعت تجارة الرقيق فى أزمور Azemmour حيث توجه إلى هناك بنفسه لكى يستفيد من السعر الزهيد الذى وصلت إليه النفس البشرية . وفى الفصل الذى خصصه للحديث عن هذه التجارة الغريبة التى تولدت نتيجة عوز الشعوب، لم يثر موضوع التعميد، بل كان الحديث عن أشخاص تقوم أسرهم ببيعهم أو يخضعوا برغبتهم للعبودية ، وأخذوا ينهبون سيدات وأطفالاً فى الدوار (شمال أفريقيا » أنهكهم الجوع، حتى أن شهادته تلقى بعض الشك على شهادة دمياو دى جويس. إلا أن يكون كل منهم قد شهد مواقف مختلفة لاتمحى على الإطلاق، أو أن يكون الاتجاه إلى الرق قد صاحب التعميد فى حالات كثيرة.

ومن بين العديد من العبيد الذين وصلوا فى عامى ١٥٢١ و ١٥٢٢ إلى بلنسية قادمين من المغرب، بل وحتى من مراكش أو من فاس ، فإن عدداً كبيراً منهم كان له اسم مسيحى، وعند الاستجواب كانوا يؤدون اليمين ويقسمون على الانجيل ، بينما احتفظ آخرون بأسمائهم المسلمة وكانوا يقسمون حسب الشريعة والسنة . وأعلن معظمهم أنهم نشأوا فى بيوتهم وفى أراضيهم وفى خيامهم فى الغالب ثم تم بيعهم إلى المسيحيين[٦] . وهذه الشهادات لاتؤكد ما ذكره دمياو دى جويس إلا أنها قد طلبت منهم، لأنه إذا كان لابد من بيعهم بطريقة غير مشروعة ، فإنه لابد أن يكونوا قد أسروا أثناء الحرب.

وعلى أى حال فإن الارتداد أو التحول إلى المسيحية لايحول دون تحويلهم إلى عبيد أو بيعهم. ففى شهر أغسطس ١٥١٧ ، وفى أزمور بالتحديد، اتهم القائد سيماو كوريا Simao Corria من بين ما اتهم به بأنه قد باع فى قشتالة عبيداً من المسلمين الذين جاءوا ليتحولوا إلى المسيحية، وشخصًا آخر قام بنفسه بتعميده وأطلق عليه اسم بيرو Pero . إذ تفشت فى هذا العام مجاعة شديدة فى جنوب المغرب نتج عنها- كما هى القاعدة- ازدهار فى عملية تجارة الرقيق. وكانت الظروف جديرة بأن تسمح لهذا النبيل البرتغالى المتلهف إلى الكسب، عديم الذمة بأن يلبى طلبات المشترين الذين جاءوا إليه بأعداد كبيرة. أما الذين باعهم مثل القطيع- بينما كانوا يعتقدون أن التعميد سيحميهم - فلم يبدْ أنهم قد تحولوا لكى ينكروا إيمانهم مثلما فعل كثير من البؤساء.

والعبودية طريق يؤدى غالبًا إلى التحول عن الديانة . فالعبيد الثلاثة الذين اشتراهم برنانردو رودريجيس فى أزمور قد أصبحوا مسيحيين. والمرأة التى أطلقت على نفسها بعد التعميد إسم إليانور رودريجوس ما لبثت أن ماتت بعد فترة بمرض الطاعون ؛ أما ابنها الذى كان عمره حينئذ ستة أعوام فقد قام بتربيته الدكتور ديورات رودريجيس، شقيق المؤرخ. وقد أصبح فيما بعد مقاتلاً شجاعًا لقى حتفه وهو يقاتل فى صفوف القائد الشهير لويس دى لوريرو Luis de Louriero. وأما الشاب الذى باعه أخوه إلى المؤرخ نفسه فقد وصل إلى أيدى أحد تجار جنوه الأغنياء ويدعى ميسر أمبروسيو Micer Ambrosio، وظل يعمل فى خدمته فترة طويلة فى المغرب قبل أن يصطحبه معه إلى جنوه حيث مات ميسوراً بعد عتقه(٧).

وهناك أعداد كبيرة من الأطفال الذين قام بعض قطاع الطرق بتربيتهم ثم بيعهم فى أسواق أفريقيا. كما قام البرتغاليون وأنصارهم بأسر أعداد كبيرة أخرى أثناء حملاتهم وهجماتهم على الدور والقرى . ولما كان هؤلاء الأطفال قد انفصلوا عن أسرهم وانتزعوا من بيئتهم، فقد تحولوا بسهولة إلى الدين المسيحى واستوعبوه بيسر . وما حدث مع المسلمين تم بنفس الطريقة مع المسيحيين، وذلك بعد الاستيلاء على سانتا كروث Santa Cruz فى عام ١٥٤١م، عندما توجه الراهب أنطونيو Fray Antonio لكى يفتدى الأسرى.

فقد تم تحويل ديانة حوالى ثمانية عشر أو عشرين صبيًا إلى الإسلام تتراوح أعمارهم ما بين سبعة إلى إثنى عشر عامًا كان مولاى محمد قد أرسلهم إلى الملك (والده) حيث أن أحد أبنائه - مولاى عبد المؤمن- الذى كان يبلغ حينذاك خمسة أعوام- كان قد طلبهم لتتم

تنشئتهم معه وليصبحوا فيما بعد المرتدون عن الدين وهو ما تم بالفعل عندما صاروا رجالا[٨].

ويعلم الرهبان أن تحول المراهقين والأطفال إلى الإسلام أمر محتوم إذا ما تم عزلهم عن باقى الأسرى من البالغين [٩]. ومن المعلوم أيضًا أن هؤلاء الأطفال لايستطيعون مقاومة ضغوط وتحريض مواليهم إلا إذا عاد هؤلاء المرتدون لسبب ما إلى أرض مسيحية. وكانت محاكم التفتيش ترى أن الارتداد فى سن صغيرة لايلزم بالمسئولية من كان ينبغى إصلاحه ومباركته[١٠]. وعندما كان رجال ونساء- شباب فى الغالب - يفقدون الأمل فى أن يعتقوا أو يعودوا إلى أسرهم، ويرون أن العقبة الكبرى فى تجاوبهم مع المجتمع الذى فرض عليهم العيش فيه هو فارق الديانة، فالكثير منهم كانوا يبدون استعدادهم للتخلى عن دينهم ويتبعون ديانة مواليهم . فعلى سبيل المثال نذكر أمة تدعى فاطمة كان يريد مولاى ابراهيم شراءها بمبلغ ٤٠٠ مسكوكة من الكونتيسة إيزابيل زوجة الكونت دى ريدوندو، قائد أصيلا Capitan de Arzi-la . فرفضت لأنها كانت راضية عن الخدمة التى تقوم بها فاطمة طرفها. وما كان من فاطمة إلا أن تحولت إلى المسيحية عام ١٥٣٨م بعد ٢٧ سنة من الرق ، حيث كانت طفلة عندما أخذت إلى Arzila. وفى عام ١٥٢٧م أو ١٥٢٨م قام القبطان أنطونيو دى سيلفيرا بشراء فتاتين من قرية فاروبو Farrobo المعروف عنها جمال نسائها وذلك لتقوما بخدمة زوجته خينيبرا دى بريتو Jenebra de Brito. واصطحبتهما معها إلى البرتغال حيث غيرتا ديانتهما وتزوجتا . وفى عام ١٥٢٩ وفى أصيلا Arzila أيضًا استطاع لوبى ميندس Lope Mendes- أحد قواد الجيش ومن أقارب الكونت ريدوندو - أن يأسر فتاة جميلة ويضعها فى خدمته حتى حان الجلاء عن المدينة فى عام ١٥٥٠ . فتنصرت حينئذ بلاشك لأنه كان محتم عليها أن تعيش فى البرتغال ولأنها فقدت أى أمل فى العثور على ذويها .

وفى بيوت عديدة بمدينة أصيلا Arzila توجد إماء ممن غيرن ديانتهن . ويذكر لنا برناردو رودريجيس اثنتين باعهما والده إلى الكونت مونسانتو Monsanto ثم ارتدتا إلى المسيحية وأصبحتا من المكرمات فى البرتغال. وهو نفسه قد فقد ليونور رودريجيث Leonor Rodri-guez التى قضى عليها الطاعون وأسف لفقد ايزابيل التى اصطحبها إثنان من عبيده أحدهما موريسكى أثناء فرارهما. وفى أسرة هذا القائد نجد إمرأتين تحملان اسم ليونور رودريجيث : إحداهما أرملة الموريسكى جواو كوتينهو Jiai Coutinho والتى كانت قد استولت عليها السيدة كاتردينا دى سيلفا وابنها وهى زوجة الكونت دى بوربا. وكانت تلك قد فرت مع زوجها وأربعة موريسكيين آخرين فى عام ١٥١٦ فى بداية الحصار. أما الأخرى- وهى التى

كانت فيما يبدو تتمتع بثقة مولاتها- فقد تزوجها المقدم الموريسكى أرتور رودريجيس Artur Rodrigus وكانت تعتبر المرأة الشريفة وصاحبة الفضيلة والطريق المستقيم. ويتحدث المؤرخ أيضًا عن إينيس دى سوفيرال Ines de Soveral وكانت أمة لدى أرملة فرانسيسكو دى سوفيرال ، وعن خيرونيما لوبيث Jeronima Lopez أمة لدى أرملة فرانسيسكو دى سوفيرال، وعن خيرونيما لوبيث Jeronima Lopez أمة لدى أحد تجار جنوه ويدعى باسكال دى ماجولو {ascal de Magolo} ، وفتاة أخرى تدعى «إيناس» إطلق عليها اسم سواكو Soi-cu بسبب تواجدها بالقرب من الجنود المقربين من بدرو نابارو Pedro Navarro الذين جاءوا لإنقاذ المدينة فى عام ١٥٠٨ .

ومن بين الرجال الأسرى هناك البعض الذى تحول عن دينه . فلانعرف مثلاً متى وكيف أخذ فرانسيسكو أو كولوتو أسير جونشالو دى فونسيكا الذى يرجع أصله إلى إحدى القبائل العربية القوية، وأصبح مسيحيًا. وفى عام ١٥١٢ تم أسر رجل وأصبح مسيحيًا فى عام ١٥١٨ وكان فى خدمة أرتور رودريجيس حامل الراية لذلك فهو يحمل اسمه . وفى إحدى طلعاته التى قام بها كمرشح لرتبة المقدم ، استطاع أن يأسر شابًا كشافًا فارسًا من فارويو Farrobo. وما كان من هذا الشاب فور مثوله أمام القائد إلا أن أعلن رغبته فى أن يكون مسيحيًا ، فلبى الكونت بكل حماس رغبته وقام بتعميده وأطلق عليه اسم انطونيو كوتيشو . وأنطونيو فالساو Fal-cao الذى يرجع أصله إلى بنى عروس اصطحبه مولاه إلى البرتغال حيث اعتنق الديانة المسيحية وتعلم اللغة البرتغالية وعاش حياة مليئة بالمغامرات انتهت به فى سن متأخرة إلى أصيلا Arzila . فقد خدم كفارس مغوار . وهناك صبى من منطقة نهر بونت Pont ناحية القصر الكبير أسر فى المرة الأولى فاستطاع الهروب ، ثم أسر من جديد وأصبح عبداً لدى برناردو رودريجيس واعتنق الديانة المسيحية وأطلق عليه اسم انطونيو دى سيلفيرا. وأسيران آخران أصيبا بجروح تم علاجهما واعتنقا الدين المسيحى، أحدهما هو ابن أخ المقدم الموريسكى بيرو دى مينيسيس .

والأهداف التى كان يطمح إليها هؤلاء الرجال والنساء نحن لانعلمها فى الغالب. ولكن أرتور رودريجس أصبح مسيحيًا «إما لأن تلك هى رغبته، أو لأنه كان يرى مدى الاحترام الذى يتمتع به الموريسكيون الآخرون».

كما أن النجاح الذى حققه المقدم الموريسكى دييجو دى سيلفيرا هو الذى دفع بأسير برناردو رودريجيس إلى أن يطلب تعميده . وبالرغم من عدم إعلان ذلك، فقد بدأ واضحًا أن

أنطونيو كوتينهو Antonio Coutingo قد بهرته الحالة التى بلغها أرتور رودريجيس الذى كان قد أسره . وعند طلبه اعتناق المسيحية اقترح طرق احتجاز مارتينو علج Martino Elchc الاسبانى الذى جاء ليعمل فى خدمة المسلمين، وهو ما سيأتى عليه بالتقدير والمال فى حالة نجاحه . كل هؤلاء الثلاثة «من رجال العمل فى الحقول» . الأول تم أسره بينما كان يحاول مع الفرسان المغاوير الآخرين احتجاز ثلاثة هاربين من أصيلا Arzila فى الطريق إلى طنجة . أما الآخران فلهم تجربة عسكرية ككشافين أو كحرس ، كما أن لهم معرفة جيدة بالأرض. بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين كانوا يعيشون من الحرب كان الأمل فى أن يمارسوا بعد عتقهم حياة مغامرات وبطولات ، واحتمالات نجاح من الناحية الاجتماعية مقارنة بحياة أشخاص آخرين هاربين، هؤلاء الموريسكيون الذين كانوا محط أنظار الجميع. كل هذا كان يشكل أسبابًا كافية فيما يبدو لأن يتخلوا عن دينهم ويطلبوا تعميدهم .

وفى حالات أخرى نجد أن المصالح المادية تدفع البعض لتغيير موقعهم وديانتهم. ونضرب مثالاً على ذلك، ذلك المصلح الأجير (المرتشى) الذى ذهب للخدمة فى صفوف البرتغاليين وتحول إلى الدين المسيحى فى بداية عام ١٥١٠ ، وأطلق على نفسه اسم جونثالو فاث Gon-zalo Vaz وذلك حبًا لفقيه أصيلا Arzila الذى كان يأتى إليه بالأخبار، ويحمل له نتاج سرقاته . وكان الكونت والأشراف الذين كانوا بأعداد كبيرة فى المدينة يكنون له كل تقدير ويقدمون له الهدايا وخاصة الملابس. حتى زوجته التى جاء يبيعها فى الظاهر، اقتدت به وحملت اسم ماريا دياث. ويكمل برناردو رودريجيس فيقول:

«وخرجا من منزل الكونتيسة الذى استقبلتهما فيه إلى منزلهما الذى لاينقصه أى شئ ضرورى ، لأن الكونتيسة كانت قد زودته بكل شئ».

وأصبح جونثالو فاث مقدم يقدره البرتغاليون فى أصيلا Arzila، ويخشاه ويكره مسلمو المناطق المجاورة . وبدا هذا الرجل عديم الذمة . ولكن هل ميله إلى العنف ورغبته فى السرقة هو الذى انتهى به إلى خيانة ذويه واعتناق المسيحية ؟ لانستطيع أن نؤكد أن دافعه الوحيد هو الميل إلى الكسب، مهما كانت قوته حيث أن موته- الذى سنتحدث عنه فيما بعد- قد أظهر أمراً آخر غير الاستخفاف والتهكم المادى لرجل مغامر.

ومما لاشك فيه أن السلطات البرتغالية كانت تبحث- وهى تشترى المؤيدين وتجازى بسخاء المرتدين- عن مسلمين آخرين لينهجوا نهجهم . فقد صدر أمر من قائد أزمور Azemmour فى عام ١٥٣٥ بدفع مبلغ ٤٠٠٠ ريال إلى الموريسكى هنريك دى فيرونها Henrique de

Veronh الذى اعتنق المسيحية مؤخراً لزواجه وإعداد منزله . ولما كان من حاشية الشريف ، كان عليه أن يكون نموذجًا جيداً وأن يتم الاقتداء به أو بمعنى آخر أنه يستحق أن يخدم [١١]. وفى الواقع فإن النجاح المادى لفئة (المقدم) من الموريسكيين قد أثار الحاسدين وأوجد المنافسين لدى الرجال الذين جاءوا برغبتهم يطلبون تعميدهم وهم يعرضون تقديم خدمتهم كمرشدين فى عمليات السطو. ومثالاً على ذلك نقدم نموذج ذلك الشاب من بنى عروس وهو من أبناء عمومته بيرو دى مينيسيس، وقد أطلق على نفسه نفس الاسم حيث أنه هو راعيه وهو يريد أن يسير على هديه . ولكى نميزه عن الآخر سنطلق عليه بيرو دى نوفا . فقد حصل هو على أحد الخيول التى تم الاستيلاء عليها مقابل المعلومات التى أتى بها فضلاً عن المسكوكات . وقد استقبله فى منزله وعامله بكل تقدير . ولما كان يرتدى أفخم الثياب وكان متألقًا ومحبوبًا من الجميع خلال السنتين أو الثلاث سنوات التى قضاها فى أصيلا Arzila قبل أن يلقى حتفه على أيدى المسلمين، فقد كان نموذجًا للنجاح .

إن الرغبة فى الاستفادة من قريب كانت له مكانة فى المعسكر الآخر، كانت بالتأكيد أيضًا أساس سعى مارتين فى فرناندیث دى نيخير دى لا فرونتيرا ، شقيق الفتاة اتى أطلقت عليها المصادر المغربية ليلى زهراء، وهى الإسبانية التى تزوجها- لاندرى متى وكيف- على بن رشيد، شريف شفشاون Sufsawan [١٢]. وعلى هذا كان هذا المسيحى هو إذن خال مولاى ابراهيم، الذى أطلق عليه لقب قائد فارويو Farrobo أو جبل حبيب بالقرب من أصيلا Arzi-la. وكان المسلمون يطلقون عليه فيما بينهم على، بينما استمر البرتغاليون فى إطلاق اسمه الأول وهو مارتينو علج Martino elche المرتد. وقد حاولوا القضاء عليه وشنوا عليه حربًا دفعت به إلى أن يترك مهامه وقد كان يتقاضى راتبًا بلا عمل، وأن يعيش بالقرب من أخته فى شفشاون . أما ارتداد الشقيق الأصغر لجونثالو فاث فقد كان الوضع فيه مختلفا بعض الشئ. فمن بين الأسرى الذين أوقع بهم هو نفسه فى القرى التى يعرفها جيداً لأنه كان يقيم فيها ، كان بالطبع هناك بعض أفراد أسرته مثل حماه الذى قطع صلته به وأخوه ذو الأربعة عشر أو الخمسة عشر عامًا والذى دفعه إلى اعتناق الدين المسيحى وأطلق عليه اسم جون فاث فالأخ الأكبر قد قاد الأخ الأصغر. وبنفس الطريقة عمل بيرو دى مينيسيس على إقناع ابن أخته الأسير لأن يسير على نهجه .

ومن الأسباب التى كانت تدفع البعض إلى الفرار إلى الدين المسيحى الإهانات التى كانت توجه إليهم من رؤسائهم . ففى عام ١٥٢١ ، حضر فارسان من حراس الجسر ومثلا أمام قائد

أصيلا Arzila وأعلنا رغبتهما فى التحول إلى الدين المسيحى لأن قائد القصر الكبير وجه لهما الإهانات . وهناك أسباب أخرى لذلك : ففى عام القحط جاء عدد من المغاربة إلى البرتغاليين وأبدوا لهم رغبتهم فى اعتناق المسيحية. أما أحد هذين الفارسين فهو من أقارب أرتور رودريجيس الأمر الذى لايستغرب لهذا القرار . ولما تم تعميده سمى ألبارو رودريجيس وكان معروفًا أكثر باسم Dentudo الذى أطلق عليه بسبب كبر حجم أسنانه. وأما الآخر فقد أطلق عليه اسم جون كوتينهو Coutinho. وفى عام ١٥٣٩ علم السيد دون مانويل ماسكاريناس أن هناك رجالاً ثلاثة قد جاءوه يعلنون رغبتهم فى اعتناق المسيحية ، فأحس بالقلق وأراد أن يعرف السبب فى ذلك وهل هو بسبب إهانة وجهت إليهم. واقترح- إن كان الوضع كذلك- أن يتدخل لدى مولاى إبراهيم ليعقد الصلح. فأكدوا له أنه لاشئ من هذا وإنما تلك هى رغبتهم . وكان القائد حريصًا بلا شك على الإبقاء على العلاقة الطيبة مع الوزير الذى كان قد وقع اتفاقية سلام مع البرتغال. ولكن الحال قد تكشف. فالغضب والغيظ قد يدفعان أحيانًا رجالاً يتمتعون بالكبر والإباء إلى معسكر الأعداء ويعلنون اعتناقهم للمسيحية. إلا أن السلطات تقدر- لبعض الأسباب الباعث الضعيف لهذا وترى أن مثل هذه الحالات إما يتم ثنيها عن عزمها أو على الأقل أن توضع تحت الاختبار. فرغبة بيثنتى فرناندیث فى اعتناق المسيحية- وهو شقيق محصل الضرائب بطنجه Almoxarife de Tange- تبدو غير قائمة على أساس قوى من الجد. فعقب خلاف مع زوجته فر من منزله وتوجه إلى المسلمين وطلب المثول أمام مولاى ابراهيم، ولكن سبق به أمام ماوفتى Mafote منافسه الذى جرح كبرياؤه برفض الشاب اعتناق المسيحية أمام شخص آخر غير شريف شفشاون Safsawan ودفع به إلى إعطاء الأمر بقتله. ويرجع هذا القرار فى الأصل إلى الكراهية الشديدة بين القائدين- وذلك وفقًا لما ذكره برناردو رودريجيس. وكان هذا الشخص الهارب ضحية لشكل آخر من الشك والعلاقات السيئة بين الكبار، ولو كان قد مثل أمام مولاى ابراهيم ما كان قد مات بالتأكيد، بل ربما كان قد عاد إلى منزله بهدف أن يدعوه لإعادة التفكير، وتدل هذه الحادثة - التى تكشف عن أمور كثيرة- بالنسبة لما يهمنا هنا، على أن الرغبة فى التحول إلى الدين المسيحى لم تكن هى الشغل الشاغل للمسئولين المسلمين.

وفى عام ١٥٢٥ ، بينما فقدت أصيلا Arzila عدداً كبيراً من الناس، جاء رجل أمام أنطونيو دا سيلفيرا . وقد وصف برناردو رودريجيس مجيئه هذا بأنه كان فى الوقت المناسب . فقبل شهر من هذا التاريخ كان almogaraves de Arzila قد أسروا زوجته وابنه. وكان المعتقد أنه جاء يجادل فى أمر فديتهما. ولما كان ميسور الحال، إذ أنه يمتلك أكثر من ألفى

خلية نحل فى جبل بنى جورفات Gorfat، فقد كان يستطيع أن يعرض مبلغًا كبيراً لتحريرهما. وكان هو نفسه قد أسر فى عام ١٥١٧، ودفع لفلك أسره إثنى عشر قنطاراً من شمع العسل. فهو قد جاء إذن ليؤكد للقائد أنه يريد أن يكون مسيحيًا وأن أفعاله تشهد على رغبته تلك. ولما كان أسيراً لدى أحد أبناء عمومة أنطونيو دوسيلفيرا، فقد استقبله أحسن استقبال ودعاه إلى مائدته وأسكنه فى منزله . ودفع هذا الرجل مبلغ ١٥٠ مسكوكة ثمنًا لفك أسر زوجته وابنه الذين أكد بنفسه أنه يريد تعميدهما. وبالتأكيد تمت تلبية رغبته ، وأطلق عليه اسم دييجو دا سيلفيرا وعلى زوجته خينيبرا دى بريتو- وهو نفس اسم زوجة القائد- وعلى الطفل اسم جون دى بريتو. وتم تسكينهم فى الحال فى منزل قريب من منزل القائد حيث كانت تقدم أهم الوجبات هناك. ولما كان المقدم الجديد من عائلة ميسورة الحال، فلم يبدو أنه قد شدته إمكانية الثراء مثل آخرين غيره من ذوى الأصول الأكثر تواضعًا .كان يريد أن يلتقى بذويه، إلا أنه توصل لذلك بطريقة أخرى. فمن الملاحظ أنه كان أسيراً لدى البرتغاليين، ومن المحتمل أن يكون ذلك هو الذى دفعه لاتخاذ القرار.

وكانت هناك حالة وقعت أحداثها قبل ذلك تدعو للدهشة أكثر وهى التى حدثت لدى عودة أسير سابق. فبسبب قلة عدد الرجال كان القائد تعوزه المعلومات عن الأعداد ، لذلك شعر بالسعادة عند وصول أحد المسلمين يستطيع الاعتماد عليه فى ذلك. ولكن للأسف كان أصم أبكم ! وأخذ بالإشارات يشرح رغبته عندما رسم علامة الصليب وركع على ركبتيه مشيراً إلى الكنيسة، ولما أخذ إلى هناك ليتم تعميده تذكروا أنه كان أسيراً لدى أحد صانعى الأسلحة وكان يعاونه فى عمله هذا . ولما كانت هذه الحرفة التى لاغنى عنها تنقص فى المدينة ، لذلك فقد عهد إليه الكابتن بوظيفة صانع الأسلحة التى أداها على أكمل وجه وكان الجميع راضين عنه .

وأثناء الفترة التى كان فيها السيد الفرنسو دى نورونها D. Alfonso de Noronha قائداً فى سبته من عام ١٥٣٨ حتى ١٥٥٠ ،جاء أحد المسلمين يعلن اعتناقه المسيحية وكان فى الغالب من النبلاء حيث أنه عندما كان أسيراً فى البرتغال تم استبداله بمسيحى، ولدى مغادرته البلاد استقبله الملك فى المرية Almeria . وكان قد وعد بأن يعود مرة أخرى ليعتنق المسيحية ويموت على دين المسيح عيسى. ولكى يحقق غرضه بسهولة ، فقد تصور- فيما يبدو- أن يتوجه إلى سبته من أجل التجارة ويحمل معه بضائع يمتلك نصفها قائد تارجه Tar-ga وهو شريك وفى له . إلا أن مولاى محمد هذا فى إجراء ثأرى أعلن الحظر على جميع هذه البضائع معلنًا أنها كلها تخصه ، وأخذ هذا الرجل يطالب بأن ترجع إليه ممتلكاته .

وفى تأريخ سانتا كروث Santa Cruz تمت الإشارة عدة مرات إلى القائد مؤمن ابن تاجر جنوه الذى تحول إلى الإسلام عن حب . فأبوه كان يبيع البضائع هناك كما يفعل آخرون فى البلاد. وهناك شغف بإبنة قائد كبير كان صديقًا له، وكان رجلاً هامًا ومحبوبًا جداً من الشريف ... وحملت منه الفتاة ... فلما علم القائد ذلك أرسل فى طلبه وقال له : «لقد حملت ابنتى منك . إننى صديقك وسأثبت ذلك بالدليل. وسيقطع الشريف رأسك ويستولى على ممتلكاتك، اعتنق الإسلام وسأزوجك إياها، وهكذا تفلت من الموت». واعتنق الإسلام وتزوج الفتاة التى أنجبت فيما بعد هذا القائد مؤمن ....

وبالرغم من أنها تبدو رواية فولكلورية، فهى غير مستبعدة على الإطلاق. فالألفة المفرطة مع المسلمين لاتدعو لدهشة أبناء جنوه القريبين من السلطة فى البلاد[١٣]. ففى غالب الأمر لم تقدم لنا كتابات برناردو رودريجيث أو أى مصادر أخرى، أى سبب لحالات التحول إلى الديانة الأخرى. برغم أن مؤرخ أصيلاً Arzila قد عقد أهمية كبرى لحالة صياد من هذه المدينة قد اعتنق الإسلام. وكان يبحث باستمرار عن وسيلة ليهرب بها من التزاماته . حيث أن هذا الرجل اللين المتواضع ما أن تحول إلى الإسلام حتى أصبح أسداً هائجًا وسبب ألمًا فظيعًا ليس فى أصيلا Arzila فقط ولكن فى إقليم الغرب Algarve. ومثل هذا التحول بدا كما لو كان من فعل الشيطان . ولكنه يجد صدى فى نفس لها إيمان متذبذب وإهمال وتقصير فى أداء الواجبات . ولكن ذلك الرأى الإرشادى ليس تفسيراً.

عادة ما يطلق المسلمون على أنفسهم عند تعميدهم- بالإضافة إلى الإسم الأول المسيحى- اسم عائلة الشخص الذى تعهدهم (الأب الروحى) وهو فى الغالب القائد. أما البرتغاليون والمسيحيون الآخرون الذين اعتنقوا الإسلام فمن الصعب أن نحدد استخدامهم فى هذا الشأن . فصياد أصيلا Arzila هذا- جون فاث- قد أصبح أسمه من الآن فصاعداً «أحمد» مثل قائد القصر الكبير الذى تعهده . وكذلك ماريت فرنانديث الذى دخل إلى عائلة الشريف قد أصبح اسمه «على» مثل شقيق زوجته على بن رشيد، كما جاء فى المصادر البرتغالية . ومن هاتين الحالتين المعروفتين فقد نجد أنه من الصعب أن نضع أسسًا عامة، إلا أننا لدينا الانطباع بأن الأمور تتشابه فى كلا المعسكرين .

والأصل الاجتماعى للأشخاص الذين يتحولون إلى الديانة الأخرى متنوع. فعدد كبير من المسلمين يأتون من أوساط ميسورة الحال مثل أقارب الشريف سعد الدين Sa'dien، والسلطان والقادة، والنبلاء وصاحب خلايا النحل الذى ينحدر من أصل شريف . وليس من الممكن تحديد

فكرة عن النسبة التى يمثلونها حيث أن المصادر لاتذكر فى الغالب سوى هؤلاء بسبب أهميتهم الاجتماعية، بينما تتناسى الأشخاص ذوى الأصول المتواضعة. ومن بين هؤلاء نذكر إلى جانب العديد من الجنود ذلك الفقير الذى كان أصم أبكم ، هذا فضلاً عن العديد من العبيد السود. وهم لايمثلون ندرة فى المجتمع المغربى. فقد يحدث أن الانتماء العرقى لمن راحوا يبحثون عن ملجأ فى مكان برتغالى يكون محدداً . والأمر هنا يتعلق الأجلاف (Goulofs (Jilofos . ونخلص من ذلك إلى أن الأفراد الذين تحولوا عن الإسلام أثناء فترات القحط كانوا أكثر الناس فقراً وأكثرهم احتياجًا ، الذين لم يجدوا سوى هذه الوسيلة للنجاة من الموت . كما نجد أيضًا نوعيات مختلفة من البشر بين المسلمين الجدد مثل هذا التاجر ميسور الحال وبعض الجنود ورجل البحر الصياد.

ومسألة تمسك هؤلاء المتحولين إلى الديانة الأخرى بدينهم الجديد تفرض نفسها أمام المؤرخ بألفاظ قريبة الشبه بتلك التى يذكرها المعاصرون . فعندما يأتى التحول فى فرصة أو مناسبة أو لفائدة مادية فإننا نشك فى نوعية هذا التحول ومصداقيته وصلابته، ولاتثير دهشتنا ضعفه مثل فرناندو دى مينيسيس . ففور انتهاء القحط- كما يؤكد- عاد المرتدون إلى دياناتهم وعقائدهم السابقة. وإننا لنعترف بإيجاز بالفلسفة القائلة أحيانًا عن الحالة الشديدة السوء للشعوب الوثنية ، بأنه لايدفعها ولايرغمها على التغيير إلا الشدة والقسوة. وأن القادة لايشاركون بالضرورة فى هذه النظرة التشاؤمية ، فهم إلى حد بعيد حذرون وغير واثقين من حديثى التنصر ، وهم يضعون تحت التجربة ، وفى نفس الوقت يتخذون التدابير التى من شأنها إدخالهم وإدماجهم وجعلهم يرتبطون بشدة بمجتمعهم الجديد. فمن المتبع عادة عندما يأتى إليهم المسلمون أن يدفعوهم إلى القيام بأعمال تجعل من الصعب جداً أو من المستحيل عودتهم إلى ذويهم.كأن يتسببوا فى هلاك المسلمين أو على الأقل يدفعوهم لأن يقودوا عمليات هجوم على قراهم الأصلية بحيث تقع عليهم مسئوليات القتل والأسر التى ترتكب، وقد يكون بعض الضحايا من أقربائهم . وبعد أن ينجزوا بنجاح هذه التجربة المبدئية يحصلون على شهادة محارب وذلك ليكسبوا ثقة القائد ورجاله. وتعد هذه التجربة حرجة للغاية ولايستطيع كل المتقدمين إليها أن ينجزوها بسهولة . ويتم الحكم عليهم فى النتائج التى يحققونها فى سلوكياتهم وتصرفاتهم وهم يعلمون ذلك. لذلك فإننا نرى دييجو دى سيلفيرا- بعد أن يطلب تعميده - يعود محملاً بالغنائم والأسرى والماشية التى توزع فوائدها على كل من يثق بهم

المقدم. بيرو دو نوفا ، بعد أن شارك فى كثير من الهجمات ضم إليه اثنين أو ثلاثة من السود الموريسكيين واختفى . وبدا من غير المعقول لدى أهالى أصيلا Arzila أن يستطيع العودة إلى ذويه من المسلمين. أليس هو ابن عم المقدم بيرو دى مينيسيس الذى تكفله وهو يحمل نفس اسمه ؟ وهو قد تحول من دينه إلى من نثق فيه ثقة كاملة، وألم يترك هذا لدى قريبه فرسه وملابسه ومبلغ ال ٥٠ مسكوكة التى أعطاه إياها القائد؟ فقد عاد هو وزملاؤه بعد أربعة أو خمسة أيام مصطحبًا معه اثنين من الأسرى . فقد كانوا يريدون أن يظهروا رغبتهم الشديدة فى إعلان الحرب على المسلمين . وبعد عودتهم يعاقبهم القائد لأنهم خرجوا بدون إذن منه فيصرح لهم ببيع ما استولوا عليه ويتقاسموا ثمنه فيما بينهم.

وفى أول هجمة يقوم بها أرتور رودريجيس استطاع أن يستولى على اثنين من الكشافين مع فرس، ارتد أحدهم إلى المسيحية وفى الحال اكتسب ثقة القائد الذى شعر بالغيرة الشديدة منه . ودعاه الكونت - الذى يتفهم جيداً نفسيته - إلى مائدته مراعاة له- إلا أنه انتظر أن تهدأ نفسه شيئًا ليرسله إلى بيناجورفاتى Benagorfate مع ثلاثين فارسًا . ويعود هؤلاء بغنائم يستحقون عليها تهنئة الكونت وهى : أربعة مسلمين ، فتاة مسلمة جميلة جداً، ٥٠ رأسًا من الأبقار و٣٠٠ رأس من الماشية الصغيرة.

ويضيف برنانردو رودريجيس أنه عندما رزق بأطفال وتعلق بزوجته وأولاده كان ذلك يؤكد الثقة التى يولون إياها ويدل أيضًا على ولائه، حتى أنه عندما كان يتوجه فى طلعات مع بعض الرجال من أصيلا Arzila كانوا يشعرون معه بالأمان(١٤).

إن زواجه من فتاة مسيحية يعد مرحلة أخيرة فى اندماجه فى المجتمع وتأكيداً على تمسكه بدينه الجديد. فجونثالو فاث وديبجو دى سيلفيرا قد دخلا إلى الساحة التى لم يبلغها آخرون إلا فى مراحل متأخرة، حيث أنهما قد تحولا عن دينهما مع زوجتيهما، والثانى مع ابنه. وعندما أصيب جون كوتينهو إصابة خطيرة فى إحدى الحملات ثم شفى منها بفضل ضخامة جسمه ، زوجه القائد من ماريا دياث أرملة جونثالو فاث . أما أنطونيو كوتينهو فقد تزوج من ابنة لويس فاث جاياو . وبتزويجه ابنيه بالمعمودية يكون القائد قد أوفى إحدى التزاماته تجاههما. وجميع الموريسكيين لايتزوجون من فتيات تنصرن حديثًا . فجورج كوتينهو الذى جئ به إلى البرتغال قد تزوج فى لشبونة من بائعة فى المدينة . وألفارو رودريجيس - أو ذو الزسنان الكبيرة Dentudo- تزوج من ابنة ترزى تدعى بلشيور لوبيث داكوراثا وجون دو

سيلفيرا تزوج من أرملة برتغالية، وهو ما لم يتم مع ذلك الإبقاء عليه. ولقد رأينا من قبل كيف أن انريكى دى نورنها فى أزمور Azemmour قد تحول عن دينه وتزوج وقمت أيضًا مساعدته - مثل غالبية المرتدين عن دينهم- فى إعداد منزل ليستقر فيه. فقد كان يقدم لهؤلاء منزل ومبالغ نقدية وملابس حتى إذا ما استقروا ارتبطو بهؤلاء الذين قدموا لهم هذه المزايا وأخذوا يدافعون عن النظام الاجتماعى الذى يمثلونه . لأن يتزوج الموريسكى ويكون له أطفال فذلك يضمن للبرتغاليين ولاءه . فالكونت دى بوريا كان قد أرسل- أثناء حصار المدينة فى عام ١٥٠٨- مع سباحين خطابًا إلى سفينة الانقاذ التى كانت قد وصلت لتوها وترددت فى التدخل ، ظنًا أن المدينة واقعة تحت سيطرة السلطان الوطاسى Wattaside. ولهذه المهمة اختار اثنين من الموريسكيين كلاهما متزوج وله أولاد . وهذه الإشارة التى ذكرها برناردو رودريجيس لها دلالة كبرى، حيث أنه كانت هناك عدم ثقة - مثل الجانب المسلم- تجاه الأشخاص غير المتزوجين الذين قد يتسببوا فى كثير من الأضرار[١٥].

ولكن الوضع تحت الاختبار يتوقف أحيانًا بلا نتيجة . فأحد الأسرى الذين جاء بهم دييجو دو سيلفيرا كان قد أعلن رغبته فى التنصر وأنه سيقدم بعض المنازل فى قبيلة بن عمار Ben-amares . وكانت نتيجة الحملة لا شئ، وطلب منه الكونت أن يجازف بشكل أكبر . وكان تصرف هذا الرجل مشكوكًا فيه هذه المرة حتى أنهم أعادوه تحت حراسة مشددة . ولكن بدلاً من وضعه فى الحديد فقد حاول القائد أن يكسبه مرة أخرى بالكلمات الطيبة أو بإثبات حسن النية. ولكن باءت كل هذه الوسائل بالفشل إذ انتهى به الأمر إلى الفرار . وكان حارس جسر أسيراً لدى برناردو رودريجيس قد أعلن رغبته فى التنصر. ولما كان حاسداً لدييجو دوسيلفيرا ، فقد طلب من مولاه أن يقترح على الكابتن أن يستولى على أصدقائه القدامى ثم على قرية بالقرب من القصر الكبير. وبعد أن تشاور معه أنطونيو دو سيلفيرا فى حديقة الدكتور طلب منه سحب خنجره وأعطاه إلى الدايل I'adail الذى عهد إليه بخمس وعشرين فارسًا للقضاء على مركزى حراسة. وعند العودة من هذا الهجوم أبدى الجميع رضاهم إلا أن الهجوم على القرية الذى كان يقترحه كان فيه مخاطرة كبيرة حتى أن برناردو رودريجيس كان يشك فى أنه يمهد لهزيمة برتغالية ترفع من قدره لدى المسلمين . وكانت تلك هى الفكرة التى رفضت نفسها عندما فر مع أحد الحراس الذين قدموا هدية لمولاه كمكافأة مع أسيرة موريسكية شعر المؤرخ تجاهها بالأسف بسبب صفاتها وقيمتها المادية- أكثر من مائة مسكوكة. وكان الهارب يريد فى واقع الأمر أن يصطحب أحداً ليدفع ثمن ما كان قد فعله.

http://al-maktabeh.com

إن أفضل وسيلة لأن نغفر لأنفسنا عندما نخون الإيمان، ونساعد العدو تبدو فى العودة بأسير أو عدد من الأسرى، أو أن نسمح لأنفسنا بأن نفعل ذلك. فعلى سبيل المثال فاسكو دى سيلفا ، ومانويل كوتينهو اللذين كلفا فى عام ١٥٠٨ بالذهاب مع إثنين موريسكيين آخرين وآخر مسيحى إلى أحد الكشافين للحصول على معلومات حول خط سير الجيش الوطاسى Wattaside، وقد قتلا الرجلين الأولين وأسرا الثالث. هذان الرجلان اللذان أسر كل منهما وساعد على أسر أكثر من مائة شخص من أهلهما وأصحابهما قد غفر لهما ذلك أن أسرا شخصًا مسيحيًا واحداً وقاما بتسليمه ، ذكر ذلك بكل مرارة برناردو رودريجيس . كما أن هروب الأسيرات الموريسكيات من الكونتيسة دى بوربا فى آخر ليلة من أيام الصيام فى عام ١٥١٦، بينما كانت قوات سلطان فاس مازالت تقيم فى معسكراتها بالقرب من المدينة، قد أثار دهشته واستنكاره ويقول : كيف استطاعت هؤلاء الأسيرات الهروب من الأسر وقد كانت فى كنف أكثر الولايات نبلاً ، لتلقى بأنفسهن فى سجن الشيطان باتباعهن شريعة محمد والتنكر للتنصير؟

فالسيدة كاترينا دو سيلفا لم تكن تعاملهن كخادمات لها بل كبناتها. وقد جعلت من إحداهن وصيفة لها ومن الأخرى مربية لبناتها ومن الثالثة مربية لإبنها .كما أصيب سكان أصيلا Arzila بالدهشة والاستنكار مثل المؤرخ تمامًا ، إلا أنهم قد انبهروا بشجاعتهن إذ أنهن قد عقدن حبلاً فى نوافذ القصر الذى يطل على الحصون حتى وصلن إلى الشاطئ حيث كان فى انتظارهن بعض الفرسان .ولما أخذت هذه النساء إلى المعسكر الملكى وكن يرتدين زى برتغاليات من أسر عريقة، بلغ أسماعهن أن العاهل لم يأت إلى أصيلا Arzila إلا بهدف تخليصهن من أيدى المسيحيين، وأنه كان ينوى- إذا أردن- أن يصحبهن إلى قصره فى فاس. وكن يفضلن العودة إلى أسرهن، إلا أن جمالهن والسلوكيات التى تعلمنها قد شغفت بوضوح السلطان وحاشيته من ذوى السلطة حتى أنهم قاموا بتوزيع النساء بينهم ليزدان بذلك الحريم لديهم. وعلى عكس ما كان يحدث مع الرجال المرتدين إلى المسيحية، لم تكن هذه النساء فى حاجة لأن تثبت بالدليل الملموس قطيعتها التامة مع المسيحيين . هل لأنهن- قانونًا- قاصرات أو لأنهن لم يرتكبن أى عنف ضد المسلمين مقارنة بما يطالب به البرتغاليون الرجال فى حالة ارتدادهم عن الدين الإسلامى؟ على أى حال فإن الرجل المسلم يستطيع وفقًا للشريعة أن يتزوج مسيحية أو بالأحرى أن يتخذها خليلة. ونحن نعلم القيمة التى تعلق على التربية الجيدة للأسيرات اللاتى يشترين من أجل اللذة، كما أن إحساسهن بالغربة قد زاد بالتأكيد من جاذبيتهن.

ومن الأسرى أو الأسيرات من يبدو عليه الثقة التامة إلا أنه يصيبه إحساس ورغبة لا تقهر فى العودة إلى أهله ، وخاصة إذا أثار هذا الأمر- كما هو الحال هنا- Alfaqueque سلطان فاس المحرك الأساسى للمؤامرة . فبعض العلوج elches كانوا قد قرروا أيضًا العودة إلى من كانوا قد تركوهم وخانوهم، ففى عام ١٥٢٥ كان جندى مسلح بقذافة من سانتا كروث قد توجه إلى معسكر المسلمين ، قد ارتد عن دينه وكان يصنع لهم السلاح، وبينما كان ضمن فرقة تقوم بهجوم ضد البرتغاليين هرب منهم وتوجه إلى القائد أنطونيو ليتاو دى جامبوا Antonio Lei-tao de Gamboa لينبهه إلى الخطر الذى يحدق به. هل من المحتمل أن يكون قد تراجع أمام العملية التى كانت ستتسبب فى إزهاق أرواح بعض من كانوا من رفاقه القدامى؟ وإذا عاد بهذه الطريقة فإنه يكون واثقًا من العفو عنه وإعادة قبوله فى داخل مجتمعه القديم . كما أن أحد القواد فى عملية هجوم ضد سفينة امبراطورية فى قادش كان قد استطاع الوصول بها إلى تطوان وتسليم الأدميرال بورتواندو وبعض أعضاء ملاحى السفينة إلى مولاى إبراهيم، كان هذا قد أعلن اعتناقه للإسلام . وذات مرة أبحر على ظهر سفينة قرصنة كانت تجول بالقرب من أصيلا Arzila وانبطح أرضًا- وكان الوقت ليلاً- مع ثلاثة رجال: إثنين من المسلمين ومسيحى واحد ، بحجة التعرف على البواخر الراسية فى الميناء . وتحت أسوار المدينة قام هذا المرتد - بمساعدة المسيحى- بتجريد رفيقيه من أسلحتهما ونادى لكى يفتح لهم الباب. فاستقبله القائد خير استقبال ومنذ اليوم التالى كان تابع العلوج elche قد رد إلى الحياة مع المسيحيين . وفى نفس هذه المناسبة كان دييجو أداو القشتالى الذى كان محكومًا عليه بالأشغال الشاقة والذى كان قد قطع له جزء من لسانه لإقدامه على السب والإلحاد قد غير اسمه وأطلق على نفسه فرانثيسكو دو سيلفيرا ، كما لو كان يريد بذلك أن يمحو ماضيًا ثقيلاً ويبدأ حياة جديدة.

كانت السلطات فى المعسكرين تعفو بسهولة عمن يريد العودة إلى دينه السابق، إلا فى حالة أسير أو أسيرين ممن تسببوا فى أسر العشرات. وهذا اللين قد فرضه واقع سياسى، وهو بعيد كل البعد عن اتشدد والتشبث المتوقع فى مثل هذه الأوضاع فى حرب تعتبر كحرب دينية ومواجهة بين أيديولوجيات متعارضة.

كنا نود معرفة مشاعر هؤلاء المرتدين عن دينهم فهم أفراد يتجاذبهم عالمان ويقعان فريسة للتردد والاضطراب . فقد حدث أن نزل حارس من فاس إلى مدينة أصيلا Arzila فى الوقت الذى كان الطاعون متفشيًا فى البلاد ، لذلك فد اضطر إلى قضاء عدة أيام بصحبة كثير من البرتغاليين خارج المدينة . ولما كان عاطلاً وخائب الظن فى الغالب برغم المعروف الذى قدمه له

فرانثيسكو جونثاليث وهو تاجر، كان هذا الحارس قد استأمنه على فكرة مشروع ارتداده، فقد سعى علنًا لتحقيق فكرته والعودة إلى ذويه . وبينما كان رفاقه يرقدون القيلولة فى ظل الحصون، خطف فرس التاجر وفر به . وتمت ملاحقته وألقى القبض عليه وسيق مكبلاً إلى السجن بينما رفاقه سمح لهم بالدخول إلى المدينة. وهناك لم يكف عن المطالبة بالسماح له بأن يؤخذ إلى الكنيسة لتعميده حتى أذن له ذلك فى النهاية . وبعد أن أطلق على نفسه اسم جون كوتينهو، ظل لفترة أخرى مكبلاً بالحديد فى رجليه فى خدمة الكونت الذى تأثر تأثراً كثيراً بصبره ومثابرته ، فأطلق سراحه وعهد إليه بسلاح، كانت سعادته به شديدة إذ أنه أصبح أحد الجنود الممتازين فى المدينة. ويذكر لنا رودريجيس على سبيل المثال قصة هذا المسلم الذى كان لديه إيمان شديد بالله- برغم الحديد الذى كان مكبلاً به- وكان يردد أنه يفضل أن يكون مسيحيًا أسيراً عن أن يكون مسلمًا حراً . ويبدو أنه فى البداية- مدفوعًا بالرغبة فى المغامرة والتعطش للكسب- كان يريد أن ينتهز الفرصة التى أتيحت له وأهمل فكرة أن يكون مسيحيًا . وإزاء فشله تعلق بفكرة الارتداد عن الدين الإسلامى إلى المسيحية لما يمثله له ذلك من أنه الوسيلة الوحيدة للهروب من حالة الأسر. وقد تحرر وكان بإمكانه الهروب كما كان يقول ذلك أبناء المدينة، وظل يتصرف بكل الوفاء تجاه رفقائه الجدد فى الدين.

هل كان يفضل هذه الحياة ؟ هل كان يرى أن عودته إلى الإسلام مستحيلة؟ هل كان يتصور نفسه مرتبطًا بالاعتراف ؟

إيناس التى لقبت باسم سويسا Soica ، أسِرت وهى طفلة ، وجئ بها إلى أصيلا Arzila وارتدت إلى المسيحية. وقد أسرت وهى فى البحر مع مولاتها بواسطة قراصنة مسلمين وأعادوها إلى أسرتها . ووجدت لدى بنى عروس الوجود الذى يشبه بقاءها عند ذويها . وتزوجت وعوملت كمسلمة شبيهة بالأخريات من المسلمات . وفى عام ١٥٢١ أثناء القحط كانت تجرى فى الحقول مع نساء القرية بحثًا عن أى نباتات تؤكل، ثم تركت كل شئ وعادت للظهور فى أصيلا Arzila مسببة دهشة كبرى. وقد تعرف عليها الناس بصعوبة إذ أن الجوع قد غير من شكلها وألقى عليها بظلال من السواد والنحافة. وتوجهت مباشرة إلى كنيسة سيدة الرحمة كمسيحية شديدة التمسك بدينها. ولم تتردد فى الزواج من رجل صالح يعمل إسكافيًا ورزقت منه بابن وبنات . وهذه المرأة الطيبة قد انتقلت هكذا ثلاث مرات من ديانة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر. هل كانت تتمتع بالإخلاص والصدق فى كل المرات المتتالية ، أو هل احتفظت كما يرى برناردو رودريجيس بقوة إيمانها للتعميد والتنصير ؟ يمكننا الاعتقاد أنه كان

بإمكانها البقاء لدى بنى عروس وتعيش على دين الإسلام بنفس الطريقة التى عاشت بها وهى مسيحية فى هذه المدينة عندما دفعها الجوع للعودة إلى المسيحية مرة أخرى .

كم من هؤلاء لم يتخلوا عن عاداتهم القديمة ؟ فى عام ١٥٢٩ كان أنطونيو ليتى، قائد أزمور Azemmour يشكو من كثرة عدد المسيحيين الجدد الموريسكيين الذين يعيشون- كما يقول- على دين محمد «دون أن يحتفظوا بشئ من ديانتنا المقدسة» . وبالرغم من أنهم قد تنصروا بكامل رغبتهم ، إلا أنهم كانوا يطلبون الشريف أو ملك فاس لكى يأتى للبحث عنهم ولأخذهم . وقد فعلوا ذلك من قبل مرتين وفى كل مرة كانت المدينة تصاب بالخسارة. وفى عام ١٥٣٧ كان رئيس المجمع الدينى يشكو للملك من رجال «تناولوا ماء التعميد ويعيشون علنًا مع المسلمين ، وتحت نفس طائلة القانون الذى كانوا عليه من قبل يعيشون بأسمائهم المسلمة».

وبعض اليهود كانوا على نفس الحالة. ولما كان القائد يرفض التصرف فقد كان على الملك أن يرسل محكمة التفتيش لكى تعيد النظام إلى هذه المناطق . إلا أن أحداً لم يأت للتأكد من صدق وقوة إيمان المسيحيين الجدد فى المناطق الأفريقية.

وهناك أيضًا من كان- أحيانًا ليس بدون أى صعوبات أو إغراءات- قد ظل على وفائه للديانة الجديد.جوا دى سوسه Joaa de Sousa ولد فى منزل الكونت دى بوربا وكان يحظى برعايته وعطفه، وقد أضاع وقته وبلاشك خسر كثيراً ، وخوفًا من تأنيب مولاه فقد فر إلى العرائش Larache حيث استقبله القائد استقبالاً رائعًا لأنه من سلالة المسلمين Casta de mouros وصديق حميم للكونت ويتمتع بالشجاعة والإقدام. وما لبث الفتى الطائش أن أعلن توبته. ويقول رودريجيس إنه أخذ يتذكر تربيته وإيمانه، والمعروف والفضل الذى قدمه له الكونت وكذلك الذى قدمته له زوجته الشابة التى تركها فى منزل والدته الأرملة. وفى لقائه مع أهل تاجر قادم من أصيلا Arzila توسل إليه أن يقول للقائد إنه كان يخشى غضبه ولكنه يريد العودة عندما توجه إليه زشد العقوبة ويعمل على أن يأتى بمجموعة منAlmogaraves أو حتى القائد كوسيلة أكيدة للعفو عنه . واستطاع أن يجذبه إلى أصيلا Arzila ولكن لما كان مع حرسه فلم يمكن الإيقاع به. وهرب جوا دى سوسه عندئذ ثم عاد للظهور مرة أخرى فى أصيلا Arzila فى يوم الخميس المقدس ، وتوجه إلى كنيسة ساو بارتولوميه Sao Barto-lome ليرتمى على أقدام كونت دى بوربا de Borba الذى عفا عنه . وبعد عدة سنوات وقع حادث مشابه . يروى قائد أصيلا Arzila أنه قد منح موريسكيا من كونت دى ريدوندو de Redondo تصريح أمان . وكان على هذا الموريسكى الذى جاء فراراً من المسلمين أن يمثل

أمام الملك حيث أوصى به القائد هناك «رجل من طرف قائد القصر» هه الصفة الأخيرة جاءت بالفعل فى صالحه .

وهناك اثنتان من الموريسكيات أبدتا موقفًا أكثر تشدداً من هذين الرجلين المتقلبين. فقد رفضتا الفرصة بالعودة إلى أهلهما وأدانتا الذين مهدوا لهروبهما وأعدوا له .كما أن إينيس دو سوفيرال Ines do Soveral قد كشفت لقائد أصيلا Arzila المؤامرة التى دبرها على الروندیلو Ali al- Rundilo لمساعدة زوجته وبناته الأسيرات- فى نفس المنزل معها- على الهروب بالرغم من أنه قد عرض عليها الهروب معهن إذا هى حبست مولاتها. فأعد العدة لانتظارهن مع خمسين فارسًا بالقرب من الحصون. وإذا كانت هذه الفرقة قد تمكنت من تجنب الفخ الذى نصب لها للإيقاع بهم ، فإن الكونت الوفى للوعد الذى أخذه على نفسه لهذه المرأة قد تجوز الفخ بعد أن دفع ٢٥٠٠٠ مسكوكة reis وبعد ذلك بقليل حذرت خيرونيما لوبيث Jeronima Lopez أيضًا من أن والدها يخطط لكى يأخذها من نفس المكان . فألقى القبض عليه وقتل رفيقاه. وتم تسليم هذا الرجل وفرسه إلى إبنته وأكد له القائد أنه لايستطيع الرحيل حراً فى اليوم التالى بعد أن قضى ليلة فى المنزل الذى توجد فيه ابنته . وبعد أن اكتشف مدى وسبب كراهية ابنته له لأنها مسيحية، صرح فى ألم بأنه كان يفضل الموت أو الأسر مدى الحياة عن أن يفقد ابنته بهذه الطريقة.

وتمر علينا حالات ارتداد تكشف عن شخصيات مضطربة . ديوجو فرناندیس Diogo Fernandes حارس مامورا la matmora حيث يضع الكونت دى ريدوندو de Redondo أسراه طوال الليل- كان مظهره الخارجى يدل على أنه رجل ورع. ومع ذلك فصداقته لأحد الأسرى ويدعى عمر كيركى Monar Querqui قد دفعته لأن يقترح عليه أن يساعده على الهرب وهو ما كان قد حاوله من قبل ولم يفلح فيه . ولإحساسه بعدم الثقة وخوفًا من أن يكون قد نصب له فخ ، فقد سأل الحارس عن الأسباب التى دفعته لذلك . فقال: فضلاً عن الصداقة فإن لديه الرغبة فى أن يتوجه سيراً على الأقدام إلى القدس ليعيش هناك كراهب. واستغل الحارس الثقة وقام بمساعدة أحد عشر أسيراً على الهرب ثم لحق بهم. وعاش فى فاس فترة من الوقت بدخل بسيط وهو على ديانته المسيحية، ثم تحول إلى الدين الإسلامى وأطلق على نفسه اسم سليمان. إلا أنه كان يبحث أيضًا عن رفاقه من الأسرى والتجار ، وعندما يأتى باستيادى فارجاس Bastio de Vergas المكلف من الملك بالتفاوض بشأن شراء القمح. وجاء إلى فاس ، عمل سليمان فى خدمته،ومنحه الفيتور le feitor الأمان والتأكيد على العفو، إلا أنه لم

يجرؤ على العودة إلى البرتغال ما دام يشعر بالخجل. ومات بين أسرى السلطان المسيحيين وهو يعترف بالإيمان بالسيد المسيح، وذلك وفقا لرواية برناردو رودريجيس Bernardo Rodrigues .

كثير من الموريسكيين دفعوا حياتهم ثمنًا لارتدادهم إلى الدين الآخر، مثل بيرو دى مينيسيس pero de Menses الذى قتل فى معركة عام ١٥٢٣ بعد أن أبطل عدة كمائن وتحدى القادة qa'ids المتحمسين لهزيمته . وجواو كوتينهو Joaso Coutinho الذى عقدت عليه آمال كبيرة ، لم تطل حياته كثيراً، إذ قتل فى سباق أثناء عرض للكابانيس Capanes يصل إلى جبل بنى جورفات Bani Gurfat . كما سقط أرتور رودريجيس Artur Rodrigues على ساحة المعركة . وهؤلاء يمكننا أن نقول عنهم إنهم قد تحملوا مخاطر التزامهم، وأنه لاشئ يميز مقتلهم عن مقتل رفقائهم المسيحيين القدامى البرتغاليين إلا أن كل حالة وفاة كانت تنشر البهجة فى صفوف المسلمين . وبعض المسيحيين الجدد قتلوا ، فكانوا بذلك شهداء فى سبيل العقيدة . وقد تحدث برناردو رودريجيس Benrardo Rodrigues كثيراً عن نهاية جونثالو فاث Goncalo vaz. فقد كان المسلمون يكرهونه فيما يبدو بسبب التصرفات أو عمليات الابتزاز التى قام بها منذ أن كان مسيحيًا والتى استحق عليها مدح البرتغاليين له .، أكثر من كرههم له بسبب ارتداده. وقد كان يدرك تمامًا كيف سيكون مصيره إذا وقع بين أيدى منافسيه . ويروى شاهد على موته أنه سمعه يقول إنه كان يفضل أن يغرق أو أن يقتل نفسه بالسيف- وكان متقبلاً للعذاب- أكثر من الموت حزنًا وخوفًا من العذاب. فإن ما تحمله طوال يومين وليلتين كان فظيعًا. ففى تطوان حيث كان يحكم الغرناطى المندارى LeGrenadin Al- Mandari الذى كان يعد أشد الناس عداوة للمسيحيين ، سيق به أمام جماهير غفيرة لتشهد عذابه وقد أضناه الألم ، ورفاقه يتوسلون إليه أن يعلن ارتداده عن الدين المسيحى، فيرفض طلبهم ويسبهم ويلعن الإسلام ويصيح بأنه سيموت من أجل المسيح وأمه السيدة مريم . أما أخوه جواو Joao الذى ألقى القبض عليه بعد ذلك بعدة سنوات فلم ينج من التعذيب برغم جهود قائد أصيلا Arzila وقوة إرادة مولاى إبراهيم الذى كان يؤكد أنه لو لم يكن الأمر متوقفًا عليه وحده، لكان طلب الكونت دى ريديوندو de Redondo قد حاز رضاه . إلا أن الأسرى كانوا بين أيدى الـ Cacizes ، والسلطات الدينية، ومما لاشك فيه أيضًا القضاة الذين عهد إليهم السلطان بالأمر . وتأخذ القضية مجراها حتى تصل إلي النهاية فيه أيضًا القضاة الذين عهد إليهم السلطان بالأمر. وتأخذ القضية مجراها حتى تصل إلى النهاية المحتومة. فلا الأدلة على السن الصغيرة التى ارتد فيها ، ولا السعر المرتفع جداً الذى

عرض من أجل تحريره قد أتيا بأى نتائج . فإن ذكرى شقيقه ، والقساوة التى تولدت لديه بعد موته قد خلقت لديه كراهية لايستطيع أن يطفئها إلا موت مثالى . فبعد أن غطى بالكتان ودهن بالقطران ألقى به فى النار حيًا وهو فى الخامسة والعشرين من عمره، فى وجود اثنين من الأسرى البرتغاليين من أصيلا Arzila كان قد أكد لهما أنه سيموت مسيحيًا، وبعد أن دفع أمه وأسرته وهو يصيح فيهم بأنه ليس له والدان إلا المسيح عيسى والسيدة مريم القديسة. وأن أمه الحقيقية هى ماريا دياث Maria Diaz زوجة أخيه التى قامت بتربيته . ومهما كانت الرغبة لدى برناردو رودريجيس Benardo Rodrigus فى تصوير نموذج صالح وتقديم موتهما فى كتب سير القديسين بشكل رائع ، فإنه يبقى أمر واحد : ألم يعدل هؤلاء الرجال عن رأيهم تحت ضغط العذاب وأمام فزع الموت. هل يعتقدون أن الكراهية تجاههم كانت قوية لدرجة أن تنكرهم للدين فى النهاية لن يؤدى إلى إنقاذهم ولن يؤدى إلا إلى وصمهم بعار الخيانة والجبن؟ ألفارو رودريجيس Alvaro Rodrigus أو من أطلق عليه Dentudo (ذو الأسنان الكبيرة) واثنان موريسكيان آخران من أصيلا Arzila كانا قد أسرا فى عام ١٥٢٣ وأخذا إلى قائد العـــرائش qa'id de Larache ونفذ فيهم حكم الإعدام بنفس الطريقة (شدة التعذيب والاستشهاد) وماتوا أيضًا على ديانتهم المسيحية . فهؤلاء الرجال الذين كانوا ضحية والذين عايشوا فى حياتهم حالات قتل وعنف قد اكتسبوا بموتهم مجد الشهادة التى يحسدهم عليها مؤرخ أصيلا Arzila .

إن أى موريسكى مهما قل الدور الذى قام به ضد المسلمين، وجميعهم أو غالبيتهم قد فعلوا ذلك، لاينبغى أن يأمل- إلا أن تكون خيانة اقترفها البرتغاليون- فى أى عفو ما دام عدد الذين لهم آباء وأصدقاء يثأرون لهم كبيراً. والمقدمون almocadens الموريسكيـــون المعترف بهم فى البلاد يسبهم جيرانهم السابقون ويهددونهم بيرو دى مينسيس pero de Menses يناديه أحد المقدمين بالقصر الكبير باسمه الأول ويقول : «آه ! ابن عروس ! ها قد جاء اليوم الذى تدفع فيه ثمن كل الضرر الذى سببته لبلدك ! أميليكس amelix ، واحد من أفضل المقدمين المسلمين، صاح عند لقائه (ارتور رودريجيس : يا أيها المرتد! نحن الاثنين نحارب ونواجه المخاطر ، أما أنا فأحارب كفارس شريف ، لأنى أحارب من أجل دينى وملكى وأهلى وأرضى، وأما أنت فإنك عدوهم ...» إن خيانة الأهل ومحاربتهم وإحداث الضرر لهم، كل هذا يمكن أن نلمسه بوضوح كما نلمس أيضًا إهمال الدين الإسلامى والتخلى عنه، على الأقل فى المواقف والخطط اتجاه الموريسكيين نجد أن التمييز بين هذين المظهرين يبدو شاقًا ، هل لهذا معنى ما ؟؟

إن عقوبة الموت تطبق بشكل مبدئى على هؤلاء الذين يتركون الدين الإسلامى. ولكن غالبًا ما يتم بحث الأمر ، حيث أن هذه الأمور يدرسها عسكريون وسياسيون لهم وجهة نظر عملية قبل أى شئ، كما أنهم يهدفون الفعالية فى الأمور كلها ومن الجانب البرتغالى يتم نفس الأمر. ففى عام ١٥١٣، فى أزمور Azemmour لم يستطع جواو دى مينيسيس Joao de Menezes أن يتخذ أى عقوبة ضد أسير باستياو لوبيس Bastiao Lopez الذى أسر من المسلمين . ورأى أن من الأفضل رده إلى مولاه . وإذا كان يعلن أنه يريد أن يكون مسيحيًا فإنه يستطيع أن يكون كذلك حقيقة. وعلى أي حال فإن القائد لن يفعل شيئًا بدون رأى الملك . وفى عام ١٥٢٦ كان بعض الموريسكيين قد عادوا إلى الإسلام فتم بيعهم فى آسفى Safi كعبيد بدلاً من الحكم بإعدامهم بناء على حكم القضاء . وكان السكان الذين أخذ رأيهم قد اختاروا هذا الحل . ومبلغ ال ١١٠٠٠٠ مسكوكة reis وهى حصيلة بيعهم كانت ستستخدم فى أعمال الخير، فقد كان القائد يعتزم توزيعهم على المحتاجين فى المدينة. فالموت هو العقوبة المخصصة للمرتدين ، وهو ما يبدو متفقًا مع ذلك ففى آسفى Safi قد فضلوا حلاً تفرضه الضرورة . فالشدة القاسية والدموية ضد الخائنين ليست حتمية ما دام مصيرهم بين أيدى رجال نشطين وواقعيين.

وفى مناخ الحروب المقدسة (الحروب الصليبية أو الجهاد) يرى كل معسكر أن ما يقوم به هو الأمر المثالى بينما يعتبر أن ما يقوم به المعسكر الآخر هو البربرية والتعصب . والتحول إلى الدين الذى يرى أفراد معسكره أنه خيانة عظمى له كل التقدير فى المعسكر الآخر. ويسير كتاب Las amais إلى أى مدى يقدِّر الموريسكيون المرتدون ويحترمون ويمجدون من قبل السلطات وأفراد الشعب ما دامت سلوكياتهم تدل على أنهم قد قطعوا الصلة تمامًا بمعتقداتهم السابقة. ورغم ذلك فإن مديح برناردو روروديجيس Bernardo Rodrigues واهتمامات القادة Capitaines تبدو كما لو كانت متصنعة بعض الشئ، أليس هذا- على الأقل جزئيًا - متكلفًا ؟ وكان أطفال المدينة- أكثر حرية فى التعبير عن مشاعرهم - يلاحقون جواو كوتينهو joao Coutinho - الحارس الذى جاء من فاس ويضايقونه بصرخاتهم ويقولون له- سوف نعود! ثقة منهم فى أن مثابرته وعزمه سوف يفتر من جديد ويتذمر بعض المحاربين عندما يأمر المقدم almocadem - خاصة إذا كان حديث العهد بهذا المجال - بالتأهب لعملية الخير الوفير من ورائها [١٦]. فبعض هؤلاء القادة capitaines تغلف مواقفهم بعض القيود والغموض . ولاننده إذا أبدوا حذراً شديداً تجاه من يطلبون التعميد ولايمنحونهم ثقتهم الكاملة إلا بشكل استثنائى . فخشيتهم من أن ينصب لهم فخ لا تأتى من فراغ. فعلى سبيل المثال جاء أحد

العلج Oulof يعلن رغبته فى التنصر فى سانتا كروث فشارك فى مؤامرة تهدف لقتل القائد سيماو جونكلافيس داكوستا Simao Gonclaves da Costa ليفتح بذلك الباب لاقتحام الشـــريف (Sarif) . ولعدم ثقتهم فى جدية مواقف الموريسكيين الذين جاءوا يقدمون لهم خدماتهم فإنهم يدفعونهم للإرتباط بأمر ما قبل أن تصبح عودتهم مستحيلة ، محاولين إدخالهم بطريقة قوية إلى وسط يلزمهم بالبقاء مثل الزواج وتكوين حياة أسرية والبحث عن مكاسب ترتبط بشكل مباشر بإمكانياتهم وقدراتهم. ومن الصعب أن نعرف إن كانوا يعتبرون المهمة ناجحة بشكل نهائى، إذ يبدو أنهم نادراً ما يوقفون اهتمامهم الذى يعد بمثابة مراقبة أكثر منه مساعدة نفسية.

والموريسكيون يبدو أن لهم غالبًا حياة نفسية ضعيفة لأنهم بالتأكيد يشعرون بالارتباك . فهم رجال ينبغى إبداء التقدير والاعتراف لهم، حيث أنهم يدركون أهمية دورهم الرئيسى فى هذه المعارك وهم فى أشد الحاجة إلى التقدير بل حتى إلى المودة . يقول برناردو رودريجيس أن ديوجو دو سيلفيرا Diogo do Silveira كان يود دائمًا أن يشعر بحب وتقدير الجميع له .كما أن أرتور رودريجيس عندما أحس أن نجمه يأفل عند القائد بسبب مجئ شخص جديد كان رد فعله يدعو إلى القلق.

رقد شكلوا فريقًا يتميز عن باقى السكان الآخرين وإن لم يتفرق تمامًا عنهم. وكان لديهم ميل واضح إلى الزواج الجسدى حتى أن بعضهم تزوج برتغاليات وأن بعض الموريسكيات تزوجن من برتغاليين وكانوا يتلاقون فيما بينهم ويتشاركون فى بعض العمليات ، وقد أبقوا على الصلات التى تربطهم بالدولة التى جاءوا منها : مثل الروابط الأسرية أحيانًا. وكل هذا قد أثار الشكوك أو بعض الغيرة بسبب نسق الحياة لدى البعض منهم. ولكن إذا تواجدوا فإنهم يختفون أو يصمتون لأن البرتغاليين يدركون إلى أى مدى هم يخضعون لمعرفة المقدمين alomocadens الموريكسيين كمرشدين ومخبرين ومترجمين . ومن بين المهام الأخرى التى يقدرها القائد، فإن ديوجو دو سيليفرا Diogo do Silveira يحدد الأسرى القادرين على دفع الجزية العالية مما يسمح بشرائهم أو إدخالهم إلى المكان الذى يخصه وأدرك البرتغاليون أن من الخطورة خلق نوع من الريبة والحذر قد تثير لدى الناس ردود أفعال غير متوقعة . وكان القائد يضرب الأمثلة ولايكف عن إظهار علامات الاهتمام للموريسكيين . فكان يترك البعض يشاركون موالى ذوى مراتب عالية يعملون كجنود حراسة fronteiros على مائدته ، كما كان يبدو كريمًا ولطيفًا أيضًا . كانت تنقصه المهارة حتى لايجرح أحدهم بما يبدو أنه تفضيل للآخر.

كما كان ينبغى أحيانًا تهدئة شعور الغيرة المتولدة لدى البرتغاليين وهم المسيحيون القدامى، بتذكيرهم بما يجب عليهم تجاه هؤلاء المرتدين . فضلاً عن ذلك فإن عدداً كبيراً من ال -mara dores يحاولون بمساعيهم الطيبة لكى يشاركوا فى الحملات التى يقودونها والتى تعتبر مصدراً لفوائد جمة. فهل تستطيع آلة الحرب البرتغالية أن تدور بدونهم؟ ستقل كفاءتها بشكل واضح، كان الجميع واثقين من ذلك. إن ارتداد ديوجو دو سيلفيرا هو الذى سمح بأن تعود من جديد حملات السطو فى أصيلا Arzila عقب الكارثة التى حلت فى عام ١٥٢٣ ، وكان مجيئه مباركًا حيث أن طوال سنوات تواجده قد أخذ سبعمائة من رجال ونساء وأطفال المسلمين.

ويبدو- والحق يقال- أن حالات الارتداد إلى الدين الآخر كان لها كل التقدير أثناء الحرب، ومن هنا كان لايمكن الاستغناء عنهم فى أصيلا Arzila حيث أنه لم يكن هناك mouros de pazes ومسلمين حلفاء قادرين على تقديم خدمة مشابهة . وبالتأكيد كان الأمر مختلفًا تمامًا فى آسفى Safi وأزمور Azemmour حيث كانت قبائل بأكملها تعمل فى خدمة المسيحيين. ولهذا كان أنطونيو ليتى Antonio Leite قد اقترح فى عام ١٥٢٩- لكى يقضى على المضايقات التى يسببها له موريسكيون من ازمور Azemmour- أن يرسلهم مع زوجاتهم وأولادهم إلى جزر غير آهلة لكى يعمروها . أو إذا أرسلوا إلى أراض مأهولة من قبل أن يقدم له المكان الذى يستطيعون العيش فيه وتعلم العقيدة المسيحية ما داموا مسيحيين . إلا أنهم لم يتصرفوا كما ينبغى، وأخذوا كل يوم يدبرون المكائد للخروج من المدينة .كما ينبغى أيضًا أن تقول إن تلك كانت مرحلة تقهقر عسكرى وارتباك برتغالى، وأنه فى حالة ما إذا كان هؤلاء المرتدون لايدفعهم سوى الرغبة فى عدم الموت جوعًا، لايشعرون بالأمان تجاه المستقبل ولايبدون التزامًا كما هو الحال لدى موريسكيى أصيلا Arzila . فليست لديهم نفس الأسباب لأن يتمسكوا بمعتقداتهم الجديدة لسيماو كورييا Simao Correa لم يحث بشكل متفائل على الثقة التى ينبغى أن تسود ، خاصة أن خلفاءه لم ينجحوا بسبب شكوكهم فى مجال بيع البشر. أخيراً فإن لدينا انطباع بأن نسبة المسيحيين الجدد وغير المسيحيين كانت عالية فى هذه المدينة حيث كان ينبغى جذب السكان إليها دون أن يكونوا حريصين بشكل زائد لأن المتقدمين لم يكونوا بأعداد كبيرة بسبب مساوئ المكان مما كان يسبب ردود أفعال تشوبها عدم ثقة وخوف من مسئولية الدفاع .

والأوضاع بالتأكيد تختلف وفقًا للمواقع فى أفريقيا إذ أنه ليست لدينا معلومات إلا عن أصيلا Arzila حيث أنه من الصعب مع ذلك أن نضع تقديراً عقلانيًا لعدد الموريسكيين ولنسبتهم إلى أفراد الشعب. يذكر لنا برناردو رودريجيس خلال الفترة من عام ١٥٠٨ إلى ١٥٣٢ حوالى خمسين اسمًا منهم. فعلى الرغم من رحيل البعض إلى البرتغال، وهروب وموت البعض الآخر، نعتقد أن عدد المرتدين- بما فيهم الأطفال ومن أهمل ذكرهم- كان يفوق العدد الذى ذكره . فمجموع عدد سكان أصيلا Arzila لم يتجاوز الألف شخص، إذا بلغ هذا الرقم[٢٠]. فالموريسكيون قد شكلوا كحد أقصى نسبة عشر عدد السكان وربما أقل من هذه النسبة وهى نسبة لايمكن تجاهلها. والمعلومات التى لدينا فى سانتا كروث Santa Cruz وآسفى Safi وازمور Azemmour وماثاجان Mazagan وسبته Ceuta ضعيفة جداً حتى أننا نستطيع أن نؤكد فقط وجود مسلمين مرتدين فيها. أما فى البرتغال وشبه الجزيرة الأيبيرية فكان عدد العبيد من أصل مغربى كبيراً، وكثير منهم قد ارتدوا إلى الدين المسيحى والنسبة كبيرة أيضًا فى كناريا Canarias وفى ماديره Madere أيضًا بدون شك[٢١].

ومن ناحية العدد فإن ظاهرة الارتداد إلى المسيحية جديرة بأن تؤخذ فى الاعتبار. وهى لها دلالة ينبغى الاستفسار عنها . وهذه الظاهرة يجب أن تقودنا إلى تمييز الأفكار التى جاءتنا عن صحوة الإسلام فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حيث أنه من الملائم أن نعرف الحدود أو نوضح الظروف التى ظهر من خلالها . فهذه الظاهرة قد تكون تولدت كرد فعل ليس فقط ضد تهديد خارجى ذى صبغة عسكرية أو سياسية، ولكن ضد خطر داخلى ، وهو خطر تفكك المجتمع . وكانت الأزمة تبدو كفقد ثقة تتجسد فى الانتقال إلى المجتمع الآخر، وأقصى ما يمكن الوصول إليه فى هذا الشأن هو الارتداد إلى الدين الآخر، حيث أن المشاركة العسكرية تأتى من Mouros de Pazes ، والسياسية على شكل اتفاقيات الوطاسيين أو هدنة السعديين Sa'diens ، والاقتصادية على هيئة أسواق مثل قيام النبلاء الوطاسيين والسلطان نفسه ببيع القمح ، وكل هذا يتمثل بدرجات متفاوتة.

ومن هذا الاضطراب نستطيع أن نتساءل إذا كان ابن عسكر Ibn Askar فى كتابه دوحة الناشر لايقدم لنا مؤشراً آخر لمدى الانجذاب نحو الإنجيل دون افتراض حركة عمل تبشيرية. فى مكان عند الحدود (tager ثغر) عند القصر الكبير al Qaser- al- Kabir كان عبدالله الوارياجيل Abdallah al- Wayagil الذى توفى فى فاس بين عامى ١٤٩٥-١٥٠٤ يقوم بالتدريس خلال فترة غير محددة فى نهاية القرن الخامس عشر، وحسب الفصول كان يشارك

فى حراسة الحدود ويقدم دروسًا فى المسجد . وفى أحد الأيام وهو فى طريقه إلى هناك تدخل ضد شخص يُدعى برزيز Barziz كان يجذب أنظار الجماهير إلى المقصورة.

«كان يبتهل إلى الله ويدعى أن المسيح ابن مريم. وكان يقوم ببعض الأعمال الغريبة والتى تدعو إلى الدهشة . وكانت موائد مليئة بما لذ وطاب تنزل أمامه ولايعرف أحد مصدرها ...».

ولاشك فى أنه يمكننا أيضًا ربط هذا الإدعاء بفكرة المهدى الحية فى المغرب . ولكن كيف لايمكننا أن نشير- فى مثل هذا المكان القريب من المناطق المسيحية ونظراً لطبيعة «المعجزات» إلى عدوى محتملة ؟ والنصوص الشرعية المغربية «النوازل» Les nawazils تضم أمثلة أخرى من هذا النوع . إذ تضم على كل حال ذكر وجود حالات الارتداد إلى الدين الآخر- فى الجانبين- كما تشير الأسئلة التى وجهت إلى الفقهاء[٢٢].

المراجع

١- لما كانت هذه المراجع برتغالية فقط، فإن مرجعها الأساسى هو كتاب Amais d'Arzila للمؤرخ برناردو رودريجيس Bernardo Rodrigues ، طبعة D. Lopes- الجزء الأول ١٩١٥ ، الجزء الثانى ١٩١٩- لشبونه .

٢- ذكرها Witt فى «القرارات البابوية والتوسع البرتغالى فى القرن الخامس عشر» (مجلة التاريخ الكنسى) الجزء LIII - ١٩٥٨ ، ص٢٦ .

٣- مصادر لم تذكر من قبل من تاريخ المغرب- المجموعة الأولى- السلالة السعدية Saadienne. أنظر فيما بعد SIAM أرشيف ومكتبات أسبانيا . الجزء الأول ١٩٢١- ص٦-٤٠ الوثيقة III - نص لاتينى، III مكرر وترجمة فرنسية ، III ترجمة اسبانية.

٤- عقب غزو الملك الفونسو الخامس لأصيلا Arzila وقع معه محمد سايح Muhammad Sayh اتفاقية يعترف له بموجبها بملكيته لكل من أصيلا Arzila وطنجه Tanger والقصر Alcacer وسيجير Ce-guer وسبته Ceuta وكذلك القرى المجاورة.

٥- P. de Cenival «الكنيسة المسيحية فى مراكش فى القرن ١٣ » Hesperis - الجزء السابع- ١٩٢٧ ، ص٦٩-٨٣ تشير إلى استشهاد رهبان كانوا يريدون التبشير فى هذه المدينة.

٦- Bolorino Barcena R. بضاعة بشرية فى ميناء بلنسية (١٥١٧-١٥٥٧)، رسالة المرحلة الثالثة.

٧- عن هذه المجاعة Rosenberger, B. et Triki «مجاعات وأوبئة فى المغرب فى القرنين السادس عشر والسابع عشر » Hesperis - Tamuda، الجزء ١٤-١٩٧٣، ص١١٧-١١٨ .

٨- Cenival, p. de «تأريخ سانتا كروث ورأس Gue (أغادير) ١٩٣٤ ، ص١٤٤-١٤٥ .

٩- حالة Thimas Pellow بالرغم من مرور قرنين بعد ذلك تعد جديرة بالتصوير والتقديم مرسى -م علاقة Thomas Pellow - ١٩٨٣ ، ص٧٣-٧٤ .

١٠- بن نصار ب- مرتدون ومفتشون (القرن ١٦-١٧) فى مشاكل الطرد فى اسبانيا (القرن ١٦٠١٧) ١٩٨٣ ، ص١٠٥-١١١ .

١١- S.I.H.M البرتغال - الجزء ٣- ١٩٤٨ - وثيقة ٣، ص١٧ ، أمر الصرف لدون جارثيا دى نورونها- آسفى Safi فى ٤ يناير ١٥٣٥ .

١٢- ليس بعيد الاحتمال أن يكون ذلك أثناء إقامته فى إسبانيا، عندما شارك فى حرب غرناطة، ولكن فى المعسكر القشتالى- أنظر جون - ليون الأفريقى «وصف أفريقيا» ترجمة .Apaulard A-

١٩٥٦، ص٢٧١ .

١٣- أنظر جون الأفريقى- وصف ص١٧١ حول أبناء جنوه .Ricard R - المشاركة فى دراسة تجارة جنوه إلى المغرب خلال الفترة البرتغالية ، ١٤١٥-١٥٠٢، ص١١٥-١٤٢ فى دراسات حول تاريخ البرتغاليين فى المغرب ١٩٥٥ .

١٤- Amais- الجزء الأول، ص٢٤٢ . هذه السيدة التى تدعى ليانور روروديجيس Lianor Rodrigus وهو نفس اسم الفتاة التى هربت فى ١٥١٦ - ينبغى ألا نخلط بين الاسمين.

١٥- كما أوضحه جيداً القاضى ابن عبدون .Levi - Provencal E «اشبيلية المسلمة فى بداية القرن ١٢-١٩٤٧ ، ص١٢٠-١٢٢ .

١٦- Amais الجزء الأول ، ص٣٠٤ ، حالات تذمر ضد أرتور رودريجيس فى هجمته الأولى.

١٧- Amais- الجزء الثانى، ص١٣١ ، فرناندو الفونسو- بستانى تزوج من الموريسكية فيليبا بوتييا Felipa Botella ولهذا السبب قد رآه جيداً Diogo do Silveira.

١٨- Alvaro de Noronha الذى خلفه Jorge Viegas فى عام ١٥٢٧ قد أسر مسيحيين موريسكيين من ماثاجان Mazagan كانوا يرعون الغنم من أجل بيعها.

١٩- مصب النهر فى أم الربيع Umm Al- Rabi الذى بنيت عليه صعب جداً الوصول إليه، مما يخلق مشكلة فى الإنقاذ ، فضلاً عن أن اتساع وسوء حالة الحصون قد جعلت من الصعب جداً الدفاع عن هذا المكان فى حالة الهجوم.

٢٠- عند حصار ١٥٠٨ لم يكن هناك أكثر من ٤٠٠ محارب (Amais- الجزء الأول، ص٤٥) وتم جلاء الأسر وغير المحاربين فى شهر أغسطس ١٥٤٩ على ٢٣ سفينة ، ذات حمولات صغيرة لأنها تلك هى التى يمكن أن تدخل الميناء، مما لايسمح بحمل عدد كبير من الناس» ولم يبق هناك إلا جنود الحراسة والجنود الذين أصدر إليهم الملك الأوامر بالبقاء». البرتغاليون وأفريقيا الشمالية تحت حكم يوحنا الثالث (١٥٢١-١٥٥٧) وفقًا لتأريخ فرانثيسكو دى اندرادى Francisco de Andrade » Hsepe- ris - الجزء ٢٤- ١٩٣٧، ص١١٦-١١٧ .

٢١- فى حدود ما أعلم، ليست هناك أعمال خاصة بهذه المسألة- مجرد إشارات فى SIHM البرتغال... حول إرسال عبيد إلى ما ديره Madere .

٢٢- الأبحاث الجارية ل .Mezzine M .

المحتويات

صفحة

تمهيد ٣

١- التسلسل التاريخى والاجتماعى والثقافى والمعمارى
للوجود العربى الإسلامى فى شبه جزيرة إيبيريا ٧

٢- عطاء العرب للنهضة الأوروبية..... ٢١

٣- مدن أندلسية :

غرناطة- إشبيلية- بلنسية- مالقة- طليطلة- قرطبة-
بطليوس- رندة- سرقسطة- شذونة- الجزيرة الخضراء-
بنبلونة- طرطوشة- سلمنقة- مرسية- دانية- مدينة
سالم- شاطبة- قلدش- قلعة أيوب- أوريولة- طريف-
طلبيرة- مجريط- منورقة- طريانة- لشبونة. ٢٥

٤- شخصيات أندلسية : موسى بن نصير ٦٥

٥- رحيل أبى عبدالله مع أسرته وكبار أتباعه من الأندلس ٧١

٦- عملية افتداء الأسرى الكناريين بساحل المغرب. ٨٥

٧- الموريسكيون - تمرد وحرب وطرد ١١٧

٨- الموريسكيون والعلوج (حالات من الارتداد). ١٨٣